بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية

جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

المجلد الثالث

دار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤١٤هـ
١٩٩٣م



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام : شارع ابن خلدون - ت : ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب ٢٩٨٢، - الرمز البريدي : ٣١٤٦١ - فاكس : ٨٤١٢١٠٠
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة - ت، ٥٨٢٣١٢٢
الرياض - ت : ٤٣٥١٠٠٢
جدة - ت : ٦٥١٦٥٤٩

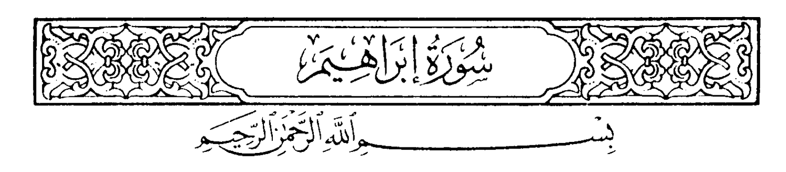
بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية



سُورَةُ إبْرَاهِيمَ





قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وقد فسرت « أيام الله » بنعمه ، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي .

فالأول : تفسير ابن عباس ، وأبي بن كعب ، ومجاهد .

والثاني : تفسير مقاتل[1] . والصواب : أن أيامه تعم النوعين ، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ونعمه التي ساقها على أوليائه ، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها « أياماً » لأنها ظرف لها تقول العرب : فلان عالم بأيام العرب ، وأيام الناس ، أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام .

فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر ، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته . قال الله تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾ [يوسف : ١١١] . ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس والأمارة بالسوء فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ، ويعمي بصيرة القلب ويصد عن اتباع الحق ويضل عن الطريق المستقيم . فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة . والعبد إذا اتبع هواه ؛ فسد رأيه ونظره ، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن ، فالتبس عليه الحق بالباطل فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر، أو بالعظة ؟[2] .

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٣ / ١٨٢) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٤٨ – ٤٤٩) .

قال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] . والذكر رأس الشكر ، كما تقدم ، والشكر جلاب النعم وموجب للمزيد . قال بعض السلف رحمة الله عليهم : ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك[١] .

وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:١٠].

أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾[٢] .

قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢].

فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم ، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان : فصاحب الحق – لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره – مضطر إلى توكله على الله ، ولا يجد بداً من توكله فإن التوكل يجمع أصلين : علم القلب ، وعمله .

أما علمه : فيقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه ، بما وكله إليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك .

وأما عمله : فسكونه إلى وكيله ، وطمأنيته إليه ، وتفويضه وتسليمه أمره إليه ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه فهو لنفسه . فبهذين الأصلين بتحقق التوكل ، وهما جماعه ، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه ، كما قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب ، ولكن لابد فيه من العلم .

وهو إما شرط فيه ، وإما جزء من ماهيته[٣] .

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٦٠) .
(٣) طريق الهجرتين (٢٣٩) .

قول الله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف ، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنثور ، لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان ، وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف ، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه ، فلذلك قال : ﴿ **لا يقدرون مما كسبوا على شيء** ﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء ، فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه موافقاً لشرعه .

والأعمال أربعة : فواحد مقبول ، وثلاثة مردودة .

فالمقبول : الخالص الصواب ، فالخالص : أن يكون لله لا لغيره ، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله .
والثلاثة المردودة ما خالف ذلك .

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع ، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم ، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا ، فكانت الأعمال التي لغير الله ، وعلى غير مراده طعمة للنار ، وبها تسعر النار على أصحابها وينشىء الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً ، كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً ، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً ، فهم وأعمالهم ، وما يعبدون من دون الله وقود النار[1] .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٢٣ - ٢٢٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم : ٢١] . فبرزوا بمعنى يبرزون يوم القيامة ، وإنما جيء به بلفظ الماضي ؛ لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد[١] .

قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٤-٢٥] .

فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح ، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين يقولون : الكلمة الطيبة : هي شهادة أن لا إله إلا الله . فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة ، الظاهرة والباطنة ، فكل عمل صالح مرضي لله فهو ثمرة هذه الكلمة .

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[٢] قال : كلمة طيبة : شهادة أن لا إله إلا الله . كشجرة طيبة : وهو المؤمن . أصلها ثابت قول : لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ **وفرعها في السماء** ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء .

وقال الربيع بن أنس : كلمة طيبة : هذا مثل الإيمان ، فالإيمان: الشجرة الطيبة ، وأصلها الثابتُ الذي لا يزول : الإخلاص فيه . وفرعه في السماء : خشية الله . والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن . فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين .

---

(١) الفوائد المشوق (١٠٣) .
(٢) أخرجها الطبري (١٣ / ٢٠٣) .
والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٥) .
والطبراني في الدعاء (٣ / ١٥٢٧) .

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء .

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، وقيامه بحقوقها ، ومراعاتها حق رعايتها . فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها ، واتصف قلبه بها ، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها ، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ، ويشهد بها لسانه ، وتصدقها جوارحه ، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات ، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا ، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا . فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى . وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى .

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلماً كثيراً طيباً ، يقارنه عمل صالح ، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب ، كما قال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) [فاطر : ١٠] فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحاً كل وقت .

والمقصود : أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً ، متصفاً بموجبها ، قائماً قلبه ولسانه وجوارحه ، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء ، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت .

ومن السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح[١] .

---

(١) صحيح البخاري (١ / ١٧٥) في العلم ، باب : قول المحدث « حدثنا » ..

ومنهم من قال : هي المؤمن نفسه ، كما قال محمد بن سعد : حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله : ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة**﴾ يعني بالشجرة الطيبة : المؤمن . ويعني بالأصل الثابت في الأرض ، والفرع في السماء .. بكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم ، فيبلغ عمله وقوله السماء . وهو في الأرض .

وقال عطية العوفي في قوله : ﴿ **ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة** ﴾ قال : ذلك مثل المؤمن ، لا يزال يخرج منه كلام طيب ، وعمل صالح يصعد إلى الله .

وقال الربيع بن أنس : أصلها ثابت وفرعها في السماء قال : ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له ، أصلها ثابت قال : أصل عمله ثابت في الأرض ، وفرعها في السماء، قال : ذكره في السماء . ولا اختلاف بين القولين .

والمقصود بالمثل : المؤمن ، والنخلة مشبهة بها ، وهو مشبه بها . وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك ،

ومن قال من السلف : إنها شجرة في الجنة . فالنخلة من أشرف أشجار الجنة .

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به ، وحكمته .

فمن ذلك : أن الشجرة لابد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر . كذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به . فعروقها : العلم والمعرفة ، واليقين ، وساقها : الإخلاص ، وفروعها : الأعمال ، وثمرتها : ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة ، والصفات الممدوحة ، والأخلاق الزكية ، والسَّمْت الصالح والهدي والدَّلّ المرضي . فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور .

فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به ، والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه ، وأخبرت به عنه رسله ، والإخلاص قائم في القلب ، والأعمال موافقة للأمر ، والهدي والدَّلُّ والسَّمْت مشابه لهذه الأصول مناسب لها ؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة ، التي اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ومنها : أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب ، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح ، والعود بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، وإلا أوشك أن تيبس .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب ، فجددوا إيمانكم »[1] .

وبالجملة : فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك .

ومن ههنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات ، وعظيم رحمته ، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده أن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم .

ومنها : أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب ، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه، كمل الغرس والزرع ، واستوى، وتم نباته ، وكان أوفر لثمرته وأطيب ، وأذكى . وإن

---

(١) لم أجده بعد بحث في مسند الإمام أحمد رضي الله عنه ، ولم أر من أشار إلى أنه في المسند من مخرجي الحديث وهو حديث صحيح .
أخرجه الحاكم (١ / ٤) وقال : رواته مصريون ثقات .. ووافقه الذهبي .
وقال الهيثمي « رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن » مجمع الزوائد (١ / ٥٢) .

تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع ، ويكون الحكم له ، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته .

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به ؛ فإنه يفوته ربح كبير ، وهو لا يشعر .

فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين : سقي هذه الشجرة ، وتنقية ما حولها . فبسقيها تبقى وتدوم ، وبتنقية ما حولها، تكمل وتتم . والله المستعان وعليه التكلان .

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ، ولعلها قطرة من بحر ، بحسب أذهاننا الواقفة ، وقلوبنا المخطئة ، وعلومنا القاصرة ، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار ، وإلا فلو طهرت منا القلوب ، وصفت الأذهان ، وزكت النفوس ، وخلصت الأعمال ، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم ، وتتلاشى عنده معارف الخلق .

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم ، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل . والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ، ومن يختص برحمته .

فصـــل

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة[1]، فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار ، فلا عِرْق ثابت ، ولا فرع عال ، ولا ثمرة زاكية ، فلا ظل ، ولا جَنىً ، ولا ساق قائم ، ولا عرق في الأرض ثابت ، فلا أسفلها مُغْدِق ، ولا أعلاها مُونِق ولا جنى لها ، ولا تعلو ، بل تُعْلَى .

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ [إبراهيم : ٢٦] .

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم ؛ وجده كذلك . فالخسران : الوقوف معه ، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه ، الذي هو كتاب الرب سبحانه .

قال الضحاك : ضرب الله **مثلاً للكافر** بشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، يقول : ليس لها أصل ولا فرع ، وليس لها ثمرة ، ولا فيها منفعة . كذلك الكافر لا يعمل خيراً ، ولا يقوله ، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعة .

وقال ابن عباس : ومثل كلمة خبيثة : وهي الشرك ، كشجرة خبيثة : يعني الكافر . اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول : الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ، ولا برهان ، ولا يقبل الله مع الشرك عملا ، فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله ، فليس له أصل ثابت في الأرض ، ولا فرع في السماء يقول : ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض .

وقال الربيع بن أنس : مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية : إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم ، فقال له : ما تقول في الكلمة الخبيثة ؟ قال : ما أعلم لها في الأرض مستقرا ، ولا في السماء مصعداً ، إلا أن تلزم عنق صاحبها ، حتى يوافي بها القيامة .

وقوله ﴿ **اجتثت** ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض .

ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين : أصحاب الكلم الطيب ، وأصحاب الكلم الخبيث . فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة ، وأنه يضل الظالمين ، وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم[1] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٢٤ - ٢٣٠) .

ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

تحت هذه الآية كنز عظيم ، من وُفِّق لمظنته وأحسن استخراجه واقتنائه وأنفق منه، فقد غنم ، ومن حرمه فقد حُرم .

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين . فإن لم يثبته ، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما . وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) [الإسراء : ٧٤] . وقال تعالى لأكرم خلقه : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) [الأنفال : ١٢] . وفي الصحيحين من حديث البجلي قال : « وهو يسألهم ويثبتهم »[(١)] وقال تعالى لرسوله : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) [هود : ١٢٠] .

فالخلق كلهم قسمان : موفق بالتثبيت ، ومخذول بترك التثبيت .

ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت ، وفعل ما أُمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده . فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتاً قال تعالى: (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً) [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلباً : أثبتهم قولا .

والقول الثابت: هو القول الحق والصدق. وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان : ثابت له حقيقة ، وباطل لا حقيقة له .

وأثبت القول : كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا ، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا ، وأقلهم ثباتا . وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب

(١) لم أقف عليه في الصحيحين من حديث البجلي ، ولكنه عند الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢ /٣٦٨) .

والترمذي (٤/٥٩٦) في صفة الجنة ، باب : ما جاء في خلود أهل الجنة ..، وقال « حسن صحيح » .

كلاهما رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .والله أعلم .

الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة .

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به ، فقال والله ما فهمت منه شيئاً إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل .

فما منح العبد منحة أفضل من منحه القول الثابت ، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ، ويوم معادهم ، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] « إن هذه الآية نزلت في عذاب القبر »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه ، إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك ، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك[٣] .

قوله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] .

فها هنا أمران تجنيب عبادتها واجتنابه ، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها . فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله[٤] .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

قول إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ **إن ربي لسميع الدعاء** ﴾

---

(١) صحيح مسلم (٥ / ٧٢٢- ٧٢٣) في صفة الجنة ، باب : عرض مقعد الميت من الجنة .
وراجع صحيح البخاري (٣ / ٢٧٤) في الجنائز ، باب : ما جاء في عذاب القبر .

(٢) إعلام الموقعين (١ /٢٣٠ – ٢٣١) وذكر هناك عدة أحاديث في بيان عذاب القبر نعوذ بالله .

(٣) عدة الصابرين (١٤٥) .

(٤) شفاء العليل (٥٩) .

فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام ، لأنه سميع لكل مسموع ، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ، ودعاء الطلب وسمع الرب تبارك وتعالى له ؛ إثابته على الثناء ، وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا[(١)] .

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم : ٤٦] .

قيل : جزاء مكرهم عنده فمكر بهم ، كما مكروا برسله .

ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم[(٢)] .

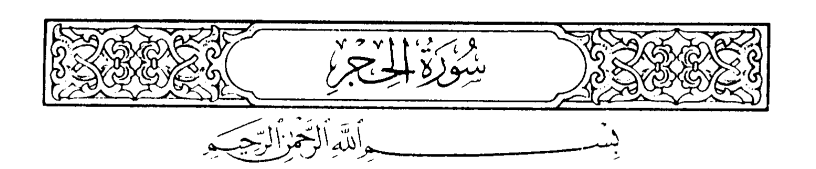
* * *

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٥٧٩ - ٥٨٠) .

سُورَةُ الحِجرِ





قوله تعالى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر : ١١-١٣].

وقد وقع هذا المعنى في القرآن في موضعين هذا أحدهما .

والثاني : في سورة الشعراء في قوله : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) [الشعراء : ١٩٨-٢٠١] . قال ابن عباس سلك الشرك في قلوب المكذبين كما سلك الخرزة في الخيط ، وقال أبو إسحاق : أي كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا بمن تقدم من الرسل . كذلك سلك الضلال في قلوب المجرمين .

واختلفوا في مفسر الضمير في قوله نسلكه . فقال ابن عباس : سلكنا الشرك ، وهو قول الحسن .

وقال الزجاج وغيره : هو الضلال .

وقال الربيع : يعني الاستهزاء .

وقال الفراء : التكذيب .

وهذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد : التكذيب والاستهزاء والشرك ، كل ذلك فعلهم حقيقة ، وقد أخبر أنه سبحانه هو الذي سلكه في قلوبهم .

وعندي في هذه الأقوال شيء . فإن الظاهر أن الضمير في قوله : ﴿ **لا يؤمنون به** ﴾ هو الضمير في قوله : ﴿ **سلكناه** ﴾ فلا يصح أن يكون المعنى

لا يؤمنون بالشرك والتكذيب والاستهزاء ؛ فلا تصح تلك الأقوال إلا باختلاف مفسر الضميرين والظاهر اتحاده . فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكه في قلوبهم ، وهو القرآن فإن قيل فما معنى سلكه إياه في قلوبهم وهم ينكرونه ؟ قيل سلكه في قلوبهم بهذه الحال أي سلكناه غير مؤمنين به ، فدخل في قلوبهم مكذباً به كما دخل في قلوب المؤمنين مصدقاً به .

وهذا مراد من قال أن الذي سلكه في قلوبهم هو التكذيب والضلال ولكن فسر الآية بالمعنى فإنه إذا دخل في قلوبهم مكذبين به ، فقد دخل التكذيب والضلال في قلوبهم فإن قيل فما معنى إدخاله في قلوبهم وهم لايؤمنون به ، قيل لتقوم عليهم بذلك حجة الله ، فدخل في قلوبهم ، وعلموا أنه حق وكذبوا به ، فلم يدخل في قلوبهم دخول مصدق به مؤمن به مرضي به وتكذيبهم به بعد دخوله في قلوبهم أعظم كفراً من تكذيبهم به قبل أن يدخل في قلوبهم .. فإن المكذب بالحق بعد معرفته له شر من المكذب به ولم يعرفه .

فتأمله فإنه من فقه التفسير ، والله الموفق للصواب[1] .

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ثم قال بعد ذلك : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ [حجر : ٧٥] . وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة[2] .

قول الله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر : ٢١] .

متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه .

وقوله : (وأن إلى ربك المنتهى) [النجم : ٤٢] . متضمن لكنز عظيم ، وهو أن كل مراد أن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه

(١) شفاء العليل (٦١ - ٦٢) .
(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٤٨) .

المنتهى ، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها ، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه ، فهو غاية كل مطلوب ، وكل محبوب لا يُحب لأجله فمحبته عناء وعذاب ، وكل عمل لا يُراد لأجله فهو ضائع وباطل ، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه ، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾ واجتمع ما يراد له في قوله : (وأن إلى ربك المنتهى) فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دون غاية إليها المنتهى . وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد ، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه ، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمراد لغيره ، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى ، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين ، فمن كان انتهاء محبته ورغبته ، وإرادته ، وطاعته إلى غيره ، بطل عليه ذلك ، وزال عنه وفارق أحوج ما كان إليه . ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد[1] .

قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر : ٤١]. قال الحسن : معناه صراط إليَّ مستقيم .

وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض فقامت أداة « على » مقام « إلى » .

والثاني : أنه أراد التفسير على المعنى وهو الأشبه بطريق السلف أي صراط موصل إليَّ . وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وهذا مثل قول الحسن وأبين منه ، وهو من أصح ما قيل في الآية .

وقيل : « عليَّ ». فيه للوجوب ، أي علي بيانه وتعريفه والدلالة عليه . والقولان نظير القولين في آية النحل وهي: (وعلى الله قصد السبيل) [النحل: ٩]. والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر : أن السبيل القاصد – وهو المستقيم

---

(١) الفوائد (١٩٦ – ١٩٧) .

المعتدل - يرجع إلى الله ويوصل إليه . قال طُفَيل الغنوي :

مضوا سلفاً قصْد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تشقلبُ

أي ممرنا عليهم ، وإليهم وصلونا . وقال الآخر :

فهن المنايا: أيُّ وادٍ سلكتُه عليها طريقي، أو علي طريقها

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة « إلى » التي هي للانتهاء لا أداة « على » التي هي للوجوب ، ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال : (إنَّ إلينا إيابهم ثم إنَّ علينا حسابهم) [الغاشية : ٢٥-٢٦] . وقال : (إلينا مرجعهم) [لقمان : ٢٣] . وقال : (إن علينا جمعه وقرآنه) [القيامة : ١٧] . وقال : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) [هود : ٦] . ونظائر ذلك .

قيل في أداة « على » سر لطيف ، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق كما قال في حق المؤمنين : (أولئك على هدى من ربهم) [البقرة : ٥] . وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) [النمل : ٧٩] . والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق ، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكان في أداة « على » على هذا المعنى ما ليس في أداة « إلى » فتأمله ، فإنه سر بديع .

فإن قلت : فما الفائدة في ذكر « على » في ذلك أيضاً ، وكيف يكون مستعلياً على الحق وعلى الهدى ؟

قلت : لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته إليه . فكان في الإتيان بأداة « على » ما يدل على علوه وثبوته واستقامته . وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة « في » الدالة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه ، كقوله تعالى : (فهم في ريبهم يترددون) [التوبة : ٤٥] . وقوله : (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) [الأنعام : ٣٩] وقوله : (فذرهم في غمرتهم حتى حين) [المؤمنون : ٥٤] (وإنهم لفي شك منه مريب [هود : ١١٠]. وتأمل قوله تعالى: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال

مبين) [سبأ : ٢٤] . فإن طريق الحق تأخذ علوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافين .

وفي قوله تعالى : ﴿ **هذا صراط عليَّ مستقيم** ﴾ [الحجر : ٤١] قول ثالث وهو قول الكسائي : إنه على التهديد والوعيد نظير قوله : (إن ربك لبالمرصاد) [الفجر : ١٤] . كما يقال : طريقك عليّ ، وممرك عليّ لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ، ولا معجز والسياق يأبى هذا ولا يناسبه لمن تأمله . فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال : ﴿ **لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] . فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم . فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير ، وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط ؛ لأنه صراط عليّ ، ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته ، فإنه محروس محفوظ بالله ، فلا يصل عدو الله إلى أهله .

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ، ولينظر إلى هذا المعنى ، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين ، أيهما أليق بالآيتين وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف .

وأما تشبيه الكسائي له بقوله : (إن ربك لبالمرصاد) فلا يخفى الفرق بينهما سياقا ودلالة فتأمله . ولا يقال في التهديد : هذا صراط مستقيم عليَّ ، لمن لا يسلكه . وليست سبيل المهدد مستقيمة فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم ، وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله فلا يستقيم هذا القول البتة .

وأما من فسره بالوجوب ، أي عليَّ بيان استقامته والدلالة عليه ، فالمعنى صحيح لكن في كونه هو المراد بالآية نظر لأنه حذف في غير موضع الدلالة و لم يؤلف الحذف المذكور، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة فإنه حذف مألوف معروف حتى إنه لا يذكر البتة فإذا قلت : له درهم عليَّ ، كان الحذف معروفاً مألوفاً فلو أردت : علَّي نقدُه ، أو عليَّ

وزنه وحفظه ، ونحو ذلك ، وحذفت ؛ لم يَسُغ. وهو نظير: علي بيانه. المقدر في الآية، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق . وأجل المعنيين وأكبرهما .

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية – رضي الله عنه – يقول : وهما نظير قوله تعالى : (إنَّ علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى) [الليل : ١٢-١٣] . قال : فهذه مواضع في القرآن في هذا المعنى .

قلت وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة (والليل إذا يغشى) إلا معنى الوجوب أي علي بيان الهدى من الضلال ، ومنهم من لم يذكر في سورة (النحل) إلا هذا المعنى كالبغوي[1] وذكر في (الحجر) الأقوال الثلاثة ، وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة (النحل) واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث[2] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : ٥٢] . والوجل : الخوف ومحله القلب[3] .

قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : ٦٦] . فسر ذلك الأمر بقوله : ﴿ **أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**﴾ وفي إبهامه أولا، وتفسيره بعد ذلك تفخيم للمبهم وتعظيم لشأنه، فإنه لو قال تعالى:– **وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**– لما كان بهذه المثابة من الفخامة فإن الإبهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكر واستعظام لما قرع سمعه فيتشوف إلى معرفة كنهه ، والاطلاع عليه ، وعلى حقيقته[4] .

---

(١) تفسير البغوي (٤ / ٦٧) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١٥ – ١٨) .
(٣) الفوائد المشوق (٢٤) .
(٤) الفوائد المشوق (١٧٩) .

قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام، ومراجعته قومه له ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۞ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٠-٧٢] .

أكثر المفسرين من السلف والخلف ، بل لا يعرف عن السلف نزاعاً أن هذا قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته وهذه مزية لا تعرف لغيره ، ولم يوافق الزمخشري[1] على ذلك فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط ، وأنه من قول الملائكة ، فقال : هو على إرادة القول ، أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ وليس في اللفظ على واحد من الأمرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لعمرك أي وحياتك ، قال : وما أقسم الله بحياة نبي غيره .

والعَمر والعُمر واحد إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم وأيضاً فإن العَمر حياة مخصوصة فهو عمر شريف عظيم أهل أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم ولا ريب أن عمره وحياته صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم والآيات فهو أهل أن يقسم به ، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . وقوله تعالى : ﴿ **يعمهون** ﴾ أي : يتحيرون وإنما وصف الله للوطية بالسكرة ؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة . كما قال القائل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران[2]

---

(١) وذكر الزمخشري القول الثاني وكأنه أشار لضعفه فقال : (وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ..) الكشاف (٢ / ٣١٧ - ٣١٨) . وانظر تفسير الطبرى (١٤ / ٤٤) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٨ - ٤٣٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

أقسم بهذه الأشياء كلها لعظم خلقها ولشرفها عنده ، وأقسم بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ليعرف الناس عظمته عنده ومكانته لديه .. ومنه قول الشاعر :

حَلَفتُ بمن سَوَّى السماءَ وشادَها ومن مَرَج البحرين يلتقيان
ومن قام في المعقول من غير ريبة بما شئت من إدراك كل عيان
لما خلقت كفّاك إلا لأربعٍ عقائل لم يُعْقَلْ لَهُنَّ ثَوان
لتقبيل أفواه وإعطاء نائلٍ وتقليب هنديٍّ وجذب عِنانِ

قال المصنف عفا الله عنه :

القسم في القرآن العظيم على قسمين :

مظهر ومضمر ، فالمظهر كما تقدم .

والمضمر على قسمين :

قسم دلت لام القسم على حذفه كما في قوله تعالى : (لتبلون في أموالكم وأنفسكم) [آل عمران : ١٨٦] . وفي قوله تعالى : (لترون الجحيم) [التكاثر : ٦] .

والقسم الثاني: ما دل عليه المعنى في مثل قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً **مقضيًا**) [مريم : ٧١] . تقديره والله إن منكم إلا واردها يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لن تمسه النار إلا تحلة القسم »[1] وله في القرآن نظائر[2] .

(١) رواه البخاري (٣ / ١٤٢) في الجنائز ، باب : فضل من مات له ولد فاحتسب .
ومسلم (٥ / ٤٨٦) في البر والصلة ، باب : فضل من يموت له ولد فيحتسبه .
(٢) الفوائد المشوق (١١٧) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] .

وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما ، وهي العلامة ويقال : توسمت فيك كذا ، أي تفرسته ، كأنها أخذت من السيما ، وهي فعلا من السمة وهي العلامة .

وقال تعالى : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) [محمد : ٣٠] .
وقال تعالى: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم) [البقرة :٢٧٣].

وفي الترمذي مرفوعاً[(١)] : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ والله أعلم[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال مجاهد رحمه الله : المتفرسين ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : للناظرين .

وقال قتادة : للمعتبرين .
وقال مقاتل : للمتفكرين .

ولا تنافي بين هذه الأقوال ، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم ، وما آل إليه أمرهم ؛ أورثه فراسة وعبرة وفكرة .

وقال تعالى في حق المنافقين : (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم **ولتعرفنهم في لحن القول**) [محمد : ٣٠] .

فالأول : فراسة النظر والعين .

---

(١) رواه الترمذي (٥ / ٢٧٨ - ٢٧٩) في تفسير القرآن ، سورة الحجر .
وقال : « هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن بعض أهل العلم ، وضعفه من جميع طرقه الألباني كما في الضعيفة برقم (١٨٢١) . فانظره مفصلاً وقد يغني عنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » .
صححه الألباني برقم (١٦٩٣) الصحيحة .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١١٨ - ١١٩) .

والثاني : فراسة الأذن والسمع ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – يقول : علّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة ، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط ، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم . فقال : (ولتعرفنهم في لحن القول) وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه .

واللحن[١] ضربان : صواب وخطأ . فلحن الصواب نوعان :

أحدهما : الفطنة ومنه الحديث « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض »[٢] .

والثاني : التعريض والإشارة ، وهو قريب من الكناية .

ومنه قول الشاعر[٣] :

وحـديث أَلَـذُّهُ وهـــو مما يشتهي السامعون يوزن وزنا
مَنْطِق صائب وتَلْحَنُ أحيَانـاً وخَيْرُ الحَديث ما كان لَحْناً

والثالث : فساد المنطق في الإعراب . وحقيقته : تغير الكلام عن وجهه : إما إلى خطأ ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ .

والمقصود : أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه ، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية .

---

(١) انظر لسان العرب (٧ / ٤٠١٣) مادة : لحن .

(٢) رواه البخاري (٥ / ٣٤٠) في الشهادات ، باب : كيف يستحلف ..
ومسلم (٤ / ٣٠٢) في الأقضية ، باب : حكم الحاكم لا يغير الباطن .

(٣) البيتان في الأمالي « لأبي علي القالي » (١ / ٥) والأول جاء بلفظ :
وحَديثٍ أَلَذُّهُ هو مِمَّا تشتهيه النفوس يُوزَن وَزْنا
وراجع اللسان (٧ / ٤٠١٤) .
وغريب الحديث للخطابي (٢ / ٥٣٦) .

والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع، وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال[١]: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾[٢].

وقال رحمه الله تعالى:

و (التوسُّم) تفعل من السيما . وهي العلامة فسمى المتفرس متوسماً . لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب . فيستدل بالعيان على الإيمان . ولهذا خصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء ، لأنهم يستدلون بما يشاهدونه منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهي ، والثواب والعقاب .

وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء ، وبنوه هم نسخته وخلفاؤه . فكل قلب فهو قابل لذلك وهو فيه بالقوة ، وبه تقوم الحجة ، وتحصل العبرة ، وتصح الدلالة ، وبعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين ، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحي والإيمان ، فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد فيصير نوراً على نور ، فتقوى البصيرة ، ويعظم النور ، ويدوم بزيادة مادته ودوامها . ولا يزال في تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح ، والكلام والأعمال .

ومن لم يقبل هدى الله ، ولم يرفع به رأساً دخل قلبه في الغلاف والأكِنَّة ، فأظلم ، وعمي عن البصيرة ، فحجبت عنه حقائق الإيمان . فيرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والرشد غياً ، والغي رشداً . قال تعالى : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) [المطففين : ١٤] . و (الرين) و (الران) هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق ، والانقياد له .

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة[٣] .

---

(١) مضى قريباً .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٢ – ٤٨٣) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٣٠) .

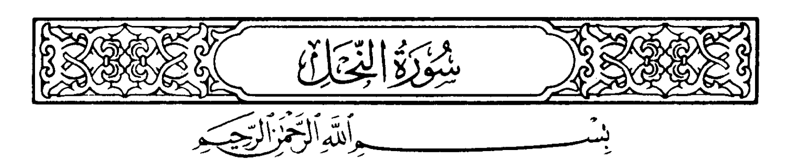
قال الله تعالى : ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩] .

وهو الموت بإجماع أهل العلم كلهم قال الحسن : لم يجعل الله لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت[1] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٣ / ٣١٦) .

سُورَةُ النَّحْلِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل : ١] .

فإن (أتى) – ها هنا – بمعنى يأتي وإنما حسن فيه لفظ الماضي لصدق إثبات الأمر ودخوله في جملة ما لابد من حدوثه ووقوعه ، فصار يأتي بمنزلة قد أتى ومضى[1] .

وهو سبحانه يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبته وتصديق رسله والإيمان بلقائه كما تضمنته سورة النعم وهي سورة النحل من قوله ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ [النحل : ٤] . إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾ [النحل : ٨١].

فذكرهم بأصول النعم وفروعها وعددها عليهم نعمة نعمة ، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم ؛ ليسلموا له فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم ، ثم أخبر عمن كفره ، ولم يشكر نعمه بقوله : ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها** ﴾ [النحل : ٨٣] . قال مجاهد : المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ، ثم ينكرونه بأن يقولوا هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم .

وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لكان كذا وكذا وقال

(١) الفوائد المشوق (١٠٣) .

الفراء، وابن قتيبة[١]: يعرفون أن النعم من الله ولكن يقولون هذه بشفاعة آلهتنا.

وقالت طائفة : النعمة ها هنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وإنكارها جحدهم نبوته ، وهذا يروى عن مجاهد والسدي[٢] ، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار فإنه إنكار لما هو أجل النعم أن تكون نعمة ، وأما على القول الأول والثاني والثالث فإنهم لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها إلى غيره، فإن الذي قال إنما كان هذا لآبائنا ورثناه كابرا عن كابر ، جاحدٌ لنعمة الله عليه غير معترف بها . وهو كالأبرص والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليهما فأنكرا وقالا « إنما ورثنا هذا كابرا عن كابر فقال إن كنتما كاذبين فصيركما الله إلى ما كنتما »[٣] وكونها موروثة عن الآباء أبلغ في إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آباءهم ، ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمه . وأما قول الآخرين لولا فلان لما كان كذا فيتضمن قطع إضافة النعمة إلى من لولاه لم تكن ، وإضافتها إلى من لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعاً وغايته أن تكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله تعالى نعمته على يده والسبب لا يستقل بالإيجاد وجَعْلُهُ سببا هو من نعم الله عليه وهو المنعم بتلك النعمة ، وهو المنعم بما جعله من أسبابها فالسبب والمسبب من إنعامه ، وهو سبحانه قد ينعم بذلك السبب ، وقد ينعم بدونه فلا يكون له أثر وقد يسلبه تسببيته وقد يجعل لها معارضا يقاومها وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه ، فهو وحده المنعم على الحقيقة . وأما قول القائل بشفاعة آلهتنا فتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله وهي مُحضَرة في الهوان والعذاب مع عابديها . وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (صـ ٢٤٨) .

(٢) ذكر هذه الأقوال في الآية ثم رجح كون المقصود بالإنكار للنعمة « النعمة عليهم بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم داعياً إلى ما بعثه بدعائه إليه ، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعما بعث به ، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده ، إذا لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده » .

تفسير الطبرى (١٤ / ١٥٨) .

(٣) مضى برقم (٣) (صـ ٤٥٧) من سورة يوسف .

ارتضاه . فالشفاعة بإذنه من نعمه فهو المنعم بالشفاعة وهو المنعم بقبولها وهو المنعم بتأهيل المشفوع له إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له فمن المنعم على الحقيقة سواه ؟ قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] . فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين لا في الدنيا ولا في الآخرة[١] .

قال تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل : ٩] .

أي ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل الغي[٢] .

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤١] .

وقال في هذه السورة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وقال فيها عن خليله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] .

فقد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع ، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها ، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته . وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية[٣] .

(١) شفاء العليل (٣٦ - ٣٧) .
(٢) حادي الأرواح (٦٨) .
(٣) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٢) .

قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل : ٤٣-٤٤] .

أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور والذكر ها هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما التوراة والإنجيل[١] .

أخبر سبحانه – عن سجود جميع المخلوقات له فقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل : ٤٩، ٥٠] . فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيماً وإجلالا[٢] .

أنه سبحانه وصف نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل : ٦٠] .

وقال تعالى : (وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) [الروم : ٢٧] . فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم ، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده ؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل أي أعلى من غيره فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ، ونفي صرف وأي مثل أدنى من هذا ؟! تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً . فمثل السوء لعادم صفات الكمال ، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده، وكلامه، وحكمته ؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كاملاً، وهي الإيمان، والعلم، والمعرفة، واليقين، والعبادة لله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر، والرضا، والشكر، وغير ذلك من الصفات، التي اتصف بها من آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم، وهي صفات كمال ؛ صار لهم مثل السوء .

---

(١) شفاء العليل (٣٩) .

(٢) كتاب الصلاة (١٨٠) .

فمن سلب صفات الكمال عن الله، وعلوه على خلقه ، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ومشيئته، وحياته ، وسائر ما وصف به نفسه ، فقد جعل له مثل السوء ونزهه عن المثل الأعلى ، فإن مثل السوء هو العدم ، وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره ، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى ، ووجهه الأعلى ، وكلامه الأعلى ، وسمعه الأعلى وبصره وسائر صفاته عليا ؛ كان له المثل الأعلى ، وكان أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان، لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإنْ لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده ، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى، مثل، أو نظير . وهذا برهان قاطع على إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور، والقوة ، ونظير هذا القهر المطلق، مع الوحدة ، فإنهما متلازمان فلا يكون القهار إلا واحداً ، إذ لو كان معه كفؤ له ، فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق ، وإن قهره لم يكن كفؤاً ، وكان القهار واحداً فتأمل كيف كان قوله : (ليس كمثله شيء) [الشورى : ١١] . وقوله : (وله المثل الأعلى) [الروم : ٢٧] . من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه .

فإن قلت : قد فهمت هذا وعرفته فما حقيقة المثل الأعلى ؟ .

قلت : قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين[١] واستشكلوا قول السلف فيه ، فإن ابن عباس وغيره قالوا : (مثل السوء) العذاب والنار (ولله المثل الأعلى) شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال قتادة : هو الإخلاص والتوحيد . وقال الواحدي : هذا قول المفسرين في هذه الآية ، ولا أدري لم قيل للعذاب مثل السوء ، وللإخلاص المثل الأعلى ؟ قال : وقال قوم : المثل السوء، الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد،

(١) انظر تفسير القرطبي (٥ / ٣٧٣٥) .

وكراهتهم للإناث ، خوف العيلة ، والعار ، ولله المثل الأعلى ، الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد ، قال : وهذا قول صحيح فالمثل كثيراً يرد بمعنى الصفة ، قاله جماعة من المتقدمين .

وقال ابن كيسان : مثل السوء ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال والمثل الأعلى نحو قوله : (الله نور السموات والأرض مثل نوره) [النور : ٣٥] .
وقال ابن جرير[١] ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ نحو قوله هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره .

قلت : المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا ، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها، وذكرها . وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه فها هنا أربعة أمور :

الأول : ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها وهذا معنى قول من فسره بالصفة .

الثاني : وجودها في العلم والتصور وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف : إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه ، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته . وهذا معنى قول من قال من المفسرين : أهل السماء يعظمونه ويحبونه ويعبدونه ، وأهل الأرض يعظمونه ويجلونه ، وإن أشرك به من أشرك، وعصاه من عصاه ، وجحد صفاته من جحدها فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته ، قال تعالى : (بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) [البقرة : ١١٦] . فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره ، وأكمل وأعظم من كل سواه .

الثالث : ذكر صفاته والخبر وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل .

الرابع : محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة

---

(١) تفسير الطبري (١٤ / ١٢٥) .

إليه ، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل ، كان هذا الحب والإخلاص أقوى فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لاتتجاوزها ، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وقال تعالى: ﴿ **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلّ على مولـه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾ [النحل : ٧٥-٧٦] . فهذان مثلان ضربهما لنفسه وللأصنام ، فللأصنام : مثل السوء ، وله المثل الأعلى ، وقال تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) [الحج : ٧٣-٧٤] . فهذا المثل الأعلى الذي له سبحانه .

والأول مثل السوء للصنم وعابديه ، وقد ضرب سبحانه للمعارضين بين الوحي وعقولهم مثل السوء بالكلب تارة، وبالحمر تارة ، وبالأنعام تارة ، وبأهل القبور تارة ، وبالعمي الصم تارة ، وغير ذلك من الأمثال السوء التي ضربها لهم ولأوثانهم، وأخبر عن مثله الأعلى بما ذكره من أسمائه وصفاته وأفعاله .

وضرب لأوليائه وعابديه أحسن الأمثال ، ومن تدبر القرآن فهم المراد بالمثل الأعلى ومثل السوء . وبالله التوفيق[1] .

وقد اختلف في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩] . هل الضمير في « فيه » راجع إلى الشراب، أو راجع إلى القرآن ؟ على قولين : الصحيح : رجوعه إلى الشراب ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس والحسن، وقتادة، والأكثرين ، فإنه هو المذكور، والكلام سيق

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ١٠٣٠ - ١٠٣٦) .

لأجله ، ولا ذكر للقرآن في الآية، وهذا الحديث الصحيح وهو قوله « صدق الله »[(١)] كالصريح فيه ، والله تعالى أعلم[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل : ٧٥-٧٦] .

هذان مثلان متضمنان قياسين من قياس العكس ، وهو نفي الحكم بنفي علته، وموجبه .

فإن القياس نوعان : قياس طَرْدٍ ، يقتضي إثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه .

وقياس عكس ، يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه .

فالمثل الأول : ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان ، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ، وينفق كيف يشاء على عبيده ، سرا وجهرا ، وليلا ونهارا ، يمينه ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سَحَّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء لي ، ويعبدونها من دوني ، مع هذا التفاوت العظيم ، والفرق المبين ؟ هذا قول مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، مثل المؤمن في الخير

---

(١) يشير للحديث الصحيح، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخي يشتكي بطنه ، فقال : « اسقه عسلاً » فقال له في المرة الثالثة « فقال : صدق الله وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلاً ، فسقاه ، فبرأ »

رواه البخاري (١٠ / ١٤٦) في الطب ، باب : الدواء بالعسل .

ومسلم (٥ / ٦٢ - ٦٣) في السلام ، باب : لكل داء دواء واستحباب التداوي .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٦) .

الذي عنده ، ثم رزقه منه رزقا حسنا ، **فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سرا** وجهرا . والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز ، لا يقدر على شيء ، لأنه لا خير عنده ، **فهل** يستوي الرجلان عند **أحد العقلاء ؟**

والقول الأول : أشبه بالمراد ، فإنه أظهر في بطلان الشرك ، وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة ، وأقرب نسبا بقوله : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[النحل : ٧٣-٧٤]. ثم قال: ﴿ **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء** ﴾ .

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه : أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه **رزقا** حسنا **والكافر** المشرك **كالعبد** المملوك **الذي لا يقدر** على شيء . **فهذا** نبه عليه المثل وأرشد إليه . فذكره ابن عباس رضي الله عنهما منبها على إرادته ، لا أن الآية اختصت به .

فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله .

فصـــل

وأما المثل الثاني : فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه،ولما يعبد من دونه أيضا ، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، قد عدم النطق القلبي واللساني ، ومع هذا **فهو** عاجز لا يقدر على شيء ألبتة . ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ، **ولا يقضي لك حاجة،** والله سبحانه حي قادر متكلم ، يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم . وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد ، فإن أمره بالعدل – وهو الحق – يتضمن أنه سبحانه عالم به ، معلم له ، راض به ، آمر لعباده به ، محب لأهله .

لا يأمر بسواه ، بل ينزه عن ضده ، الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل ، بل أمره وشرعه عدل كله ، وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه ، وهم المجاورون له عن يمينه على منابر من نور .

وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني ، والأمر القدري الكوني . وكلاهما عدل ، لا جور فيه بوجه ما ، كما في الحديث الصحيح « اللهم إني عبدك ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك »[1] فقضاؤه : هو أمره الكوني . فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فلا يأمر إلا بحق وبعدل ، وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل . وإن كان في المقضي المقدَّر ما هو جور وظلم . فالقضاء غير المقضي ، والقدر غير المقدر .

ثم أخبر سبحانه أنه على صراط مستقيم . وهذا نظير قول رسوله هود : (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم)[2] [هود : ٥٦] .

كقوله : ﴿ **ضرب الله مثلاً عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾ [النحل : ٧٥-٧٦] . يعني إذا كان لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر على شيء وغني موسع عليه ينفق مما رزقه الله ، فكيف تجعلون الصنم الذي هو أسوأ حالا من هذا العبد شريكا لله ، وكذلك إذا كان لا يستوي عندكم رجلان أحدهما أبكم لا يعقل ولا ينطق وهو مع ذلك عاجز لا يقدر على شيء وآخر على طريق مستقيم في أقواله وأفعاله وهو آمر بالعدل عامل به لأنه على صراط

---

(١) مضى تخريجه في سورة آل عمران (صـ ٤٩٢) حديث رقم (١) .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢١١ - ٢١٣) .

مستقيم فكيف تسوون بين الله وبين الصنم في العبادة ونظائر ذلك كثيرة في القرآن وفي الحديث كقوله في حديث الحارث الأشعري « وإن الله أمركم أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله وقال له اعمل وأد إلي ، فكان يعمل ويؤدي إلى غيره فأيكم يحب أن يكون عبده كذلك »[١] فالله سبحانه لا تضرب له الأمثال التي يشترك هو وخلقه فيها لا شمولا ولا تمثيلا ، وإنما يستعمل في حقه قياس الأولى[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾ [النحل : ٧٦] .

فالمثل الأول للصنم وعابديه ، والمثل الثاني ضربه الله تعالى لنفسه وأنه يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فكيف يسوي بينه وبين الصنم الذي له مثل السوء فما فعله الرب تبارك وتعالى مع عباده هو غاية الحكمة والإحسان والعدل في أقدارهم وإعطائهم ومنعهم وأمرهم ونهيهم . فدعوى المدعي أن هذا نظير تخلية السيد بين عبيده وإمائه يفجر بعضهم ببعض ويسيء بعضهم بعضاً أكذب دعوى وأبطلها والفرق بينهما أظهر وأعظم من أن يحتاج إلى ذكره والتنبيه عليه ، والحمد لله الغني الحميد فغناه التام فارق ، وحمده وملكه وعزته وحكمته وعلمه وإحسانه وعدله ودينه وشرعه وحكمه وكرمه ومحبته للمغفرة والعفو عن الجناة

---

(١) حديث صحيح .
وأوله « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ... » الحديث .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٤ / ١٣٠ ، ٢٠٢) .
والترمذي (٥ / ١٣٦) في الأمثال ، باب : ما جاء في مثل الصلاة والصيام .. وقال « حديث حسن صحيح غريب .. » .
والحاكم (١ / ٤٢١) وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .
ورواه غيرهم .
وانظر تعليق فضيلة الشيخ الألباني حفظه الله تعالى على الحديث في صحيح الجامع برقم (١٧٢٠) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٤١٠) .

والصفح عن المسيئين وتوبة التائبين وصبر الصابرين وشكر الشاكرين الذين يؤثرونه على غيره ويتطلبون مراضيه ويعبدونه وحده ويسيرون في عبيده بسيرة العدل والإحسان والنصائح ، ويجاهدون أعداءه فيبذلون دماءهم وأموالهم في محبته ومرضاته ؛ فيتميز الخبيث من الطيب ووليه من عدوه ويخرج طيبات هؤلاء وخبائث أولئك إلى الخارج ؛ فيترتب عليها آثارها المحبوبة للرب تعالى من الثواب والعقاب والحمد لأوليائه والذم لأعدائه ، وقد نبه تعالى على هذه الحكمة في كتابه في غير موضع كقوله تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء)[1] [آل عمران :١٧٩] . فإن الإنسان كما قال الله – عز وجل – : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٧٨] .

فهو في أصل الخلقة خلق خاليا ساذجاً لاعلم له بشيء من المعقولات ولا المحسوسات البتة ، فأول ما يخلق فيه حاسة اللمس فيدرك بها أجناساً من الموجودات كالحرارة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها ، فاللمس قاصر عن الألوان والأصوات بل هي كالمعدومة بالنسبة إليه ، ثم يخلق له البصر فيدرك به الألوان والأشكال والقرب والبعد والصغر والكبر والطول والقصر والحركة والسكون وغير ذلك ، ثم ينفتح له السمع فيسمع الأصوات الساذجة والنغمات ثم يترقى في مدارك هذه الحاسة على التدريج حتى يسمع من البعد ما لم يكن يسمعه قبل ذلك، ويتفاوت الناس في قوة هذين الإدراكين، وضعفهما تفاوتاً بيناً ، حتى يدرك الواحد ما يجزم الآخر بكذبه فيه ، والمدرك مشاهد له لا يمكنه تكذيب نفسه فيه وذنبه عند المكذب له أنه اختص بإدراكه دونه ، ثم يخلق له الذوق فيدرك به تفاضل الطعوم من الحلاوة والحموضة والمرارة وما بين ذلك ما لم يكن له به شعور قبل ذلك، وكذلك الشم هو أكمله وليس عنده من المعقولات عين ولا أثر ولا حس ولا خبر ، ثم يخلق فيه التمييز وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك في هذا الطور أموراً أخر زائدة على المحسوسات لم يكن يدركها قبل ذلك .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤١٣ – ٤١٤) .

ثم يترقى إلى طور آخر يدرك به الواجب والجائز والمستحيل . وأن حكم الشيء حكم مثله،والضد لا يجتمع مع ضده ، والنقيضان إذا صدق أحدهما كذب الآخر ونحو ذلك من أوائل العلوم الضرورية ثم يترقى إلى طور آخر يستنتج فيه العلوم النظرية من تلك الضروريات التي تقدم علمه بها ثم يترقى في هذا الطور من أمر إلى أمر فوقه وأغمض منه ، نسبة ما قبله إليه كنسبة الحس إلى العقل . ثم وراء ذلك كله طور آخر نسبة ما قبله إليه كنسبة أطوار الإنسان إلى طور العقل أو دون هذه النسبة ، ينفتح فيه عين يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل . وأمور العقل معزول عنها كعزل الحس عن مدركات العقل،وهذا هو طور النبوة الذي نسبة نور العقل المجرد إليه دون نسبة ضوء السراج إلى الشمس، فإنكارُ العقل لما يخبر به النبي عين الجهل ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه و لم يصل إليه فيظن أنه غير ثابت في نفسه(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه ، واحتج بقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ٧٨] .

واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئا ، ولا يسمع صوتاً فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة .

وليس ما قاله صحيحاً ولا حجة له في الآية لأن الواو لا ترتيب فيها ، بل الآية حجة عليه ، فإن فؤاده مخلوق وهو في بطن أمه، وقد تقدم حديث(٢) حذيفة بن أُسيد، والصحيح : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها

---

(١) الصواعق (٣ / ٩٥٧) .

(٢) رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى (٥ / ٤٩٩) في القدر ، في كيفية خلق الآدمى .. والحديث « عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب أشقى أو سعيد ؟ ... » الحديث .

ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها، وهذا وإن كان المراد به : العين والأذن؛ فالقوة السامعة والباصرة مودعة فيها، وأما الإدراك بالفعل فهو موقوف على زوال الحجاب المانع منه فلما زال بالخروج من البطن عمل المقتضي عمله، والله أعلم[(١)].

قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل : ٨١] .

فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعه الآدميين وعملهم ، فإذا كانت مجعولة لله فهى مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيآتها[(٢)] .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] .

فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله ، وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له ، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به . وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم[(٣)] .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

أمر الله في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ونهى في

(١) تحفة الودود (٢٣٥) .
(٢) شفاء العليل (٥٤ – ٥٥) .
(٣) طريق الهجرتين (٣٨٠) .

وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي ووعظ في آخرها وذكَّر ، فجمع في هذه ضروباً من البيان وأنواعاً من الإحسان فذكر العدل والإحسان والفحشاء والمنكر بالألف واللام التي هي للاستغراق ، أي استغراق الجنس المحتوي على جميع أنواعه وضروبه ، وجمع فيها بين الطباق اللفظي والطباق المعنوي ، أما اللفظي ففي قوله : ﴿ **إن الله يأمر ... وينهى** ﴾ وأما المعنوي : ففي قوله : ﴿ .. **العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾ وقوله : ﴿ .. **الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ فإن الثلاثة الأواخر أضداد الثلاثة الأول لأن الثلاثة الأول من الفعل الحسن ، والثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيصاء عليهم ، والإيتاء لهم مع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم ، وبدأ بالعدل لأنه فرض وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه ، وقد يجب . فاحتوت الآية على حسن النسق ، وعطف الجمل بعضها على بعض ، فقدم العدل ، وعطف عليه الإحسان الذي هو جنس عام ، وخص منه نوعاً خاصاً وهو إيتاء ذي القربى ثم أتى بالأمر مقدماً وعطف عليه النهي بالواو ، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف ، بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ، ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ، ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا ما لو بث في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها ولا احتوت على أصولها ومبانيها سبحان من لايشبه خلقه ذاتاً ولا كلاماً ولا إحكاماً ولا أحكاماً[1] .

---

(١) الفوائد المشوق (٦٨ - ٦٩) .

الحياة الطيبـة للمؤمن

والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا الحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين ، فهم أحياء في الدارين[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ، ومن طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده،وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضاة الله ؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه هو المستولي عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه . فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث[٢] .

---

(١) الجواب الكافي (١٧٧) .

(٢) الجواب الكافي (٢٧٧ – ٢٧٨) .

وقال رحمه الله تعالى :

هذا خبر أصدق الصادقين ، ومخبره عند أهله عين اليقين ، بل هو حق اليقين ، ولابد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات . ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه ، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول : فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ، ويقول إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً ، ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ، ويقول الآخر إنه ليمر بالقلب أوقات ليرقص فيها طرباً ، وقال بعض العارفين إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[1] .

وقال رحمه الله :

فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة ، وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة[2] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٧) .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨-١٠٠]

ومعنى (استعذ بالله) امتنع به واعتصم به والجأ إليه ومصدره العوذ والعِيَاذ والمَعَاذ وغالب استعماله في المستعاذ، به ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد عُذتِ بمعاذ »[(١)] وأصل اللفظة : من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه ومن كلام العرب (أطيب اللحم عوذه) أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به . وناقة عائذ : يعوذ بها ولدها وجمعها (عُوذ) كحمر ومنه في حديث الحديبية « معهم العُوذ المطافيل »[(٢)] والمطافيل جمع (مُطفِل) وهي الناقة التي معها فصيلها .

قالت طائفة – منهم صاحب جامع الأصول[(٣)]–: استعار ذلك للنساء، أي معهم النساء وأطفالهم .

ولا حاجة إلى ذلك ، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن . وفي ذلك وجوه :

منها : أن القرآن شفاء لما في الصدور ، يُذهب لما يُلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان ، فأمر

---

(١) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها : (٩ / ٢٦٨) في الطلاق ، باب : من طلق ، وهل يُواجهُ الرجل امرأته بالطلاق ؟
والحديث في « ابنة الجون » لما أُدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت : أعوذ بالله منك .. فذكره .

(٢) رواه البخاري (٥ / ٣٨٨) في الشروط ، باب : الشروط في الجهاد ..

(٣) هو الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري رحمه الله تعالى ، وانظر جامع الأصول (٨ / ٣٠٣) .
وانظر في معنى « أعوذ » واشتقاقها ، كتاب « إعراب ثلاثين آية من القرآن الكريم » (صـ ٣-٥) للإمام « ابن خالويه » رحمه الله تعالى ، وغيرها من كتب التفسير .

أن يطرد مادة الداء ، ويخلي منه القلب ؛ ليصادف الدواء محلا خاليا، فيتمكن منه ويؤثر فيه، كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومُضادٍ له فينجع فيه.

ومنها : أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب ، كما أن الماء مادة النبات ، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً ، فكلما أحَسَّ بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه ، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن .

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله : أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن ، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها .

وكأن من قال : إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى ، وهو لعمر الله مَلْحَظٌ جيد ، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة . وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين ، ومنها : أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن ، وتستمع لقراءته ، كما في حديث أُسيد بن حُضَير[1] لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح فقال عليه الصلاة والسلام : « تلك الملائكة » والشيطان ضد الملك وعدوه ، فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

ومنها : أن الشيطان يُجلب على القارىء بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه ، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارىء به . فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه .

---

(١) رواه البخاري (٨ / ٦٨٠) في فضائل القرآن ، باب : نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن . ومسلم (٢ / ٤٥٠ - ٤٥١) في صلاة المسافرين باب : نزول السكينة لقراءة القرآن .

ومنها : أن القارىء يناجي الله تعالى بكلامه ، و « الله تعالى أشد أَذَناً للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب الْقَيْنَة إلى قينته »[1] والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مفاجأة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، والسلف كلهم على أن المعنى : إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته . قال الشاعر في عثمان :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم ؟ ولهذا يغلط القارىء تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه ، فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه ، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور : الاستعاذة بالله تعالى منه .

ومنها : أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير ، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم[2] «إن شيطاناً تَفَلَّتَ عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع علي صلاتي ..» الحديث. وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر .

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦ / ١٩) .
وابن ماجه (١ / ٤٢٥) برقم (١٣٤٠) في إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : حسن الصوت بالقرآن .
وقال البوصيري في الزوائد : « هذا إسناد حسن لقصور درجة ميسرة مولى فضالة وراشد بن سعيد عن درجة أهل الحفظ والضبط ... » (١ / ٤٣٦) مصباح الزجاجة .
وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن ابن ماجه (صـ ٩٩) .
والحاكم (١ / ٥٧٠ - ٥٧١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .
وقال الذهبي : « بل هو منقطع » .

(٢) رواه البخاري (٦ / ٥٢٧) في أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ من سورة [صٓ : ٣٠] .

وفي مسند الإمام أحمد[1] من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد – وهو جهاد النفس والمال – فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال : فعصاه فجاهد».

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير .

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله « ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم » رواه ابن أبي حاتم في تفسيره – فهو بالرصد ، ولاسيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يأخذ في السير ، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ، ثم اندفع في سيره .

ومنها : أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن ، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدى كلام غيره ، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارىء وإن كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها .

فهذه بعض فوائد الاستعاذة .

وقد قال أحمد في رواية حنبل لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عز وجل : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ [النحل : ٩٨] .

---

(١) حديث صحيح .
رواه الامام أحمد رضي الله عنه (٣ / ٤٨٣) .
والنسائي (٦ / ٢١ – ٢٢) في الجهاد ، باب : ما لمن أسلم وهاجر وجاهد .
وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة « إسناده حسن ، إلا أن في إسناده **اختلافا..»** وصححه ابن حبان (٧ / ٥٧) الإصابة (٤ / ١٢٠) .
وصححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٦٤٨) . وقد مر (٢ / ١٩٦) .

وقال في رواية ابن مشيش : كلما قرأ يستعيذ .

وقال عبد الله بن أحمد: «سمعت أبي إذا قرأ استعاذ ، يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم»[١] ، وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى صلاته استفتح ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : من همزه ونفخه ونفثه »[٢] .

وقال ابن المنذر : جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول قبل القراءة : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وهو رواية عن أحمد؛ بظاهر الآية، وحديث ابن المنذر وعن أحمد من رواية عبد الله « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » لحديث أبي سعيد .

وهو مذهب الحسن وابن سيرين ، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك « أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس وكشف عن وجهه وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم »[٣] .

---

(١) انظر مسائل الإمام أحمد رضي الله عنه ، برواية ابنه عبد الله (صـ ٧٦) .

(٢) حديث صحيح .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ٥٠) .
وأبو داود (٢ / ٤٧٧ - ٤٧٨) في الصلاة ، باب : من رأى الاستفتاح سبحانك اللهم وبحمدك .
والترمذي (٢ / ٩) في الصلاة ، باب : ما يقول عند افتتاح الصلاة .
وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى .
ورواه الدارمي (١ / ٢٢٦) في الصلاة ، باب : ما يقال عند افتتاح الصلاة .
وانظر إرواء الغليل (٢ / ٥١) .
وانظر المسألة في المغني (٢ / ١٤٥) .

(٣) رواه أبو داود (٢ / ٤٩٤) في الصلاة ، باب : من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم . وقال : هذا حديث منكر .

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم » .

وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل، لأن قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) ظاهره أنه يستعيذ بقوله « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وقوله في الآية الأخرى (فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) [فصلت : ٣٦] .

يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف (إن) لأنه سبحانه هكذا ذكر[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

ولما كان الغضب مركب الشيطان ، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان. أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ [النحل : ٩٩] .

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون : ليس له حجة .

والصواب : أن يقال : ليس له طريق يتسلط به عليهم : لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة . والقدرة داخله في مسمى السلطان ، وإنما سميت الحجة سلطانا ؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلط القدرة بيده ، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، قال في سورة الحجر : (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) [الحجر : ٣٩-٤٢] .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٩١ - ٩٥) .

وقال في سورة النحل : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ [النحل : ٩٩-١٠٠] . فتضمن ذلك أمرين :

أحدهما : نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص .

والثاني : إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ [النحل : ٩٨-١٠٠] .

فإن قيل : فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له : (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) [إبراهيم : ٢٢] .

وقال تعالى : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) [سبأ : ٢٠-٢١] .

قيل : السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين :

أحدهما : أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم ، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته ، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٩٨) .

الثاني : أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً البتة ، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ، ودخولهم في جملة جنده وحزبه ، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) [ص : ٨٢ - ٨٣] . فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله ، عز وجل ، وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله ، وإنما يكون له سلطان على من تولاه وأشرك مع الله فهؤلاء رعيته فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم .

فإن قيل : فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) [سبأ : ٢٠-٢١] .

قيل : إن كان الضمير في قوله : (وما كان له عليهم من سلطان) عائداً على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعاً : أي لكنْ امتحانهم بإبليس ، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وإن كان عائداً على ما عاد عليه في قوله : (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه) وهو الظاهر، ليصح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي ، ويكون المعنى : وما سلطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة .

قال ابن قتيبة: «إن إبليس لما سأل الله تعالى النظرة فأنظره قال : لأغوينهم ولأضلنهم ولآمرنهم بكذا، ولأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً وليس هو في وقت

---

(١) عدة الصابرين (٢٦) .

هذه المقالة مستيقنا أنَّ ما قدّره فيه يتم، وإنما قال ظانا، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم ، فقال تعالى وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين ،[1] يعني نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء».

وعلى هذا فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشك فيها، وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتا لا منفيا فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات .

فإن قيل : فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم حيث يقول لأهل النار : (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) [إبراهيم : ٢٢] . وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مقرراً له، لا منكراً، فدل على أنه كذلك

قيل هذا سؤال جيد وجوابه : أن السلطان المنفي في هذا الموضع : هو الحجة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حجه وبرهان أحتج به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم» أي : ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، وصدقتم مقالتي واتبعتموني بلا برهان ولا حجة .

وأما السلطان الذي أثبته في قوله ﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولونه** ﴾ **فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزعجهم إليه ولا يدعهم يتركونه كما قال : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾** [مريم : ٨٣] . قال ابن عباس : تغريهم إغراء . وفي رواية تشليهم إشلاء . وفي لفظ : «**تحرضهم تحريضا**» ، وفي آخر : «**تزعجهم** إلى المعاصي **إزعاجا**»، وفي آخر : «**توقدهم**» أي تحركهم كما يحرك الماء بالإيقاد تحته ، قال الأخفش : « **توهجهم**». وحقيقة ذلك أن (الأز) هو التحريك والتهييج ومنه يقال لغليان القدر : **الأزيز** ؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان ، ومنه الحديث « لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء »[2] **قال أبو عبيدة (الأزيز) الالتهاب والحركة** ، كالتهاب

---

(١) انظر « تأويل مُشكل القرآن » لابن قتيبة رحمه الله تعالى (صـ ٣١١) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضى الله عنه (٤ / ٢٦) .

وأبو داود (٣ / ١٧٢) في الصلاة ، باب : البكاء في الصلاة .

النار الحطب، يقال : أز قدرك، أي ألهب تحتها بالنار وأيزت القدر إذا اشتد غليانها[1] ، فقد حصل للأز معنيان :

أحدهما : التحريك .

والثاني : الإيقاد والإلهاب ، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب .

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك ولكن ليس له على ذلك سلطان حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم . لما وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم، بموافقته ومتابعته فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سلط عليهم، عقوبة لهم . وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) [النساء : ١٤١] . فالآية على عمومها وظاهرها . وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة ، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته ، والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطاناً، حتى جعل له العبد سبيلا إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطا وقهراً فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه ، والشرك وفروعه يوجب سلطانه ، والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيده، ومردها إليه ، وله الحجة البالغة، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك : (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) [الجاثية : ٣٦-٣٧] .

= والنسائي (٣ / ١٣) في الصلاة ، باب : البكاء في الصلاة .

كلهم من حديث « عبد الله بن الشخير » رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

(١) راجع « لسان العرب » لابن منظور ، مادة (أزز) (١ / ٧٢) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٩٩ - ١٠١) .

تأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل : ١٠١] .

فقوله : ﴿ **والله أعلم بما ينزل** ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً :

منها : الجواب عن سؤال سائل : ما حكمة هذا التبديل وما فائدته ؟

ومنها : أن الذي بُدل وأتي بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم .

ومنها : أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى ، وأن كلاً منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٢] .

فالأمة هو القدوة المعلم للخير . والقانت المطيع لله الملازم لطاعته ، والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه ، ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ ، وإنما فسره بلازم المعنى ، فإن الحنف هو الإقبال ، ومن أقبل على شيء مال عن غيره ، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها ، قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) [الروم : ٣٠] .

فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله (فأقم وجهك للدين) ولهذا فسرت (مخلصا) فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص ، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره ، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره فالصدق أن لا ينقسم طلبك ، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك :

الأول : توحيد الطلب .

والثاني : توحيد المطلوب[2] .

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٢٤) .

(٢) جلاء الأفهام (١٥٥) .

وقال رحمه الله :

هذه أربعة أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذي يؤتم به . قال ابن مسعود : والأمة المعلم للخير وهي فعلة من الائتمام كقدوة وهو الذي يقتدى به والفرق بين الأمة والإمام من وجهين :

أحدهما : أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أولا . ومنه سمي الطريق إماما كقوله تعالى : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) [الحجر : ٧٨-٧٩] . أي بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة .

الثاني : أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فرداً وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره ، ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ومنه الحديث « أن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده »[1] فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التي هي آحاد

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣/١١٦-١١٧) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه ، وصححه أحمد شاكر .
وأبو داود الطيالسي (برقم ٢٣٤) .
والبزار (٣ / ٢٨٢) .
والبيهقي في دلائل النبوة (٢ / ١٢٣ - ١٢٤) .
والطبراني (١ / ١٥١ - ١٥٢).
كلهم من طريق « المسعودي » وهو « عبد الرحمن بن عبد الله » .. في قصة راجعها في المصادر السابقة
وقال الهيثمي : « .. فيه المسعودي ، وقد اختلط ، وبقية رجاله ثقات » .
مجمع الزوائد (٩ / ٤١٧) .
والراوي عن « المسعودي » هو « يزيد بن هارون .. » وهو مما سمعه منه بعد اختلاطه ولكن عند الطبراني رواه عنه « عبد الله بن رجاء » فإنه روى عنه قبل اختلاطه كما أفاده محققه الشيخ « حمدي السلفي » (١ / ١٥١ - ١٥٢) . =

الأمم لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد .

الثاني : قوله قانتا لله . قال ابن مسعود : القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : قوله حنيفا ، والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة .

الرابع : قوله شاكرا لأنعمه .

والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة ، وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه[1] .

قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة .

والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص ،

= ورواه أبو يعلى دون ذكر القصة (٢ / ٢٦٠) .
وقال الهيثمي « رواه أبو يعلى » ، وإسناده حسن ، مجمع الزوائد (٩ / ٤١٧) .
وابن إسحاق (١ / ٢٤٤) طبعه دار التراث .
والحاكم (٣ / ٤٣٩) .
وانظر الإصابة ، لابن حجر (٤ / ٦١) .
وفتح الباري (٧ / ١٧٦) في مناقب الأنصار ، باب : حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٩ - ١٩٠) .

والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام . والمجادلة بالتى هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة – وهي الترغيب والترهيب – إذا ضعفت **إنابته وتذكره ، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.** و (العظة) يراد بها أمران : الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة ، ونفس الرغبة والرهبة . فالمنيب المتذكر : شديد الحاجة إلى الأمر والنهي ، والمعرض الغافل : شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب ، والمعارض المتكبر : شديد الحاجة إلى المجادلة فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة** .. ﴾ الآية ، أطلق الحكمة، و لم يقيدها بوصف الحسنة . إذ كلها حسنة ، ووصف الحسن لها ذاتي .

وأما (الموعظة) فقيدها بوصف الإحسان ، إذ ليس كل موعظة حسنة .

وكذلك (الجدال) قد يكون بالتى هي أحسن وقد يكون بغير ذلك وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ، ولينه وحدته ورفقه ، فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به ، من الحجج والبراهين ، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه ، وأدله على المقصود ، وأوصله إلى المطلوب .

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وأما ما ذكره بعض المتأخرين[2]: أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات

(١) مفتاح دار السعادة (١٦٧) .

(٢) انظر « التفسير الكبير لفخر الدين الرازي » (٢٠ / ١١١ – ١١٢) .

فـ(الحكمة) هي طريقة البرهان و « الموعظة الحسنة » هي طريقة الخطابة ، و « المجادلة بالتي هي أحسن » طريقة الجدل .

فالأول : بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان ، ولا ينقاد إلا له وهم خواص الناس .

والثاني : بذكر المقدمات الخطابية ، التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة وهم الجمهور .

والثالث : بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل وهم المخالفون–فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم وذلك باطل قطعاً من وجوه عديدة[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو ، فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره ، إذ عرفه ، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال ، وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب ، وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن ، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد، إن أمكن فلمناظرة المبطل فائدتان :

إحداهما : أن يرد عن باطله ، ويرجع إلى الحق .

الثانية : أن يَنْكَفَّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهماً فيه وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج . وهي طريقة أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٤٥ - ٤٤٦) .

والمعقولات فهي أقرب شيء تناولاً وأوضح دلالة وأقوى برهاناً وأبعد من كل شبهة وتشكيك وأما طريق المتكلمين وأرباب الجدل فهى كما قال الخبير بها :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقـاً وكل كاسر مــكسور

وأخص أوصافها أنها تعطيك مناقضة الخصوم ، واضطراب أقوالهم وأما أن تعطيك علماً وهدى :

فإذا بعثت إلى السباخ برائد تبغي الرياض فقد ظلمت الرائدا

وإذا كان هذا حالها وهي خير من طريق الفلاسفة ، وأقرب إلى الحق فكيف يعارض الوحي بهذه الطرق وهذه ثم تقدم عليه[1]؟! .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

وقال : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) [الطور : ٤٨] .

وقد تنازع الناس أي الصبرين أكمل ؟ فقالت طائفة : « الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالله، فإن ما كان له فهو غاية وما كان به فهو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل ، ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبرراً وتقرباً إلى الله لأنه نذر له ولم يجب الوفاء به إذا خرج مخرج اليمين، لأنه حلف به.

فما كان له سبحانه فهو متعلق بألوهيته ، وما كان به فهو متعلق بربوبيته ، وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعلق بربوبيته ، ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنهي من الشرك ، دون توحيد الربوبية بمجرده ، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، لم ينفعهم توحيد ربوبيته .

وقالت طائفة : الصبر بالله أكمل بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى : ﴿ **واصبر** ﴾ **فأمره بالصبر**، والمأمور به هو الذي يفعل لأجله، ثم قال: ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التي تقدمتها، أخبر

(١) الصواعق المرسلة (٤ / ١٢٧٦ - ١٢٧٧) .

فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به، وذلك يتضمن أمرين : الاستعانة به ، والمعية الخاصة التي تدل عليها باء المصاحبة كقوله : « فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي » وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي، فإن ما لا يكون بالله لا يكون ، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في قوله : (إن الله مع الصابرين) وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له ، وتحمل الأثقال لأجله ، كما في الأثر الإلهي يعني « وما يتحمل المتحملون من أجلي » فدل قوله : ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر وكيف يصبر على الحكم الأمرى امتثالاً وتنفيذاً وتبليغاً ، وعلى الحكم القدري احتمالاً له واضطلاعاً به، من لم يكن الله معه ؟ فلا يطمع في درجة الصبر المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله[1] .

* * *

(١) عدة الصابرين (٤٥ – ٤٦) .

سُورَةُ الإِسْرَاءِ





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] .

فذكره بالعبودية في مقام الإسراء[١] .

وقال رحمه الله :

في قوله : ﴿ **أسرى بعبده** ﴾ [الإسراء : ١] . دون بعث بعبده وأرسل به ما يفيد مصاحبته له في مسراه ، فإن الباء هنا للمصاحبة كهي في قوله : هاجر بأهله وسافر بغلامه ، وليست للتعدية فإن أسرى يتعدى بنفسه يقال سرى به وأسراه وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره صلى الله عليه وسلم ، والسفر يعتمد الصاحب ولهذا كان صلى الله عليه وسلم إذا سافر يقول « اللهم أنت الصاحب في السفر »[٢] فإن قيل : فهذا المعنى يفهم من الفعل الثلاثي لو قيل : سرى بعبده ، فما فائدة الجمع بين الهمزة والباء ؟ ففيه أجوبة :

أحدهما : أنهما بمعنى وأن أسرى ، لازم كسرى ، تقول : سرى زيد وأسرى بمعنى واحد ، وهذا قول جماعة .

والثاني : أن أسرى متعد ومفعوله محذوف ، أي أسرى بعبده البراق ، هذا قول السهيلي[٣] وغيره .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٠٣) .

(٢) رواه مسلم (٣ / ٤٩٠) في الحج ، باب : استحباب الذكر إذا ركب دابة لسفر .

ورواه غيره ، وسبق برقم (١) (٢ / ١٦٢) من سورة الأنعام .

(٣) نص كلام السهيلي رحمه الله تعالى : « أي : جعل البُراق يَسْرِي ، كما تقول : أمضيته ، أي : جعلته يمضي ، لكن كثر حذف المفعول لقوة الدلالة عليه ، أو للاستغناء عن ذكره .. » وراجع هذا المبحث الجليل في الروض الأنف (٣/٤١٢) .

ويشهد للقول الأول قول الصديق[1] : أسرينا ليلتنا كلها ومن الغد ، حتى قام قائم الظهيرة .

والجواب الصحيح : أن الثلاثي المتعدى بالباء يفهم منه شيئان :

أحدهما : صدور الفعل من فاعله .

الثاني : مصاحبته لما دخلت عليه الباء ، فإذا قلت : سريت بزيد وسافرت به كنت قد وجد منك السرى ، والسفر مصاحباً لزيد فيه ، كما قال :

ولقد سريت على الظلام بمعشر

ومنه الحديث : « أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها »[2] .

وأما المتعدي بالهمزة : فيقتضي إيقاع الفعل بالمفعول فقط كقوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) [النحل : ٧٨] . (فأخرجناهم من جنات وعيون) [الشعراء : ٥٧] . ونظائره ، فإذا قرن هذا المتعدي بالهمزة أفاد إيقاع الفعل على المفعول مع المصاحبة المفهومة من الباء ، ولو أتى فيه بالثلاثي فهم منه معنى المشاركة في مصدره وهو ممتنع فتأمله[3] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

أي الطريقة أو الحالة أو الملة التي هي أقومها وأشدها ، وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الإفصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الإبهام وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب وإيقاعه على محتملات كثيرة وهذا لا يخفى على العالم برموز صناعة التأليف فاعرفه[4] .

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٧ / ١٠) في فضائل الصحابة ، باب : مناقب المهاجرين وفضلهم . ومسلم (٥ / ٨٦٤) في الزهد ، باب : حديث الهجرة .

(٢) رواه البخارى (٨ / ٣٠٦) في التفسير ، باب : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ .
ومسلم (٥ / ٦٢٨) في التوبة ، حديث الإفك وقبول توبة القاذف .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ٢٠٢ - ٢٠٣) .

(٤) الفوائد المشوق (١٨٠) .

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن جرير: وكل إنسان ألزمناه ما قضي له أنه عامله، وما هو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه[1].

وهذا ما قاله الناس في الآية، وهو ما طار له من الشقاء والسعادة وما طار عنه من العمل، ثم ذكر عن ابن عباس قال: طائره: عمله وما قدر عليه، فهو ملازمه أينما كان وزائل معه أينما زال.

وكذلك قال ابن جريج، وقتادة، ومجاهد: هو عمله. زاد مجاهد: وما كتب له. وقال قتادة أيضا: سعادته وشقاوته بعمله.

قال ابن جرير[2]: فإن قال قائل فكيف قال ألزمناه طائره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت؟ ولم يقل: في يديه أو رجليه أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: إن العنق هي موضع السمات، وموضع القلائد والأطوقة وغير ذلك مما يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه، وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه فكذلك قوله: ﴿**ألزمناه طائره في عنقه**﴾.

وقال الفراء: الطائر معناه عندهم العمل.

قال الأزهري: والأصل في هذا أن الله سبحانه لما خلق آدم علم المطيع من ذريته والعاصي فكتب ما علمه منهم أجمعين وقضى بسعادة من علمه مطيعا وشقاوة من علمه عاصيا، فطار لكل ما هو صائر إليه عند خلقه وإنشائه.

وأما قوله في عنقه، فقال أبو إسحاق: إنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق

---

(١) تفسير الطبري (١٥ / ٥٠).
(٢) المصدر نفسه (١٥ / ٥١).

فلان أي لزومه له كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق ، قال أبو علي : هذا مثل قولهم : طوقتك كذا وقلدتك كذا أي صرفته نحوك وألزمتك إياه ، ومنه قلده السلطان كذا ، أي صارت الولاية في لزومها له فى موضع القلادة ومكان الطوق . وقيل إنما خص العنق لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيرا أو شرا وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل فأضيف إلى الأعناق .

قالت القدرية : إلزامه ذلك وسمه به وتعليمه بعلامة يعرف الملائكة أنه سعيد أو شقي والخبر عنه لا أنه ألزمه العمل فجعله لازما له ، قال أهل السنة : هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه سلكتموها في الجسم والطبع والعقل وهذا لا يعرفه أهل اللغة وهو خلاف حقيقة اللفظ ، وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن ، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة البتة ولا فسر الآية غيركم به ، ولا يصح حمل الآية عليه فإن الخبر عنه بذلك والعلامة أعلم بها إنما حصل بعد طائره اللازم له من عمله فلما لزمه ذلك الطائر و لم ينفك عنه أخبر عنه بذلك وصارت عليه علامة وسمة ، ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها والقرآن بريء من ذلك . وبالله التوفيق[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ﴾ [الإسراء: ١٣].

أي ما يطير له من الخير والشر فهو لازم له في عنقه والعرب تقول جرى له الطائر بكذا من الخير والشر .

قال أبو عبيدة : الطائر عندهم : الحظ ، وهو الذي تسميه العامة البخت . يقولون هذا يطير لفلان أي : يحصل له .

---

(١) شفاء العليل (٦١) .

قلت : ومنه الحديث « فطار لنا عثمان بن مظعون » أي أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم . وفي حديث رويفع بن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش وللآخر القدح . أي : يحصل له بالشركة في الغنيمة . وقيل في قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه** ﴾ أن الطائر هاهنا هو العمل . قاله الفراء . وهو يتضمن الرد على نفاة القدر .

وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن لأنه محل الطوق الذي يطوقه الإنسان في عنقه فلا يستطيع فكاكه ، ومن هذا يقال : إثم هذا في عنقك . وافعل كذا وإثمه في عنقي . والعرب تقول : طوقها طوق الحمامة ، وهذا ربقه في رقبته . وعن الحسن بن آدم : لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك . فخصوا العنق بذلك لأنه موضع القلادة والتميمة . واستعمالهم التعاليق فيها كثير ، كما خصت الأيدي بالذكر في نحو : بما كسبت أيديكم بما قدمت يداك ونحوه[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦] .

هذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي ، فإن الله لا يأمر بالفحشاء .

والمعنى : قضينا ذلك وقدرناه .

وقالت طائفة : بل هو أمر ديني ، والمعنى : أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا والقول الأول أرجح لوجوه :

أحدها : أن الإضمار على خلاف الأصل فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه .

الثاني : أن ذلك يستلزم إضمارين :

أحدهما : أمرناهم بطاعتنا .

الثاني : فخالفونا أو عصونا ، ونحو ذلك .

(١) مفتاح دار السعادة (٥٧٨ – ٥٧٩) .

الثالث : أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل وأمرته فقام وأمرته فركب لا يفهم المخاطب غير هذا .

الرابع : أنه سبحانه جعل سبب هلاك هذه القرية أمره المذكور . ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك بل هو سبب للنجاة والفوز فإن قيل : أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك .

قيل : هذا يبطل بالوجه :

الخامس : وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو سبحانه يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه

الوجه السادس : أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال : أرسلنا رسلنا إلى مترفيها ففسقوا فيها، فإن الإرسال لو كان إلى المترفين لقال من عداهم نحن لم يرسل إلينا .

الوجه السابع : أن إرادة الله سبحانه لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقبل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم ، قال تعالى: (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) [الأنعام : ١٣١] . فإذا أرسل الرسل فكذبوهم أراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمرا كونيا قدريا لا شرعيا دينيا بالفسق في القرية ، فاجتمع أهلها على تكذيبهم وفسق رؤسائهم فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك . والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني ومن الديني قوله : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [النحل : ٩٠] . وقوله : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) [النساء : ٥٨] وهو كثير[1] .

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢]

مذموماً لا حامد لك ، مخذولا لا ناصر لك . إذ قد يكون بعض الناس

(١) شفاء العليل (٢٨١) .

مقهوراً محموداً كالذي قهر بباطل ، وقد يكون محموداً منصوراً ، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل وقد يكون محموداً منصوراً كالذي تمكن وملك بحق . والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة ، لا محمود ولا منصور[1] .

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣]

فذكر توحيده وذكر المناهي التي نهاهم عنها ، والأوامر التي أمرهم بها ثم ختم الآية بقوله : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : ٣٨] . أي مخالفة هذه الأوامر ، وارتكاب هذه المناهي سيئه مكروهة لله .

فتأمل قوله : ﴿ **سيئه عند ربك مكروها** ﴾ أي أنه سيىء في نفس الأمر عند الله حتى لو لم ينزل به تكليف ؛ لكان سيئه في نفسه عند الله مكروها له وكراهته سبحانه له لما هو عليه من الصفة التي اقتضت أنْ كرهه ولو كان قبحه إنما هو مجرد النهي لم يكن مكروها لله ، إذ لا معنى للكراهة عندهم[2] إلا كونه منهياً عنه . فيعود قوله ﴿ **كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً** ﴾ إلى معنى كل ذلك نهي عنه عند ربك ، ومعلوم أن هذا غير مراد الآية .

وأيضاً فإذا وقع ذلك منهم فهو عند النفاة للحسن والقبح محبوب لله مرضي له لأنه إنما وقع بإرادته والإرادة عندهم هي المحبة لا فرق بينهما . والقرآن صريح في أن هذا كله قبيح عند الله مكروه مبغوض له ، وقع أو لم يقع ، وجعل سبحانه هذا البغض والقبح سبباً للنهي عنه ؛ ولهذا جعله علة وحكمة للآمر . فتأمله والعلة غير المعلول[3] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

فإن هذا يدل على النهي عن الضرب أيضاً لا على أن التأفيف أعم ، بل لأن المقصود من منع التأفيف هو الإكرام وعدم الإهانة والإهانة بالضرب أكثر

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٥٨) .
(٢) أي نفاة الحكمة في الأمر والنهي .
(٣) مفتاح دار السعادة (٣٣٦) .

من الإهانة بالتأفيف[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

فمثل البخل بأحسن تمثيل لأن البخيل لايمد يده بالعطية ، كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده وإنما قال : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ ولم يقل ولا تجعل يدك مغلولة من غير ذكر العنق لأنه قد قال تعالى : ﴿ **ولا تبسطها كل البسط** ﴾ فناب ذكر العنق عن قوله كل الغل لأن غل اليدين إلى العنق هي أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد إليها[٢] .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]

فعلل النهي في الموضعين[٣] بكون المنهي عنه فاحشة ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه ، ولكان بمنزلة أن يقال (لا تقربوا الزنا فإنه يقول لكم لا تقربوه) أو (فإنه منهي عنه) وهذا محال من وجهين :

أحدهما : أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة .

والثاني : أنه تعليل للنهي بالنهي[٤] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول عند كثير من الحيوان ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : «رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»[٥]. ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا، فإنه سبيل هلكة وبوار

(١) الفوائد المشوق (١٨٣) .
(٢) الفوائد المشوق (١٢٨) .
(٣) والموضع الآخر في الأعراف في الآية (٣٣) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٣٣٣ - ٣٣٤) .
(٥) البخاري (٧ / ١٩١) في مناقب الأنصار ، باب : القسامة في الجاهلية .

وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة[١] .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ونهاه أن يقفو أي : يتبع ما ليس له به علم .

وإذا كان السمع والبصر والكلام والفؤاد منقسماً إلى ما يؤمر به وينهى عنه ، والعبد مسؤول عن ذلك كله ، فكيف يجوز أن يقال كل قول في العالم فالعبد ممدوح على استماعه . ونظير هذا أن يقال كل مرئي في العالم فالعبد ممدوح على النظر إليه لقوله : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس : ١٠١] .

وقوله : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) [الأعراف : ١٨٥][٢] .

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٢] .

فقيل لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: (ولعلا بعضهم على بعض) [المؤمنون: ٩١].

قال شيخنا[٣] رضي الله عنه : والصحيح أن المعنى : لابتغوا إليه سبيلا بالتقرب إليه وطاعته، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له ، قال : ويدل على هذا وجوه:

منها: قوله تعالى ذكره: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] . أي:

---

(١) الجواب الكافي (٢٢٧) .

(٢) الكلام في مسألة السماع (٢٣٦) .

(٣) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما هو معلوم .

هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ، ترجون رحمتي ، وتخافون عذابي ، فلماذا تعبدونهم من دوني ؟ .

الثاني : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا، بل قال : ﴿ **لابتغوا إلى ذي العرش سبيلًا** ﴾ **وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب** ، كقوله تعالى : (**اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة**) [المائدة : ٣٥] .

وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى،كقوله : (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) [النساء : ٣٤] .

والثالث : أنهم لم يقولوا : إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون** ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه،فقال : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له،فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وكذلك قوله سبحانه مقررًا لبرهان التوحيد أحسن تقرير وأوجزه وأبلغه : ﴿ **قل لو كان معه ءالهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا** ﴾ [الإسراء : ٤٢] .

فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه سبحانه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره فكيف يعبدونهم من دونه ، وقد أفصح سبحانه بهذا بعينه في قوله : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

أي هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبيدي كما أنتم عبيدي يرجون رحمتي ويخافون عذابي كما ترجون أنتم رحمتي وتخافون عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني ؟[2] .

---

(١) الجواب الكافي (٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٦٢ - ٤٦٣) .

قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] .

وقوله : (ومن بيننا وبينك حجاب) [فصلت : ٥] .

على أصح القولين . والمعنى : جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبينهم حجاباً يحول بينهم وبين فهمه وتدبره والإيمان به ، وبينه قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء : ٤٦] .

وهذه الثلاثة هي الثلاثة المذكورة في قوله : (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) [فصلت : ٥] . فأخبر سبحانه أن ذلك جعله .

فالحجاب يمنع رؤية الحق ، والأكنة تمنع من فهمه ، والوقر يمنع من سماعه .

وقال الكلبي : الحجاب هاهنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول الله بالأذى من الرعب ونحوه مما يصدهم عن الإقدام عليه ووصفه بكونه مستوراً ، فقيل : بمعنى ساتر .

وقيل : على النسب ، أي ذو ستر .

والصحيح : أنه على بابه ، أي مستوراً عن الأبصار فلا يرى ، ومجيء مفعول بمعنى فاعل لا يثبت ، والنسب في مفعول لم يشق من فعله ، كمكان مهول أي ذي هول ورجل مرطوب أي ذي رطوبة ، فأما مفعول فهو جار على فعله فهو الذي وقع عليه الفعل كمضروب ومجروح ومستور[1] .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ

(١) شفاء العليل (٩٣) .

قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٩-٥٢] .

فتأمل ما أُجيبوا به على كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا : أولاً : إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقاً جديداً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك . فإن قلتم لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديداً فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟

وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادراً على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال .

ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال .

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله : ﴿ **قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ [الإسراء: ٥١].

وهذا الجواب نظير جواب قول السائل : (من يحيي العظام وهي رميم) [يس : ٧٨] .

فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلاً ؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج - بمثل ذلك - وهو قولهم : متى هو ؟ فأجيبوا بقوله : ﴿ **عسى أن يكون قريباً يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً** ﴾ [الإسراء : ٥١-٥٢][1] .

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ٤٧٨ - ٤٨٠) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾ [الإسراء: ٤٩].

فرد عليهم سبحانه رداً يتضمن الدليل القاطع على قدرته على إعادتهم خلقاً جديداً فقال : ﴿ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ ﴾ [الإسراء : ٥٠ – ٥١] .

فلما استبعدوا أن يعيدهم الله خلقاً جديداً بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً ، قيل لهم : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم سواء كان الموت أو السماء أو الأرض أو أي خلق استعظمتموه وكبر في صدوركم .

ومضمون الدليل : إنكم مربوبون مخلوقون مقهورون على ما يشاء خالقكم وأنتم لا تقدرون على تغيير أحوالكم من خلقة إلى خلقة لا تقبل الاضمحلال كالحجارة والحديد ، ومع ذلك فلو كنتم على هذه الخلقة من القوة والشدة لنفذت أحكامي فيكم وقدرتي ومشيئتي ، ولم تسبقوني ولم تفوتوني كما يقول القائل لمن هو في قبضته : اصعد إلى السماء فإني لاحقك ، أي : لو صعدت إلى السماء لحقتك .

وعلى هذا فمعنى الآية : لو كنتم حجارة أو حديداً أو أعظم خلقاً من ذلك لما أعجزتموني ، ولما فتموني .

وقيل : المعنى كونوا حجارة أو حديداً عند أنفسكم أي صوروا أنفسكم وقدروها خلقاً لا يضمحل ولا ينحل فإنا سنميتكم ثم نحييكم ونعيدكم خلقاً جديداً ، وبين المعنيين فرق لطيف فإن :

المعنى الأول : يقتضي أنكم لو قدرتم على نقل خلقتكم من حالة إلى حالة هي أشد منها وأقوى لنفذت مشيئتنا وقدرتنا فيكم ولم تعجزونا فكيف وأنتم عاجزون عن ذلك ؟

والمعنى الثاني : يقتضي أنكم صوروا أنفسكم وأنزلوها هذه المنزلة ثم انظروا أتفوتونا وتعجزونا أم قدرتنا ومشيئتنا محيطة بكم ولو كنتم كذلك؟.

وهذا من أبلغ البراهين القاطعة التي لا تعرض فيها شبهة البتة ، بل لا تجد العقول السليمة عن الإذعان والانقياد لها بدا . فلما علم القوم صحة هذا البرهان وأنه ضروري انتقلوا إلى المطالبة بمن يعيدهم فقالوا : من يعيدنا ؟ وهذا سواء كان سؤالا منهم عن تعيين المعيد أو إنكاراً منهم له ، فهو من أقبح التعنت وأبينه ولهذا كان جوابه : ﴿ **قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ .

ولما علم القوم أن هذا جواب قاطع ، انتقلوا إلى باب آخر من التعنت ، وهو السؤال عن وقت هذه الإعادة فأنغضوا إليه رؤوسهم وقالوا : متى هو ؟ فقال تعالى : ﴿ **قل عسى أن يكون قريبا** ﴾ فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل واستلزامه بمدلوله استلزاما لا محيد عنه ، وما تضمنه من السؤالين والجواب عنهما أبلغ جواب وأصحه وأوضحه فلله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

فالشيطان ينزغ بينهم إذا كلم بعضهم بعضاً بغير التي هي أحسن ، فربَّ حرب وقودها جثث وهام ، أهاجها القبيح من الكلام .

وفي الصحيحين من حديث سهل بن حنيف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم : خبثت نفسي . ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسي »(٢) .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١٠ / ٥٧٩) في الأدب ، باب : لا يقل « خبثت نفسي » .
ومسلم (٥ / ١٠٧) الألفاظ من الأدب ، باب : كراهة قول الإنسان : خبثت نفسي .

وخبثت ولقست وغثت متقاربة المعنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ « الخبث » لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ هو أحسن منه، وإن كان بمعناه ؛ تعليماً للأدب في المنطق ، وإرشاداً إلى استعمال الحسن، وهجر القبيح في الأقوال كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال[١] .

وقد ذكره سبحانه : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٦-٥٧] .

فجمع بين المقامات الثلاثة ، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه ، وفعل ما يحبه ، ثم يقول : ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ .

فذكر الحب والخوف والرجاء، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له ؟[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى : أنهم كانوا راجين له خائفين منه . فقال تعالى **﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾** [الإسراء : ٥٦ - ٥٧] .

يقول تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم من دوني : هم عبادي، يتقربون إليّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني ؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم، من الحب ، والخوف والرجاء[٣] .

---

(١) الطرق الحكمية (٤٩) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٢ - ٢٦٣) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤١ - ٤٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

أي مبينة موجبة للتبصر. وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدياً. يقال : أبصرته ، بمعنى أريته، وأبصرته، بمعنى رأيته فمبصرة في الآية بمعنى : مرئية ، لا بمعنى رائية ، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية ، وتحيروا في معناها .

فإنه يقال : بصر به ، وأبصره ، فيعدى بالباء تارة والهمزةتارة ، ثم يقال : أبصرته كذا ، أي أريته إيّاه كما يقال : بصرته به ، وبصر هو به .

فهٰهنا بَصيرة، تبصِرة ومبُصِرة، فالبصيرة : المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر، مثل التذكرة، وسمي بها ما يوجب التبصرة، فيقال : هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه[1] .

قوله تعالى لإبليس : ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ الإسراء : ٦٣] .

أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة لأنه اجتمع مخاطب وغائب فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له ، كما كان تبعاً في المعصية والعقوبة فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به .

وانتصب جزاء موفوراً عند ابن مالك على المصدر وعامله عنده المصدر الأول ، قال : والمصدر يعمل في المصدر تقول : عجبت من قيامك قياماً ، ويعمل فيه الفعل نحو قام قياما ، واسم الفاعل كقوله :

فأصبحت لا أقرب الغانيات   مزدجراً عن هواها ازدجاراً

واسم المفعول هو مطلوب طلباً .

وبعد ففي نصب جزاء قولان آخران :

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٦٩ - ١٧٠) .

أحدهما : أنه منصوب بما في معنى فإن جهنم جزاؤكم من الفعل فإنه متضمن لتجازون وهو الناصب جزاء .

والثاني : أنه حال ، وساغ وقوع المصدر حالاً هاهنا لأنه موصوف . ذكر الزمخشري[(١)] هذين القولين . وهذا كما تقول خذ عطاءك عطاء موفوراً .

والذي يظهر في الآية أن جزاء ليس بمصدر وإنما هو اسم للحظ والنصيب فليس مصدر جزيته جزاء ، بل هو كالعطاء والنصيب ولهذا وصفه بأنه موفور أي تام لا نقص فيه وعلى هذا فنصبه على الاختصاص وهو يشبه نصب الصفات المقطوعة ، وهذا كما قال الزمخشري[(٢)] وغيره في قوله تعالى : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) إلى قوله : (نصيباً مفروضاً) [النساء : ٧] . قال : نصبه على الاختصاص ، أي : أعني نصيباً مفروضاً . ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر المؤكدة كقوله تعالى : (فريضة من الله)[(٣)] [النساء : ١١] و [التوبة : ٦٠] .

---

(١) انظر تفسير « الكشاف » (١ / ٢٤٩) وفيه زيادة عن المنقول هنا .
(٢) انظر تفسير « الكشاف » (١ / ٢٤٩) وفيه زيادة عن المنقول هنا .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ١٨٥ - ١٨٦) .

الغناء صوت الشيطان

وقال رحمه الله تعالى :

وأما تسميته صوت[1] الشيطان فقد قال تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ۞ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء : ٦٣-٦٤] .

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثنا معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال : كل داعٍ إلى معصية[2] .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية ، ولهذا فُسر صوت الشيطان به .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال : استزل منهم من استطعت قال : وصوته الغناء والباطل[3] .

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال : صوته هو المزامير .

ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال : صوته هو الدف . وهذه الإضافة إضافة تخصيص كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك فكل متكلم بغير طاعة الله ومصوتٍ بيراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان وكل ساع في معصية الله على قدميه فهو من رجله وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته .

---

(١) أي الغناء .

(٢) ورواه الطبري (١٥ / ١١٨) .

(٣) المصدر نفسه .

كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : « رَجْلُهُ كل رجل مشت في معصية الله » .

وقال مجاهد : كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله .

وقال قتادة : إن له خيلا ورَجْلا من الجن والإنس[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

الصوت الشيطاني يستفز بني آدم، وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله نسب إلى الشيطان لأمره به ورضاه به ، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف من الشبابات والأوتار وغيرها كلها من أصوات الشيطان التي يستفز بها بني آدم فيستخفهم ويزعجهم ولهذا قال السلف في هذه الآية « إنه الغناء »[٢] ، ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يستفز بها

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٥٥ - ٢٥٦) .

(٢) كمجاهد رحمه الله. أخرجه الطبري (١٥ / ١١٨) . وانظر تفسير الآية رقم (٦) من سورة لقمان .

والناظر بعين الإنصاف وقلب ملأه الإخبات وعقل مستنير بنور الله تعالى يرى أن تفسير كثير من السلف لهذه الآية بالغناء عين الصواب ، وانظر بنفسك - أخي القارىء - إلى رجال ونساء وشباب حتى أطفال هذه الأمة التي من الواجب أن تكون خير أمة أخرجت للناس - وكيف انغمسوا في هذا الأمر الفظيع الذي لم ير السلف ولا الخلف مثله من تنوع اللهو ، تارة بتنوع الموسيقى المكسرة لعواطفهم ثم لعقولهم المشتتة لأفكارهم ،وتارة بالكلمات الفاجرة الداعية - صراحة - إلى الشرك وتزيين المعصية ولبسها ثوب الفضيلة . وتارة في مجون يسمونه الفن الراقي - وهو الباليه - إلى آخر أنواع الشر والفساد التي عمت الأمة المسلمة ، فتبلد الشعور ، وماتت الفضيلة ، ودفنت الغيرة ، فأصبح المنكر - عندهم - أن تنكر أن هذه الفنون الراقية - بزعمهم - مباحة !! ، ويتهمونك بالتخلف والتزمت ، ويا ليت الأمر اقتصر على العوام - هيهات - لقد وقع فيه بعض المشايخ المشهورين - بحسن نية - أو دُفعوا لذلك ولا عذر حينئذ - فأفتوا الناس بأن الغناء ذا الصوت الطيب غير المهيج للغرائز وإن صاحبته الموسيقى لا بأس به !!! انظر وتأمل !!! ونحن نحتكم - بشرع الله ولا نرضى بغيره - ثم ننظر إلى الواقع ليدلونا على هذا الذي زعموه وافتروه حتى أصبح الكبار قبل الصغار لا يحفظون شيئاً من كتاب ربهم ولا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم فضلاً عن سائر أمور دينهم وذلك لأن القلب ملىء باللهو ، والعقل شغل باللعب ، فأصبح الإنسان جسداً يتحرك كالحيوان يتبع شهواته لا غير ، بل يغفل عن ما ينفعه في معاشه ، وهذا ما لا تفعله الدواب ، فتعطلت طاقاته وانتشرت البطالة ، =

النفوس ويزعجها ويقلقها، وهو ضد القرآن الذي تطمئن به القلوب ، وتسكن وتخبت إلى ربها، فصوت القرآن يسكن النفوس ويطمئنها ويوقرها ، وصوت الغناء يستفزها ويزعجها ويهيجها كما قيل :

حامـــل الهوى تـــعب يستفـــزه الطـــرب
كلمـــا انـــقضى سبب عـــاد مـــنك بي سبب
تضحـــكين لاهيـــة والمحب ينتـــحب
تعجـــبين مـــن سقمـــي صحتـــي هـــي العـــجب

فلو لم يكن دليل على أن صوت الغناء والمعازف هو صوت الشيطان لما يستفز به السامع ويقلقه به ويزعجه ويزيل طمأنينته لكفى به دليلاً .

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة وهو النوح فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله فينهاها بصوت النوح، عما أمرها الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه ، وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أنه يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته ، والإجلاب عليهم بخيله ورجله ، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم ، فكل راكب في معصية الله فهو من خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالته، وكل مال أخذ من غير حله وأخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولد من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء : ٦٤] .

قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم فكل راكب وماش في

= والكسالى لأنه أصلاً في بطالة من طاعة ربه فكيف ينفع نفسه أو مجتمعه بعد ذلك ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور : ٤٠] . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) الكلام في مسألة السماع (٣٧٩ - ٣٨١) .

معصية الله فهو من جند إبليس[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] .

قيل : يشهده الله عز وجل وملائكته .

وقيل : يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون في صلاة الفجر ، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار، واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة » ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر لقول أبي هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾[(٢)] رواه البخاري في الصحيح ، قال أصحاب القول الأول : وهذا لا ينافي قولنا وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة فإن الله على كل شيء شهيد ، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل .

وقد روى الليث بن سعد حدثني زيادة بن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد الأنصاري ، عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل، فيفتح الذكر في الساعة الأولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت ، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين و لم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء،

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٢٢) .

(٢) رواه البخاري (٢ / ١٦٠) في الأذان ، باب : فضل صلاة الفجر في جماعة .
ومسلم (٢ / ٢٩٥) في المساجد ، باب : فضل صلاة الجماعة ..

ثم يقول : طوبى لمن دخلك . ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول : قومي بعزتي ثم يطلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر فأغفر له ؟ ألا من سائل يسألني فأعطيه ؟ ألا داع يدعوني فأجيبه ؟ حتى تكون صلاة الفجر . ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ يشهده الله عز وجل ، وملائكته ملائكة الليل والنهار»[١] .

ففي هذا الحديث أن النزول يدوم إلى صلاة الفجر ،وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له ، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة ، وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الأحاديث إلى طلوع الفجر ولا سيما هو معلق في بعضها على انفجار الصبح[٢]، وهو اتساع ضوئه .

وفي لفظ « حتى يضيء الفجر »[٣] .

وفي لفظ « حتى يسطع الفجر »[٤] وذلك هو وقت قراءة الفجر، وهذا

---

(١) إسناده ضعيف .
رواه الطبري في التفسير (١٥ / ١٣٩) .
والطبراني في « كتاب الدعاء » برقم (١٣٥) .
والدارقطني في « كتاب النزول » صـ ١٥١ . كلهم من طريق « محمد بن زيادة الأنصاري » ، منكر الحديث ، كما في التقريب (١ / ٢٧١) . .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد « رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث » (١٠ / ١٥٤ - ١٥٥) .
تنبيه : أحاديث النزول صحيحة ثابتة عند الشيخين وغيرهما ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

(٢) رواه مسلم (٢ / ٤٠٨) عن أبي هريرة رضي عنه الله في صلاة المسافرين باب : صلاة الليل مثنى .

(٣) المصدر نفسه (٢ / ٤٠٧ - ٤٠٨) .

(٤) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١ / ٤٤٦ - ٤٤٧) بلفظ « حتى يسطع الفجر » .
من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً . و « إبراهيم الهجري » فيه لين ، كان يرفع الموقوفات ، كما في التقريب (١ / ٤٣) .
ورواه الدارقطني في كتاب النزول صـ ٩٩ من طريقه أيضاً .
ورواه الإمام أحمد (١ / ٣٨٨ - ٤٠٣) .
وأبو يعلى (٩ / ٢١٩) بلفظ « حتى يطلع الفجر »

دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم « يقرأ فيها بالستين إلى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس »[1] ، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص ، مع أنه قد جاء في بعض الأحاديث مصرحاً به دوام ذلك إلى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدارقطني في (كتاب نزول الرب كل ليلة إلى سماء الدنيا) من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول : من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارىء من صلاة الصبح »[2] .

رواه عن محمد جماعة منهم سليمان بن بلال ، وإسماعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد ابن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال : « أو ينصرف القارىء من صلاة الفجر »[3] فإن كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي صريحة في المعنى كاشفة للمراد، وإن لم تكن محفوظة ، وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين ، وأن حديث الليث ابن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول إلى وقت صلاة الفجر، وأن

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد « ورجالهما رجال الصحيح » (١٠ / ١٥٣) .

(١) رواه البخاري (٢ / ٦٥) في المواقيت ، باب : وقت الفجر .
ومسلم (٢ / ٢٨٨) في المساجد ، باب : استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها

(٢) الدارقطني في كتاب النزول صـ ١٠٣ .
والإمام أحمد (٢ / ٥٠٤) .
ورواه الدارمي (١ / ٢٨٦) في الصلاة ، باب : ينزل الله إلى سماء الدنيا .
وابن أبي عاصم في السنة (١ / ٢١٨) وقال الألباني : حسن صحيح .

(٣) انظر هذه الطرق كلها في « كتاب النزول » من (١٠٢) وما بعدها .
واللفظة ثابتة – إن شاء الله تعالى – كما سبق .

تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود .

كما رواه يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن الأغر أبي مسلم قال : شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل يمهل، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى هذه السماء ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داعٍ فأجيبه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من مستغيث أغيثه ؟ هل من مضطر أكشف عنه ؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد إلى السماء »[(١)] .

قال الدارقطني : فزاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة .

والمقصود ذكر القرب من الإمام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها والله أعلم[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :

فُسر الدلوك بالزوال وفُسر بالغروب وحكيا قولين في كتب التفسير[(٣)] ، وليسا بقولين ، بل اللفظ يتناولهما معاً فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها

---

(١) الدارقطني في « كتاب النزول » صـ « ١٣٣ ». وأما قوله « زاد فيه يونس بن أبي إسحاق زيادة حسنة » .
فهذه الزيادة وهي « ثم يصعد إلى السماء » مما تفرد بها « يونس » عن أبيه ، فخالف رواية الثقات مثل « منصور ، وشعبة ، ومعمر وأبو عوانة » وغيرهم كما في كتاب النزول نفسه .
خاصة أن « يونس فيه غفلة وفي حديثه اضطراب ، مع كونه صدوقاً ، ولكن ليس مثل مسعر وشعبة » . كما في ميزان الاعتدال للذهبي (٤/٤٨٢-٤٨٣) . وانظر السير (٧/٢٦) .
والحديث رواه مسلم (٢ / ٤٠٩) في المساجد ، باب صلاة الليل .
والإمام أحمد رحمه الله تعالى (برقم ٨٩٦٢ و ١١٣١٥) .
وأبو عوانة (٢ / ٢٨٨) .
وابن خزيمة في التوحيد (١ / ٢٩١ - ٢٩٣) المحققة .

(٢) طريق الهجرتين (١٩٧ - ١٩٩) .

(٣) انظر تفسير الطبري (١٥ / ١٣٤) .
والقرطبي (٥ / ٣٩١٨) .

ولهذا الميل مبدأ ومنتهى فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار لا يتناول المشترك لمعنيين ولا اللفظ لحقيقته ومجازه ، ومثاله ما تقدم من تفسير الغاسق[١] بالليل والقمر ، وإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة[٢] .

(١) سيأتي الكلام في ذلك في سورة « العلق » .
(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٣) .

حكم التهجد في حقه صلى الله عليه وسلم

قد اختلف السلف والخلف في أنه: هل كان فرضاً عليه أم لا ؟ والطائفتان احتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء ٧٩] .

قالوا : فهذا صريح في عدم الوجوب ، قال الآخرون : أمره بالتهجد في هذه السورة، كما أمره في قوله تعالى: (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا) [المزمل : ١-٢] .

و لم يجيء ما ينسخه عنه ، وأما قوله تعالى : ﴿ **نافلة لك** ﴾.فلو كان المراد به التطوع ، لم يخصه بكونه نافلة له،وإنما المراد بالنافلة الزيادة ، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع ، قال تعالى : (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) [الأنبياء : ٧٢] ، أي : زيادة على الولد،وكذلك النافلة في تهجد النبي صلى الله عليه وسلم زيادة في درجاته، وفي أجره . ولهذا خصه بها،فإن قيام الليل في حق غيره مباح، ومكفر للسيئات ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم،فقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر،فهو يعمل على زيادة الدرجات وعلو المراتب،وغيره يعمل في التكفير .

قال مجاهد : إنما كان نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر،فكانت طاعته نافلة،أي : زيادة في الثواب ولغيره كفارة لذنوبه .

قال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا يعلى بن أبي عبيد ، حدثنا الحجاج،عن ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير ، عن مجاهد قال : ما سوى المكتوبة ، فهو نافلة

من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب ، وليست للناس نوافل ، إنما هي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة،والناس جميعاً يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها[1] .

(١) رواه الطبري (١٣ / ١٤٣) وتعقبه .
وانظر الدر المنثور (٥ / ٣٢٣) .

حدثنا محمد بن نصر ، حدثنا عبد الله ، حدثنا عمرو ، عن سعيد وقبيصة ، عن سفيان ، عن أبي عثمان ، عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾ .قال : لا تكون نافلة الليل إلا للنبي صلى الله عليه وسلم[١] .

وذكر عن الضحاك قال : نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وذكر سُليم بن حيان ، حدثنا أبو غالب ، حدثنا أبو أمامة ، قال : إذا وضعتَ الطهورَ مواضعه ، قمتَ مغفوراً لك ، فإن قمت تصلى ، كانت لك فضيلة وأجراً ، فقال رجل : يا أبا أمامة ، أرأيت إن قام يصلي تكون له نافلة ؟ قال : لا، إنما النافلة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون له نافلة ، وهو يسعى في الذنوب والخطايا ؟! تكون له فضيلة وأجراً[٢] .

قلت : والمقصود أن النافلة في الآية ، لم يُرد بها ما يجوز فعله وتركه ، كالمستحب ، والمندوب ، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات ، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب ، فلا يكون قوله : ﴿ **نافلة لك** ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمر من الوجوب[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

أمر رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق ، وأخبر عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) [الشعراء : ٨٤] . وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ، ومقعد صدق . فقال تعالى : (وبشر الذين آمنوا أن لهم

(١) انظر مختصر قيام الليل صـ (١١) .
وأصله لمحمد بن نصر المروزي واختصره المقريزي .
(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ٢٥٥) وانظر الدر المنثور (٥ / ٣٢٤) .
(٣) زاد المعاد (١ / ٣٢٢ - ٣٢٣) .

قدم صدق عند ربهم) [يونس : ٢] . وقال : (إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) [القمر : ٥٤-٥٥] .

فهذه خمسة أشياء : مدخل الصدق ، ومخرج الصدق ، ولسان الصدق ، وقدم الصدق ، ومقعد الصدق .

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء : هو الحق الثابت، المتصل بالله ، الموصل إلى الله ، وهو ما كان به وله ، من الأقوال والأعمال ، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة .

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق : أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله ، وفي مرضاته، بالظفر بالبغية ، وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر ، ومخرج الصدق : كمخرجه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه في تلك الغزوة. وكذلك مدخله صلى الله عليه وسلم المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة ، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب ، فإنه لم يكن بالله ، ولا لله ، بل كان محادة لله ولرسوله ، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار .

وكذلك مدخل من دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب أصابهم معه ما أصابهم .

فكل مدخل ومخرج كان بالله ولله . فصاحبه ضامن على الله ، فهو مدخل صدق ومخرج صدق .

وكان بعض السلف إذا خرج من داره رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامنا عليك . يريد أن لا يكون المخرج مخرج صدق . ولذلك فسر[1] مدخل الصدق ومخرجه : بخروجه صلى الله

(١) انظر تفسير الطبري (١٥ / ١٤٨) .

عليه وسلم من مكة ، ودخوله المدينة . ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل . فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه صلى الله عليه وسلم . وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق ، إذ هي لله وبالله وبأمره ، ولابتغاء مرضاته .

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب . والله المستعان .

وأما لسان الصدق : فهو الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق ، ليس ثناء الكذب . كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه : (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) [مريم : ٥٠] .

والمراد باللسان ههنا : الثناء الحسن[١] . فلما كان الصدق باللسان ، وهو محله ، أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق ، جزاء وفاقاً . وعبر به عنه . فإن اللسان يراد به ثلاثة معان : هذا ، واللغة ، لقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) [إبراهيم : ٤] . وقوله : (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) [الروم : ٢٢] . وقوله : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) [النحل : ١٠٣] .

ويراد به الجارحة نفسها كما في قوله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) [القيامة : ١٦] .

وأما قدم الصدق : ففسر بالجنة ، وفسر بمحمد صلى الله عليه وسلم وفسر بالأعمال الصالحة[٢] .

وحقيقة القدم: ما قدموه، وما يقْدِمُون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال

---

(١) تفسير الطبري (١٦ / ٩٣) .

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (١١ / ٨٠ – ٨٣) ورجح الطبري أن الصواب قول من قال معناه : « أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب .. » وإن كان جمع ابن القيم بين الأقوال حسنا جيدا .

والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه ، ومن فسره بالأعمال وبالنبي صلى الله عليه وسلم: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق .

وأما مقعد الصدق : فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره ، وأنه حق ، ودوامه ونفعه ، وكمال عائدته . فإنه متصل بالحق سبحانه ، كائن به وله .

فهو صدق غير كذب ، وحق غير باطل ، ودائم غير زائل ونافع غير ضار ، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل[1] .

قول الله تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

و (من) هنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض . فإن القرآن كله شفاء كما قال في الآية الأخرى : (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) [يونس : ٥٧] .

فهو شفاء للقلوب من داء الجهل ، والشك والريب ؛ فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ، ولا أسرع في إزالة الداء من القرآن[1]

قال تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٨٤] .

في تصديره[1] الباب بهذه الآية دلالة على عظم قدره ، وجلالة محله من هذا العلم . فإن معنى الآية : كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به ، فالفاجر يعمل على ما يليق به ، وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها : عامل على ما يناسبه، ولا يليق به سواه ومحب الصور : عامل على ما يناسبه ويليق به .

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٧٠ - ٢٧٢) .
(٢) الجواب الكافي (٤) .
(٣) أي الإمام « الهروي » في منازل السائرين والباب هو « الإرادة » .

فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه.

فالمريد الصادق المحب لله : يعمل ما هو اللائق به والمناسب له . فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به، والأنسب لها[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار . فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من كل ذلك وأجل والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ أي : على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته. وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها .

فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم. والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله[2] .

قال تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤] .

أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به كما يقول الناس : «كل إناء بالذي فيه ينضح» فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمه أحكم الحاكمين، ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس في ملكه وقالوا : لا يصلح للملك، فما الظن بمجاوري الملك الأعظم مالك الملوك في داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٧١) .
(٢) الفوائد (١٧٣ - ١٧٤) .

خلقه وأزكاهم وأشرفهم، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت إلى الأرض وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما تشارك فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه وأقبلت بكليتها عليه ، لا ترى نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق، فالفرق بينهما وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد ، وإلا فالقلب والطبع على [شاكلة] قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير ، ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : ٢٢-٢٣] .

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب[1] ؟

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فمعلوم قطعا أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به ، وإنما المراد بالأمر ها هنا المأمور وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى : (أتى أمر الله) [النحل : ١] . أي مأموره الذي قدره وقضاه وقال له كن فيكون . وكذلك قوله تعالى : (فما أغنت عنهم ءالهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) [هود : ١٠١] . أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم، وكذلك قوله تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) [النحل : ٧٧] . وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق كقوله تعالى للجنة : (أنت رحمتي)[2] فليس في قوله

(١) رواه مسلم (٥ / ٧٠١) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعاذنا الله منها .
(٢) طريق الهجرتين (٩٧) .

تعالى : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما ، وقد قال بعض السلف في تفسيرها جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر ، وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف وأكثر السلف بل كلهم[١] على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم .

وقد ثبت في الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما أنا أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة وهو متكىء على عسيب فمررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشيء يكرهونه وقال بعضهم نسأله فقام رجل فقال يا أبا القاسم : ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[٢] .

---

(١) وتفاسير السلف أيضاً موقوفة ، وليس فيها شيء مرفوع لبيان المراد بالروح في قوله تعالى هنا .
وانظر تفسير الطبري (١٥ / ١٥٦) .
وقال الحافظ المدقق ابن حجر رحمه الله تعالى : وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسئول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ : ٣٨] . قال : « وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفساً » (الروح صـ ١٥٠-١٥٤) ، قال ابن حجر : « كذا قال ، ولا دلالة في ذلك لما رجحه ، بل الراجح الأول ، فقد أخرج الطبري (١٥ / ١٥٦) من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح : وكيف يعذب الروح الذي في الجسد ، وإنما الروح من الله ؟ فنزلت الآية » .
فتح الباري (٨ / ٢٥٥ - ٢٥٦) التفسير ، باب : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ .
قلت : ولكن هذا النقل عن ابن عباس مسلسل بالضعفاء كما حقق ذلك الشيخ / أحمد شاكر رحمه الله تعالى في تحقيقه على الطبري (١ / ٢٦٣ - ٢٦٤) رقم (٣٠٥) وقد ذهب الشوكاني إلى أنها **«الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته» ورجحه كما في تفسيره «فتح القدير» (٢٥٤/٣) والله أعلم.**

(٢) رواه البخاري (٨ / ٢٥٣) في التفسير ، باب : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ .
ومسلم (٥ / ٦٦١) في صفة القيامة والجنة والنار ، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح ، كلاهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذي عند الله لا يعلمها الناس . وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة[١] .

فإن قيل : فقد قال أبو الشيخ ، حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم ، أنبأنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: بعثت قريش عقبة بن أبي معيط وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم، قالوا : فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه وأما أشراف قومه فلم يتبعوه، فقالوا : إنه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل **فأتوه** فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم فإن قال لكم هي من الله فقولوا كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله ثم ذكر باقي الحديث[٢] قيل مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من تفسير السدي عن أبي مالك وفيه أشياء منكرة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدي ، وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال مر النبي

---

(١) وفسر الرازي الآية بناءً على أن الروح المسئول عنها هي روح بني آدم التي هي سبب الحياة ، وأورد من كلام الفلاسفة أموراً عجيبة وغريبة . التفسير الكبير (٢١ / ٣٠) وما بعدها .

(٢) ورواه ابن إسحاق في السيرة (١ / ٣٢١) ط التراث .
وانظر الروض الأنف (٣ / ١٢٨) .
وسنده ضعيف لجهالة شيخ « ابن إسحاق » .
وذكره الواحدي في أسباب النزول صـ « ٢٢٠ » .
وانظر دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ٢٦٩ - ٢٧١) و (٧ / ١٤٣) .

صلى الله عليه وآله وسلم على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ يعني اليهود : ﴿ **قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ وكذلك في قراءة عبد الله[1] .

فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

وروى يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء فأنزل الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[2] . فهذا يدل على ضعف حديث السدي وأن السؤال كان بمكة . فإن هذا الحديث ، وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه[2] .

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٥ / ٣٩٤٠) .
وقال : (واختلف فيمن خوطب بذلك ، فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هذا هي قراءة عبد الله بن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العالم كله .
وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم » . اهـ .
وراجع فتح الباري (٨ / ٢٥٦) .

(٢) حديث ابن عباس رضي الله عنه جاء من طرق صحيحة . بما يدل على أن السؤال كان بمكة أيضاً ، وكان السائل قرشياً بخلاف ما ذكره ابن القيم في الحديث هنا :
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٨٥ - ٨٦) رقم (٢٣٠٩) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .
ورواه الترمذي (٥ / ٢٨٤) رقم (٣١٤٠) في التفسير ، باب : « ومن سورة بني إسرائيل » ، وحسنه .
وقال الحافظ ابن حجر « ورجاله رجال مسلم » الفتح (٨ / ٢٥٣)، ولفظ الحديث عن ابن عباس =

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ونحن نذكر ذلك .

فقد ذكرنا رواية السدي عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب ، فقال مسروق بن المرزبان[1] وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . الحديث .

وقال محمد بن نصر المروزي حدثنا إسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال:قالت قريش لليهود:أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا:سلوه عن الروح فنزلت : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ الآية .

= قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقال : سلوه عن الروح . فسألوه عن الروح ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح .. ﴾ الآية ، قالوا : أوتينا علماً كبيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، فأنزلت ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي .. ﴾ الآية [الكهف : ١٠٩] .

وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢ / ٥٣١) وصححه ووافقه الذهبي .

فصح الحديث بأن السؤال كان أيضاً بمكة وقد حاول بعض العلماء الجمع بين الحديثين المثبتين لنزول الآية بمكة والمدينة . **فقد قال ابن كثير بعد ذكره حديث ابن مسعود: « وهذا السياق يقتضي – فيما** يظهر بادي الرأي – أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهي هذه الآية ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة .. » وذكر حديث الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

تفسير ابن كثير (٣ / ٦٥) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بعد ذكره لحديث الترمذي « .. وهو عند ابن إسحاق من وجه آخر عن ابن عباس نحوه ، ويمكن الجمع بأن يتعدد النزول بحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك ، وإن ساغ هذا وإلا فما في الصحيح أصح » فتح الباري (٨ /٢٥٣) .

(١) « صدوق له أوهام » كما قال الحافظ في التقريب (٢ / ٢٤٣) .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود . وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس : قل الروح أمر من أمر الله عز وجل وخلق من خلق الله وصور مثل صور بني آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعنه رواية رابعة قال ابن منده روى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾ قد نزل من القرآن بمنزلة كن. نقول[1] كما قال تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء الرقيم والغسلين والروح وقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه** ﴾ . [الجاثية:١٣] .

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال: قال الله تعالى: ﴿**قل الروح من أمر ربي** ﴾ يعني خلقاً من خلقي : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ . يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها .

وعنه رواية سادسة روى عبد الغني عن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه . وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود:سلوه عن ثلاث : سلوه عن الروح وذلك أنه

(١) هكذا في المطبوعة ولم أتبينه .

ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ يريد من خلق ربي عز وجل .

والروح في القرآن على عدة أوجه :

أحدها : الوحي كقوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) [الشورى : ٥٢] .

وقوله تعالى: (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) [غافر: ١٥].

وسمى الوحى روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

الثاني : القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) [المجادلة : ٢٢] .

الثالث : جبريل كقوله تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك) [الشعراء : ١٩٣-١٩٤] .

وقال تعالى : (من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) [البقرة : ٩٧] .

وهو روح القدس قال تعالى : (قل نزله روح القدس) [النحل : ١٠٢] .

الرابع : الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله . وقد قيل إنها الروح المذكورة في قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) [النبأ : ٣٨] وأنها الروح المذكور في قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم) [القدر : ٤] .

الخامس: المسيح بن مريم قال تعالى: (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) [النساء : ١٧١] .

وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة) [الفجر : ٢٧] وقال تعالى: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) [القيامة: ٢] . وقال تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء) [يوسف : ٥٣] . وقال تعالى : (أخرجوا أنفسكم) [الأنعام : ٩٣] . وقال تعالى: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) [الشمس : ٧-٨] . وقال تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) [آل عمران : ١٨٥] ، وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة[(١)(٢)].

قوله سبحانه رداً على الذين قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٩٩] .

أي : مثل هؤلاء المكذبين، والمراد به النشأة الثانية وهي الخلق الجديد، وهي المثل المذكور في غير موضع، وهم هم بأعيانهم، فلا تنافي في شيء من ذلك، بل هو الحق الذي دل عليه العقل والسمع ، ومن لم يفهم ذلك حق فهمه تخبط عليه أمر المعاد، وبقي منه في أمر مريج .

والمقصود أنه دلهم سبحانه بخلق السموات والأرض على الإعادة والبعث، وأكد هذا القياس بضرب من الأولى، وهو أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادر على خلق ما هو أكبر وأعظم منكم أقدر على خلقكم وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، فليس مع المكذبين بالقيامة إلا مجرد تكذيب الله

(١) قال الشوكاني رحمه الله تعالى « وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح ، المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام ، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا . وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول ، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع ... » اهـ . مختصراً من فتح القدير (٣ / ٢٥٤) فراجعه فإنه مفيد . والله أعلم .

(٢) الروح (١٥٠ - ١٥٤) .

ورسله،وتعجيز قدرته، ونسبة علمه إلى القصور والقدح في حكمته، ولهذا يخبر الله سبحانه عمن أنكر ذلك: بأنه كافر بربه ، جاحد له، ولم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض،كما قال تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم أءذا كنا تراباً أءنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم) [الرعد : ٥] .

وقال المؤمن للكافر الذي قال : (وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً) [الكهف : ٣٦] . فقال له : (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً) [الكهف : ٣٧][(١)] .

قال تعالى حاكيا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

أي هالكا على قراءة من فتح التاء[(٢)] وهي قراءة الجمهور ، وضمها الكسائي وحده .

وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) [النمل : ١٣-١٤]. فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلواً لا جهلاً[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠]

فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول قالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول مرة : « يا الله » ومرة « يا رحمن » فظن

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٩٦ - ١٩٧) .

(٤) كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد صـ (٣٨٥) وانظر الطبري (١٥ / ١٧٤) .

(٥) مفتاح دار السعادة (٩٩) .

الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين فأنزل الله تعالى هذه الآية قال ابن عباس : سمع المشركون النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في سجوده يارحمن يارحيم فقالوا هذا يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾[1] .

وقيل إن الدعاء هاهنا بمعنى التسمية كقولهم دعوت ولدى سعيداً وادعه بعبد الله ونحوه .

والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن فالدعاء ههنا بمعنى التسمية وهذا قول الزمخشري[2] والذي حمله على هذا قوله : ﴿ **أيًّامًّا تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ فإن المراد بتعدده معنى أي : وعمومها هاهنا تعدد الأسماء ليس إلا .

والمعنى : أي: الأسماء سميتموه به من أسماء الله تعالى إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أي : فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى والضمير في (له) يعود إلى المسمى فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية . وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية وليس هو عين المراد . بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في (تدعوا) معنى تسموا فتأمله والمعنى أيما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم والله أعلم[3] .

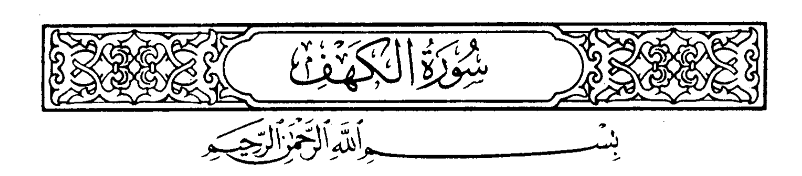
---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٥ / ١٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعن مكحول مرسلاً .

(٢) الكشاف للزمخشري (٢ / ٣٧٨) .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ٥) .

سُورَةُ الكَهْفِ



وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف : ٧] .

فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضاً[1] .

وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف : ٩] .

أي أبلغك خبرهم أم حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجباً[2] .

قول الفتية أصحاب الكهف ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف : ١٤] . أي لن نعبد غيره[3] .

قال تعالى في أهل الكهف :

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف : ١٤] .

وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد فإن هؤلاء كانوا بين قومهم، الكفار في خدمة ملكهم الكافر ، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق ،

---

(١) عدة الصابرين (١٦٠) .

(٢) بدائع الفوائد (١ / ٢٠٧) .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٦) .

وذاقوا حلاوته ، وباشر قلوبهم ، فقاموا من بين قومهم وقالوا :

﴿ **ربنا رب السموات والأرض** ﴾ الآية .

والربط على قلوبهم : يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف .

والربط على القلب: عكس الخذلان . فالخذلان : حَلُّهُ من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه ، ويصير أمره فرطا والربط على القلب : شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه. ويتبع مرضاته . ويجتمع عليه شمله[١] .

قول الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف : ٢٢] .

استنبط السهيلي في الروض[٢] أن عدة أصحاب الكهف سبعة قال؛ لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو فقال : ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾ ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى .

وما استنبطه حسن غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلاً في جملة قولهم بل يكون قد حكى سبحانه أنهم قالوا (سبعة) ثم أخبر تعالى : أن (ثامنهم كلبهم) فحينئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم . وأنهم قالوا هذا وهذا لم يظهر ما قاله ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً فتأمله[٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٦٧ - ٦٨) .

(٢) الروض الأنف (٣ / ١٦٩ - ١٧٠) .

(٣) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٦) .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : ٢٣ - ٢٤] .

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين : أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول إن شاء الله فإذا نسيت أن تقولها ، فقلها متى ذكرتها ، وهذا هو الاستثناء المتراخي ، الذي جوزه ابن عباس ، وتأول عليه الآية ، وهو الصواب . فغلط عليه من لم يفهم كلامه ونقل عنه : « أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق ثلاثاً أو قال : نسائي الأربع طوالق ، ثم بعد سنة يقول : إلا واحدة ، أو إلا زينب . أن هذا الاستثناء ينفعه » . وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير ، فضلاً عن البحر حبر الأمة وعالمها ، الذي فقهه الله في الدين وعلمه التأويل .

وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة ، ولو ذهبنا لنذكر ذلك لطال جداً وإن ساعد الله أفردنا له كتاباً .

والذي أجمع عليه المفسرون[١] : أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين فقال : « أخبركم غدا » ولم يقل (إن شاء الله) فتلبث الوحي ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم : معناه إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ويجوز الاستثناء إلى سنة .

وقال عكرمة رحمه الله : واذكر ربك إذا غضبت .

وقال الضحاك والسدي : هذا في الصلاة . أي إذا نسيت الصلاة فصلها متى ذكرتها[٢] .

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة (١ / ٣٢١) .
وانظر الروض الأنف (٣ / ١٢٨) .
والطبري في تفسيره من طريق ابن إسحاق (١٥ / ١٩٠) .
وهذا سند ضعيف لجهالة شيخ ابن إسحاق ومر سبب نزول آية ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ في سورة الإسراء فراجعه عند الآية (٨٥) . وادعاء الإجماع يحتاج لتحقيق ، ولا يخفى بُعده .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٣١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤] .

وهذا ليس بيمين ، ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد والخبر عن المستقبل، كقوله : غداً أفعل إن شاء الله .

وقد عتب الله على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء « غداً أخبركم »[(١)] ، ولم يقل : إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً ثم نزل عليه : ﴿ **ولا تقولن لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤] .

أي إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك، فاذكره به إذا ذكرت. هذا معنى الآية ، وهو الذي أراده ابن عباس بصحة الاستثناء[(٢)] المتراخي، ولم يقل ابن عباس قط ، ولا من دونه : إن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق ، أو لعبده : أنت حر ، ثم قال بعد سنة : إن شاء الله أنها لا تُطلق ، ولا يعتق العبد ، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس أو عن أحد من أهل العلم البتة ، ولم يفهموا مراد ابن عباس[(٣)] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال تعالى : ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ [الكهف : ٢٤] .

وهذا إما أن يختص بالاستثناء إذا نسيه كما فسره به جمهور المفسرين ، أو يعمه ويعم غيره ، وهو الصواب؛ فأما أن يخرج منه الاستثناء الذي سيق الكلام

---

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) وإلى هذا ذهب الطبري رحمه الله تعالى .
كما في تفسيره (١٥ / ٢٢٨) .
وذكره ابن كثير عنه وصححه (٣ / ٨٤ - ٨٥) .

(٣) إعلام الموقعين (٤ / ٩٧) .

لأجله ويرد إلى غيره فلا يجوز ، ولأن الكلام الواحد لا يعتبر في صحته نية كل جملة من جمله وبعض من أبعاضه ، فالنص والقياس يقتضي نفي الاستثناء ، وإن خطر له بعد انقضاء الكلام، وهذا هو الصواب المقطوع به[1] .

قال الله تعالى عن الإغفال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

سُئل أبو العباس ثعلب عن قوله : ﴿ **أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ فقال : جعلناه غافلاً . قال:ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً .

قلت : الغفل الشيء الفارغ والأرض الغفل التي لا علامة بها ، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه فأغفلناه تركناه غفلا عن الذكر فارغاً منه فهو إبقاء له على العدم الأصلي ، لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً ، فالغفلة وصفه والإغفال فعل الله فيه بمشيئته وعدم مشيئته لتذكره ، فكل منهما مقتض لغفلته فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر . فإن قيل فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب أضدادها أم إلى مشيئته لوقوعها ؟

قيل: القرآن قد نطق بهذا وبهذا قال تعالى: (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) [المائدة : ٤١] وقال: (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) [المائدة : ٤١] .

وقال : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) [الأنعام : ١٢٥] .

فإن قيل فكيف يكون عدم السبب المقتضي موجباً للأثر ، قيل الأثر إن كان وجودياً فلابد له من مؤثر وجودي وأما العدم فيكفي فيه عدم سببه وموجبه فيبقى على العدم الأصلي فإذا أضيف إليه كان من باب إضافة الشيء إلى دليله فعدم السبب دليل على عدم المسبب وإذا سمي موجباً ومقتضياً بهذا الاعتبار فلا مشاحة في ذلك .

---

(١) إعلام الموقعين (٣ / ٤٣٠) و (٤ / ٧٣) .

وأما أن يكون العدم أثراً ومؤثراً فلا .

وهذا الإغفال ترتب عليه اتباع هواه وتفريطه في أمره .

قال مجاهد : كان أمره فرطا أي : ضياعاً .

وقال قتادة : أضاع أكبر الضيعة .

وقال السدي : هلاكاً .

وقال أبو الهيثم : أمر فرط أي متهاون به مضيع ، والتفريط تقديم العجز .

قال أبو إسحاق : من قدم العجز في أمر أضاعه وأهلكه .

قال الليث : الفرط الأمر الذي يفرط فيه يقول كل أمر فلان فرط .

قال الفراء : فرطاً : متروكاً يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه ، واتبع ما لا ينبغي اتباعه وغفل عما لا يحسن الغفلة عنه[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر : هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى ، وهو من أهل الغفلة كان فرطا ، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع ، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به ، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه ، وفسر بالإسراف أي قد أفرط ، وفسر بالإهلاك ، وفسر بالخلاف للحق ، وكلها أقوال متقاربة .

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات ، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجده كذلك فليبعد منه . وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة ، وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه ، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر ، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت[٢] .

(١) شفاء العليل (٩٨) .

(٢) الوابل الصيب (٦٠ - ٦١) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقال : المراد قلة بقاء زهرة الدنيا ، كقلة بقاء هذا النبات ، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ، وتصييرها شيئاً واحداً فلا[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

عدل عن قادر إلى مقتدر ليشعر بالزيادة على زيادة قدرة الله تعالى ، والبيان عن عظم شأنه[(٢)] .

قول الله تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملا** ﴾ [الكهف : ٤٦] .

ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا وأن الباقيات الصالحات وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] .

فإنه إنما قال ﴿ **وحشرناهم** ﴾ ماضياً بعد ﴿ **نسير ... وترى** ﴾ وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك[(٤)] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

---

(١) اجتماع الجيوش (١٦) .
(٢) الفوائد المشوق (١٠٦) .
(٣) عدة الصابرين (١٧٣) .
(٤) الفوائد المشوق (١٠٣ - ١٠٤) .

يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له ، تكريماً له وتشريفاً ، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه ، فعصى أمري ، وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني ، فتطيعونه في معصيتي، وتوالونه في خلاف مرضاتي ، وهم أعدى عدو لكم ، فواليتم عدوي وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى أعداء الملك، كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعاداة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له، فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه عدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه. ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ **وهم لكم عدو** ﴾ . كما نبه على قبحها بقوله ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ .

فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته ، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال ؟! بئس للظالمين بدلا . ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة[1] .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فتحت هذا الخطاب : إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم ، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١١٨ - ١١٩) .

لكم ! فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح[١] .

قال : فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوباً له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختياراً وطوعاً حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسداً عتبة بابه واضعاً خده وذقنه عليها ، فكيف يكون فرحه؟ ولله المثل الأعلى[٢] .

لما سافر موسى إلى الخضر وجد فى طريقه مس الجوع والنصب فقال لفتاه : ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف : ٦٢] .

فإنه سفر إلى مخلوق ، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفر إلى ربه تعالى وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين[٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤] .

وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً وسمي (غلاماً) لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه ويحتمل أن يكون مميزاً عاقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله : « ولو أدرك لأرهق أبويه »[٤] وعلى

---

(١) طريق الهجرتين (١٢٥) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ٢٠٣) .

(٤) حديث موسى عليه السلام مع الخضر .

رواه البخاري (٨ / ٢٦٣) في التفسير ، باب : ﴿ فلما بلغ مجمع البحرين .. ﴾ . =

هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما علم بشريعتنا ، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً ، كيف وقد قال جماعة من العلماء : إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام ، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام .

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ ولو لم يكن مكلفاً [بشرائعه]. فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء ، فإذا ارتد عندهم صار مرتداً له أحكام المرتدين ، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره ، واتفقوا على أنه يضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة .

فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال ، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة لأنه إنما قتله بأمر الله ، كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين؟ كما قال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ ؛ والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله ، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل ، ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصول على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه ؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به ، ولهذا علق ابن عباس الفتيا به فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان : «إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا ». رواه مسلم في صحيحه .

ولكن يقال : قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه ، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها ، ولم يعلم موسى تلك

= ومسلم (٥ / ٢٣٠) في الفضائل ، باب : فضائل الخضر .
والترمذي (٥ / ٢٨٩) في التفسير ، باب : ومن سورة الكهف .
ورواه غيرهم .

الأسباب: مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها أخذها فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما . وعلى هذا، فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً ، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل ؛ وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً ولم يلزمه ضمانه ؛ وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين، وأبوهما كان صالحاً،أمر يعلمه الناس ولكن خفي على موسى ؛ وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه ، ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه،ولا يقبل منهما ، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره ؛ ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً،ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر وأطلع الله الخضر على ذلك، فقد يقول القائل : قتله بالفعل كقتل نوح لأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التى أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل ، وقوله : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) [نوح : ٢٧] . لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله (فاجراً كفاراً) حالان مقدرتان : أي من سيفجر ويكفر[1] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف : ٧٤-٧٥] .

وإنما أكد هنا دون قصة السفينة لإرادته في قصة الغلام زيادة النكر[2] .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] .

أي أمامهم بدليل قراءة ابن عباس (وكان أمامهم ملك) وهذا المذهب

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢ / ٥٨٤ - ٥٨٧) .

(٢) الفوائد المشوق (١٨٥) .

ضعيف ووراء لا يكون أماما وراء إلا بالنسبة إلى شيئين فيكون أمام الشيء وراء لغيره ووراء الشيء أماما لغيره فهذا الذي يعقل فيها . وأما أن يكون وراء زيد بمعنى أمامه فكلا . وأما ما استدلوا به فلا حجة فيه وأما قوله تعالى : (من ورائه جهنم) [إبراهيم : ١٦] فالمعنى أنه ملاق جهنم بعد موته فهى من بعده أي بعد مفارقته الدنيا فهى لما كانت بعد حياته كانت وراءه لأن وراء كبعد فكما لا يكون بعد قبل فلا يكون وراء أمام وأنت لو قلت جهنم بعد موت الكافر لم يكن فيها معنى قبل بوجه فوراء هاهنا زمان لا مكان . فتأمله رحمك الله تعالى فهي خلف زمان حياته وبعده وهي أمامه ومستقبلته فكونها خلفاً وأماماً باعتبارين وإنما وقع الاشتباه لأن بعدية الزمان إنما يكون فيما يستقبل أمامك كقولك بعد غد وورائية المكان فيما تخلف وراء ظهرك فمن ورائه جهنم ورائية زمان لا مكان وهي إنما تكون في المستقبل الذي هو أمامك فلما كان معنى الأمام لازماً لها ظن من ظن أنها مشتركة ولا اشتراك فيها ، وكذلك قوله : (ومن ورائه عذاب غليظ) وكذلك (من ورائهم جهنم) وأما قوله : ﴿ **وكان وراءهم ملك** ﴾ فإن صحت قراءة (وكان أمامهم ملك) فلها معنى لا يناقض القراءة العامة وهو أن الملك كان خلف ظهورهم وكان مرجعهم عليه فهو وراءهم في ذهابهم وأمامهم في مرجعهم فالقراءتان بالاعتبارين . والله سبحانه وتعالى أعلم[١] .

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩].

يحتمل أن يكون أراد بورائهم أمامهم ويحتمل أن يكون وراءهم وهو يطلبهم[٢] .

قال تعالى عن ذي القرنين :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤] .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : علما . قال قتادة وابن زيد وابن

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٩٥ - ١٩٦) .

(٢) الفوائد المشوق (١٦٥ - ١٦٦) .

جريج والضحاك : علما تسبب به إلى ما يريد . وكذلك قال إسحق : علما يوصله إلى حيث يريد : وقال المبرد : وكل ما وصل شيئاً بشيء فهو سبب . وقال كثير من المفسرين[1] : آتيناه من كل ما بالخلق إليه حاجة علما ومعونة له . وقد سمى الله سبحانه الطريق سببا في قوله : ﴿ **فأتبع سبباً** ﴾ قال مجاهد : طريقا . وقيل : السبب الثاني هو الأول أي أتبع سبباً من تلك الأسباب التي أوتيها مما يوصله إلى مقصوده[2] .

قال تعالى : ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٠-١٠١] .

وهذا يتضمن معنيين :

أحدهما : أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله ، وأدلة توحيده وعجائب قدرته .

والثاني : أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به وهذا الغطاء للقلب أولا ثم يسري منه إلى العين[3] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣-١٠٤] .

وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله عز وجل ، أو على غير سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة ، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال وكناسة أفكارهم ، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال ، والانتصار لهم ، وفهم ما قالوه وبثه في المجالس والمحاضر ، وأعرضوا عما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صفحاً، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلباً للفضيلة، وأما تجريد

(١) انظر تفسير الطبري (١٦ / ٩) .

(٢) شفاء العليل (١٨٩) .

(٣) شفاء العليل (٩٣) .

اتباعه وتحكيمه وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه ، وعرض آراء الرجال عليه ورد ما يخالفه منها وقبول ما وافقه ، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي ، وشهد لها بالصحة ، فهذا أمر لا تكاد ترى أحداً منهم يحدث به نفسه ، فضلاً عن أن يكون أخيته ومطلوبه ، وهذا الذي لا ينجي سواه فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم ، واستفرغ فيه قواه ، واستنفد فيه أوقاته ، وآثره على ما الناس فيه ، والطريق بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسدود ، وقلبه عن المرسل سبحانه وتعالى وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود ، ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب . سبحان الله وإن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها ، وحيرت العقول عن طرق قصدها[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧-١٠٨] .

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنة ، ويقال على أفضلها وأعلاها ، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات . وأصل الفردوس : البستان والفراديس البساتين. قال كعب : هو البستان الذي فيه الأعناب . وقال الليث :

الفردوس جنة ذات كروم . يقال : كرم مفردس أي : معرش .

وقال الضحاك : هي الجنة الملتفة بالأشجار ، وهو اختيار المبرد . وقال : الفردوس : فيما سمعت من كلام العرب، الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب ، وجمعه : الفراديس . قال : ولهذا سمي باب الفراديس بالشام ، وأنشد لجرير :

فقلت للركب إذا جد المسير بنا   يا بعد نيرين من باب الفراديس

وقال مجاهد : هذا البستان بالرومية ، واختاره الزجاج ، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية ، قال : وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون

---

(١) اجتماع الجيوش (٢٥) .

في البساتين ، قال حسان :

وإن ثواب الله كل مخلد جنان من الفردوس فيها يخلد[١][٢]

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه . وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مراداً به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل بجميع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول ؛ لم يمكنه قصده وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً . فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة[٣] .

وقال : أي كما أنه إله واحد ، ولا إله سواه ، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤] : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العبادة ، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً ، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر ، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) [البينة : ٥] .

---

(١) والصواب في معنى الفردوس – كما رجحه الطبري (١٦ / ٣٧) – وغيره ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها أوسط الجنة وأعلاها ، منها ما رواه : البخاري (٦ / ١٤) في الجهاد والسير ، باب : درجات المجاهدين في سبيل الله وفيه « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة .. » .

(٢) حادي الأرواح (٨٨ – ٨٩) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٠) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في الزهد كما في كنز العمال (١ / ٦٧٥) .

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ، ويقول الله[1] « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء »[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

هذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه ، وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مراداً به وجه الله ، ولا يتمكن العامل من الإتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده ، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلولا العلم لما كان عمله مقبولاً ، فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة[3] .

* * *

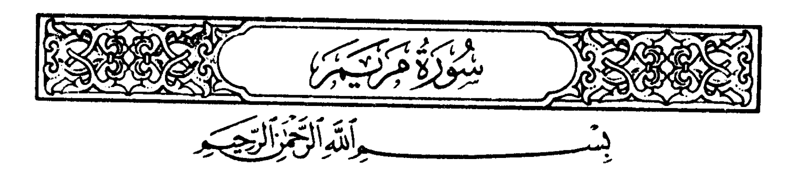
(١) روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٢١٥) برقم (١٧٩١٩) وابن ماجه (رقم ٣٣٨٨) صحيح ابن ماجه في الزهد ، باب : الرياء والسمعة .
والترمذي وحسنه (٥ / ٢٩٤) في التفسير ، باب : « ومن سورة الكهف » .
كلهم من حديث « أبي سعيد بن أبي فضالة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا جمع الله الناس ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان يشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه منه .. » الحديث .

(٢) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٩٦) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٠) .

سُورَةُ مَرْيَمَ





بسم الله الرحمن الرحيم

قول الله تعالى ذكره عن – زكريا عليه السلام – : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤] .

إذ المستعار منه[١] النار والمستعار له الشيب والجامع بينهما الانبساط ولكنه في النار يقوى .

وفي هذه الآية ثلاث فوائد أخر غير الاستعارة .

الفائدة الأولى : أنه سلك في الآية طريق ما أسند فيه الشيء إلى الشيء وهو لشيء آخر لما بينه وبين الأول من التعلق فيرفع ذكر ما أسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا .

الفائدة الثانية : بيان ما بينهما من الاتصال كقولهم: طاب زيد نفساً وتصبب عرقاً ، وأشباههما فيما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك[٢] الشيء من سببه ، فإنا نعلم أن الاشتعال للشيب في المعنى وهو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس وتصبب للعرق وإن أسند إلى ما أسند إليه . والدليل على أن شرف هذه الآية بسبب ذلك أنا لو تركنا هذا الطريق وأسندنا الفعل إلى الشيب صريحاً فقلنا: اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس لانتفى ذلك الحسن . فإن

---

(١) في معرض الكلام على ما اشتمل عليه الكتاب العزيز من أقسام الاستعارة وصنوفها .

(٢) هكذا في المطبوعة .

قلت : فما السبب في إن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له هذا الفضل ؟ .

فنقول : السبب فيه أن يفيد مع لمعان الشيب في الرأس أنه شمل وشاع وأخذ به من نواحيه . وعم بجملته حتى لم يبق من السواد شيء إلا القليل . فهذه الفائدة لا تحصل إذا قيل اشتعل الشيب في الرأس[١] لا يوجب اللفظ أكثر من ظهور الشيب فيه . بيانه أنك تقول اشتعل النار في البيت فلا يفيد أكثر من إصابتها جانباً .. ومثاله من التنزيل قوله تعالى : (وفجرنا الأرض عيوناً) [القمر : ١٢] . فالتفجير للعيون في المعنى ، لكنه وقع في اللفظ على الأرض ؛ ليفيد أن الأرض بالكلية صارت عيوناً ..

الفائدة الثالثة : تعدية الرأس بالألف واللام وإفادة معنى الإضافة من غير الإضافة وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل : واشتعل رأس لذهب الحسن ومن هذا الباب قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج[٢] في بعض) [الكهف : ٩٩] . أصل الموج حركة الماء فاستعمل في حركتهم على سبيل الاستعارة . وقوله عز وجل : (والصبح إذا تنفس) [التكوير : ١٨] . للظهور ... وأما استعارة المحسوس للمحسوس لشبه عقلي فكقوله تعالى : (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) [الذاريات : ٤١]. المستعار له الريح والمستعار منه المرأة العقيم ، والجامع بينهما المنع من ظهور النتيجة[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

أما قول زكريا : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤] .

فقد قيل : إنه دعاء المسألة والمعنى : إنك عودتني إجابتك وإسعافك و لم تشقني بالرد والحرمان فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه كما حكي

(١) في المطبوع « الناس » والمثبت الأقرب إلى مراد السياق .
(٢) ساقطة من المطبوعة .
(٣) الفوائد المشوق (٤٦-٤٧) .

أن رجلاً سأل رجلاً وقال : أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا ؟ ! فقال : مرحباً بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته ، وهذا ظاهر ههنا ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم : ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم : ٣٣] .

(قيل) : ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة ؟ .

فسره والله أعلم : أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة ، وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم ، والنفس عليها أحرص لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقراً فيها موطن النفس ، على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول :

تأمل بكاء الطفل عند خروجه إلى هذه الدنيا إذا هو يولد
تجد تحته سراً عجيباً كأنه بكل الذي يلقاه منها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون . وأما ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٤-٥) .

ليس فيها ما ينفيه فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور .

الموطن الثاني : خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريباً وتمثيلاً ، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر . وطلب السلامة أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور .

الموطن الثالث : موطن يوم القيامة يوم يبعث الله الأحياء ولا نسبة لما قبله من الدور إليه وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله فإن عطبه لا يستدرك وعثرته لا تقال وسقمه لا يداوى وفقره لا يسد . فتأمل كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها .

واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها . وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيداً مجرداً عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ٢٢،٢٣] .

إنما عطف بالفاء مع أن بين مجيء المخاض والحمل مهلة لأن المهلة التي بين حملها ومخاضها كانت مدة يسيرة . قيل : كانت يوماً ، وقيل : كانت ثلاث ساعات وعليه أكثر المفسرين[2] حتى يتميز حملها عن سائر النساء ويكون ذلك

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٦٨-١٦٩) .

(٢) قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر .. ، فالمشهور الظاهر -- والله على كل شيء قدير - أنها حملت =

كرامة لها . فعلى هذا يكون المراد بالآية بيان ذلك[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم : ٣٠،٣١] .

قال سفيان بن عيينة : جعلني مباركاً أينما كنت قال : معلماً للخير . وهذا يدل على تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركاً كما قال تعالى : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه)[الأنبياء : ٥٠] وقال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك) [ص : ٢٩] . ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح ﴿ **وجعلني مباركاً أينما كنت** ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، ثم يقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) » « متفق عليه »[٣] .

= به كما تحمل النساء بأولادهن .. » تفسير ابن كثير (٣ / ١٢٤) .

(١) الفوائد المشوق (١٨٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٩٠) .

(٣) رواه البخاري (٨ / ٢٨٢) في التفسير ، باب : (وأنذرهم يوم الحسرة) . والرقاق (١١ / ٤٢٣) باب صفة الجنة والنار . =

وفي الصحيحين أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه »[(١)] . وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وصار أهل النار إلى النار أتي بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة : لا موت ويا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم »[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتي بالموت ملبياً فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ثم يقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال : يا أهل النار فيطلعون مبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة وأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء : قد عرفناه وهو الموت ، الذي وكل بنا ، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت »[(٣)] رواه النسائي والترمذي وقال : حديث حسن صحيح وهذا الكبش والإضجاع ، والذبح ومعاينة الفريقين ذلك

= مسلم (٥ / ٧٠٥) في الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون .

(١) رواه البخاري (١١/ ٤١٤) في الرقاق ، باب : يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب .
ومسلم (٥ / ٧٠٦) في صفة الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون .

(٢) رواه البخاري (١١ / ٤٢٣) في الرقاق ، باب : صفة الجنة والنار .
ومسلم (٥ / ٧٠٦) في صفة الجنة ، باب : النار يدخلها الجبارون .
ه ملحوظة : وقع في المطبوع من « حادي الأرواح » - مصدرنا هنا - « جهنم » والصواب ما أثبتناه وهو « حزنهم » .

(٣) رواه الإمام أحمد - رضي الله عنه - (٢ / ٢٦١) .
وابن ماجه (٢ / ٤٣٥) صحيح ابن ماجه ، في الزهد ، باب : صفة النار .
والترمذي (٤ / ٥٩٦) في صفة الجنة ، باب : ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار . وقال « حديث حسن صحيح » .
ولم أهتد إليه عند النسائي . والله أعلم .

حقيقة لا خيال ولا تمثيل كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً : وقال : الموت عرض والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح ؛ فإن الله سبحانه ينشيء من الموت صورة كبش يذبح كما ينشيء من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب والله تعالى ينشيء من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشيء من الأجسام أعراضاً ، كما ينشيء سبحانه من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً .

فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تبارك وتعالى ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال ولا حاجة إلى تكلف من قال : إن الذبح لملك الموت . فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله والتأويل الباطل الذي لا يوجبه عقل ولا نقل ، وسببه قلة الفهم لمراد الرسول صلى الله عليه وسلم من كلامه ، فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض تذبح .

وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح ، ولم يهتد الفريقان إلى هذا القول الذي ذكرناه وأن الله سبحانه ينشيء من الأعراض أجساماً يجعلها مادة لها ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « تجيء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان » الحديث[1] فهذه هي القراءة التي ينشئها الله سبحانه غمامتين .

وكذلك قوله في الحديث الآخر : « إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن »[2] . ذكره أحمد .

---

(١) رواه مسلم عن « أبي أمامة الباهلي » وأوله : « اقرءوا القرآن .. » (٢ / ٤٥٦) في صلاة المسافرين ، باب : فضل قراءة القرآن ...

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٢٦٨ - ٢٧١) .
وابن ماجه (٢ / ١٢٥٢) في الأدب ، باب : فضل التسبيح .
قال البوصيري في الزوائد « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » (٣ / ١٩٣) .
والحاكم (١ / ٥٠٣) صححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي . كلهم من حديث « النعمان بن بشير » رضي الله عنه .

وكذلك قوله في حديث عذاب[١] القبر ونعيمه للصورة التي يراها : « فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح وأنا عملك السيىء » . وهذا حقيقة لا خيال ، ولكن الله أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة ، وهل النور الذي يقسم بين المؤمنين يوم القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص ، فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل . وقال سعيد عن قتادة : بلغنا أن نبي[٢] الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة فيقول له : من أنت ؟ فوالله إني لأراك امرأ الصدق فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة . وأما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول : ما أنت ؟ فوالله إني لأراك امرأ السوء فيقول له : أنا عملك فينطلق به حتى يدخل النار » وقال مجاهد مثل ذلك وقال ابن جريج : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟؟ فيقول له : أنا عملك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله: ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس: ٩].

والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلاده حتى يقذفه في النار .

وقال ابن المبارك : ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن أنه ذكر هذه الآية : ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : ٥٨،٥٩] . قال : علموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه فقالوا : أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى

---

(١) يقصد حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الصحيح ، وأوله « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مواضع منها (٤ / ٢٩٥)
وأبو داود الطيالسي (صـ ١٠٢) برقم (٧٥٣) .
والحاكم (١ / ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠) .
ورواه غيرهم ، وانظر تخريجه مفصلا في كتاب « أحكام الجنائز » صـ (١٥٦ - ١٥٩) للعلامة الألباني حفظه الله تعالى .

(٢) مرسل ، راجع حديث البراء .

وما نحن بمعذبين ؟ قيل : لا ، قالوا : إن هذا لهو الفوز العظيم .

وكان يزيد الرقاشي يقول في كلامه : أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش ، وأمنوا من الأسقام فهناهم في جوار الله طول المقام ، ثم يبكي حتى تجري دموعه على لحيته[١] .

(١) حادي الأرواح (٣١٩ - ٣٢١) .

خطاب الأنبياء لقومهم

قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٤٢] .

ابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه ، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال : ﴿ **لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً** ﴾ ولم يقل : لا تعبد .

ثم قال : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ [مريم : ٤٣] . فلم يقل له : إنك جاهل لا علم عندك ، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال : (جاءني من العلم ما لم يأتك) ثم قال : ﴿ **فاتبعني أهدك صراطاً سوياً** ﴾ . وهذا مثل قول موسى لفرعون : (وأهديك إلى ربك) [النازعات : ١٩] . ثم قال : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم : ٤٥] . فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه . وقال : (يمسك) فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره ، ثم نكر العذاب ، ثم ذكر الرحمن ولم يقل : الجبار ولا القهار .

فأي خطاب ألطف وألين من هذا . ونظير هذا خطاب صاحب يسٓ لقومه حيث قال : (يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون) [يسٓ : ٢٠،٢١] . ونظير ذلك قول نوح لقومه : (يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) [نوح : ٣،٤] .

وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأممهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين

خطاب وألطفه بل خطاب الله لعباده وألطف خطاب وألينه كقوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) [البقرة : ٢١] . الآيات .

وقوله تعالى : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين يدعون[١] من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) [الحج : ٧٣] . وقوله : (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) [فاطر : ٥] . وتأمل ما في قول الله تعالى ذكره : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) [الكهف : ٥٠] . من اللطف الذي سلب العقول وقوله : (أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين) [الزخرف : ٥] . على أحد التأويلين أي نترككم فلا ننصحكم ولاندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم[٢]

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

وقد فسر الصحابة والتابعون إضاعتها بتفويت وقتها ، والتحقيق أن إضاعتها تتناول تركها وترك وقتها وترك واجباتها وأركانها . وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله ، كمقدمها عن وقتها ، فما بالها تقبل مع تعدي هذا الحد ، ولا تقبل مع تعدي الحد الآخر ؟[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴾ [مريم : ٦١] .

أي موعوده[٤] .

---

(١) قال القرطبي : قرأ العامة « تدعون » بالتاء ، وقرأ السُّلمي وأبو العالية ويعقوب « يدعون » بالياء على الخبر . تفسير القرطبي (٥ / ٤٤٨٩) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) كتاب الصلاة (٧٦) .

(٤) الفوائد المشوق (١٣) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] .

فأخبر أنه لا سمي له ، عقيب قول العارفين به :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۞ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤،٦٥] .

فهذا الرب الذي له هذا الجند العظيم ، ولا ينزلون إلا بأمره ، وهو المالك ما بين أيديهم وما خلفهم ، وما بين ذلك . فهو الذي قد كملت قدرته وسلطانه ، وملكه وكمل علمه ، فلا ينسى شيئاً أبداً ، وهو القائم بتدبير أمر السموات والأرض وما بينهما ، كما هو الخالق لذلك كله ، وهو ربه ومليكه ، فهذا الرب هو الذي لا سمى له ، لتفرده بكمال هذه الصفات والأفعال فأما من لا صفة له ولا فعل ولا حقائق لأسمائه إن هى إلا ألفاظ فارغة من المعاني ، فالعدم سمي له[١] .

قول الله تعالى ذكره :﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٦٩] .

فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضاً ، أي تابعه . ومنه الأشياع أي الأتباع . فالفرق بين الشيعة والأشياع أن الأشياع هم التبع ، والشيعة القوم الذين شايعوا أي تبع بعضهم بعضا، وغالب ما يستعمل في الذم . ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) [الأنعام : ١٥٩] . وقوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل) [سبأ : ٥٤] . وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ١٠٢٨) .

الائتلاف والاجتماع ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم في المعنى .

لننزعن من كل فرقة أشدهم عتوا على الله . وأعظمهم فساداً . فنلقيهم في النار ، وفيه إشارة إلى أن العذاب يتوجه إلى السادات أولا ثم تكون الأتباع تبعا لهم فيه كما كانوا تبعا له في الدنيا .

وأيهم أشد للنحاة فيه أقوال :

أحدها : قول الخليل[1] أنه مبتدأ وأشد خبره ولم يعمل لننزعن فيه لأنه محكي والتقدير الذي يقال فيه : أيهم أشد على الرحمن عتياً وعلى هذا فأي استفهامية .

الثاني : قول يونس : إنه رفع على جهة التعليق للفعل السابق كما لو قلت : علمت أنه أخوك ، فعلق الفعل عن الفعل كما تعلق أفعال القلوب .

الثالث : قول سيبويه[1]: إن أي هنا أي موصولة مبنية على الضم والمسوغ لبنائها حذف صدر صلتها . وعنده أصل الكلام أيهم هو أشد فلما حذف صدر الصلة بنيت على الضم تشبيها لها بالغايات التي قد حذفت مضافاتها ، كـ « قبل » و « بعد » .

وعلى كل واحد من الأقوال إشكالات نذكرها ثم نبين الصحيح إن شاء الله.

فأما قول الخليل فقيل : يلزمه ستة أمور :

أحدها : حذف الموصول .

الثاني : حذف الصلة .

الثالث : حذف العائد لأن تقديره « الذي يقال لهم إنهم أشد » وهذا لا عهد لنا فيه باللغة .

---

(١) راجع « الكتاب » لسيبويه رحمه الله تعالى (٢ / ٣٩٩) .

وأما ما يحذف من القول فإنه إنما يكون قولاً مجردا عن كونه صلة لموصول نحو قوله : (والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) [الأنعام : ٩٣] . أي يقولون أو قائلين . ومثله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر : ٣] .

الرابع : أنه إذا قدر المحذوف هكذا لم يستقم الكلام فإنه يصير (لننزعن من كل شيعة) الذي يقال فيهم (أيهم أشد) وهذا فاسد فإن ذلك المنزوع لا يقال فيه : (أيهم أشد) بل هو نفسه أشد أو من أشد الشيعة على الرحمن فلا يقع عليه الاستفهام بعد نزعه فتأمله .

الخامس : أن الاستفهام لا يقع إلا بعد أفعال العلم والقول على الحكاية ، ولا يقع بعد غيره من الأفعال تقول : علمت أزيد عندك أم عمرو ؟ ولو قلت : ضربت أزيد أم عمرو ؟ لم يجز ، وننزعن ليس من أفعال العلم (فإذا قلت :) ضربت أيهم قام ؟ لم تكن موصولة ، ولا يصح أن يقال : ضربت الذي يقال فيه : أيهم قام ؟ وإنما توهم مثل ذلك لكون اللفظ صالحاً لجهة أخرى مستقيمة فيتوهم متوهم أن حمله على الجهة الأخرى يستقيم .

والذي يدل عليه أنه لو قدرت موضعه استفهاماً صريحا ليس له جهة أخرى لم يجز (فلو قلت :) ضرب أزيد عندك أم عمرو ؟ لم يجز ، بخلاف ضرب أيهم عندك ؟ فلو كان أيهم استفهاماً لجاز الكلام مع الاستفهام الذي بمعناهما وإنما لم يقع الاستفهام إلا بعد أفعال العلم والقول ، أما القول : فلأنه يحكى به كل جملة خبرية كانت أو إنشائية ، وأما أفعال العلم فإنما وقع بعدها الاستفهام لكون الاستفهام مستعلما به فكأنك إذا قلت : أزيد عندك أم عمرو ؟ كان معناه : أعلمني (وإذا قلت :) علمت أزيد عندك أم عمرو ؟ كان معناه علمت ما يطلب استعلامه . فلهذا صح وقوع الاستفهام بعد العلم لأنه استعلام ثم حمل الحسبان والظن عليهما لكونهما من بابه ووجه آخر وهو كثرة استعمال أفعال العلم فجعل لها شأن ليس لغيرها .

السادس : أن هذا الحذف الذي قدره في الآية حذف لا يدل عليه سياق فهو مجهول الوضع ، وكل حذف كان بهذه المنزلة كان تقديره من باب علم الغيب .

وأما قول يونس فإشكاله ظاهر فإن التعليق إنما يكون في أفعال القلوب نحو العلم والظن والحسبان دون غيرها ، ولا يجوز أن تقول : ضربت أيهم قام ؟ على أن تكون أيهم استفهاما وقد علق الفعل عن العمل فيه . وأما قول سيبويه فإشكاله أنه بناء خارج عن النظائر ولم يوجد في اللغة شاهد له .

قال السُهيلي : « ما ذكره سيبويه لو استشهد عليه بشاهد من نظم أو نثر ، أو وجدناه بعده في كلام فصيح شاهداً له لم نعدل به قولاً ، ولا رأينا لغيره عنه طولاً ، ولكنا لم نجد ما بنى لمخالفته غيره ، لاسيما مثل هذه المخالفة ، فإنا لا نسلم أنه حذف من الكلام شيء .

وإن قال : إنه حذف ولابد ، والتقدير : أيهم هو أخوك ؟.

فيقال : لم يبنوا في النكرة فيقولون : مررت برجل أخوك ، أو : رأيت رجلٌ أبوك ؟ - أي هو أخوك وأبوك - ولم خص « أي » بهذا دون سائر الأسماء أن يحذف من صلته ثم يبني للحذف ؟ ومتى وجدنا شيئاً من الجملة يحذف ثم يبنى الموصوف بالجملة من أجل ذلك الحذف ؟ وذلك الحذف لا يجعله متضمناً لمعنى الحرف ولا مضارعا له .

وهذه علة البناء وقد عدمت في أي !

قال : وإنما المختار قول الخليل لكنه يحتاج إلى شرح ، وذلك أنه لم يرد بالحكاية ما يسبق إلى الوهم من تقدير معنى القول ولكنه أراد حكاية لفظ الاستفهام الذي هو أصل في « أي » كما تحكيه بعد العلم إذا قلت : قد علمت من أخوك ؟ وأقام زيد أم قعد ؟ فقد تركت الكلام على حاله قبل دخول الفعل ، لبقاء معنى الاختصاص والتعيين في « أي » الذي كان موجودا فيها وهي استفهام ، لأن ذلك المعنى هو الذي وضعت له ، استفهاماً كانت أو خبرا ، كما حكوا لفظ

النداء في قولهم : « اللهم ، اغفر لي أيها الرجل » و « ارحمنا أيتها العصابة » ، فنحكي لفظ هذا إشعاراً بالتعيين والاختصاص الموجود في حال النداء لوجود معنى الاختصاص والتعيين فيه . قال : وقول يونس : « إن الفعل ملغًى » حق ، وإن لم يكن من أفعال القلب . وعلة إلغائه ما قدمناه من حكاية لفظ الاستفهام للاختصاص . فإذا أتممت الصلة وقلت : ضربت أيّهم أخوك ؟ زالت مضارعة الاستفهام وغلب فيه معنى الخبر لوجود الصلة التامة بعده[1][2].

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] .

تقديره وإن منكم والله إلا واردها .. ولهذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « لن يرد النار إلا تحلة القسم[3] » .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣] .

فالإرسال ها هنا إرسال كوني قدري كإرسال الرياح ، وليس بإرسال ديني شرعي فهو إرسال تسليط بخلاف قوله في المؤمنين : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) [الحجر : ٤٢] فهذا السلطان المنفي عنه على المؤمنين هو الذي أرسل به جنده على الكافرين .

قال أبو إسحاق : ومعنى الإرسال ههنا : التسليط تقول : قد أرسلت فلانا على فلان إذا سلطته عليه كما قال : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين) [الحجر : ٤٢] .

فأعلم أن من اتبعه هو مسلط عليه ، قلت : ويشهد له قوله تعالى : (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) [النحل : ١٠٠] .

---

(١) « نتائج الفكر » للسهيلي صـ(١٩٨ – ١٩٩) وقد وقع بعض التصحيف في المطبوع من « بدائع الفوائد » أتممناه من المصدر المذكور .

(٢) بدائع الفوائد (١ / ١٥٥–١٥٨) .

(٣) الفوائد المشوق (٧٧ و ١١٧) .

وقوله : (تؤزهم أزا) فالأز في اللغة التحريك والتهييج ، ومنه يقال لغليان القدر الأزيز لتحرك الماء عند الغليان ، وفي الحديث « كان لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أزيز كأزيز المرجل من البكاء »[1] وعبارات السلف تدور على هذا المعنى . قال ابن عباس : تغريهم إغراء . وفي رواية أخرى عنه : تسلهم سلا. وفي رواية أخرى: تحرضهم تحريضاً، وفي أخرى: تزعجهم للمعاصي إزعاجاً وفي أخرى: توقدهم إيقاداً أي كما يتحرك الماء بالوقد تحته . قال أبو عبيدة : الأزيز الإلهاب والحركة كالتهاب النار في الحطب، يقول أز قدرك أي ألهب تحتها النار وائتزت القدر إذا اشتد غليانها وهذا اختيار الأخفش ، والتحقيق أن اللفظة تجمع المعنيين جميعاً .

قالت القدرية : معنى أرسلنا الشياطين على الكافرين : خلينا بينهم وبينها ليس معناه التسليط قال أبو علي : الإرسال يستعمل بمعنى التخلية بين المرسل وما يريد فمعنى الآية خلينا بين الشياطين وبين الكافرين ولم يمنعهم منهم ولم يعذهم بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) .

قال الواحدي : وإلى هذا الوجه يذهب القدرية في معنى الآية ، قال : وليس المعنى على ما ذهبوا إليه .

وقال أبو إسحاق : والمختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) [الزخرف : ٣٦] . وقال : (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) [فصلت : ٢٥] . وإنما معنى الإرسال : التسليط[2] .

قلت : وهذا هو المفهوم من معنى الإرسال كما في الحديث : « إذا أرسلت كلبك المعلم »[3] أي سلطته ولو خلي بينه وبين الصيد من غير إرسال منه لم

---

(١) مضى برقم (٢) ص (٦٠) من سورة النحل .

(٢) راجع تفسير الطبري (١٦ / ١٢٥) .

(٣) رواه البخاري (٩ / ٥٢٤) في الذبائح والصيد باب : « من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد .. » . ومسلم (٤ / ٥٩٠) في أول الصيد والذبائح من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، ورواه غيرهما .

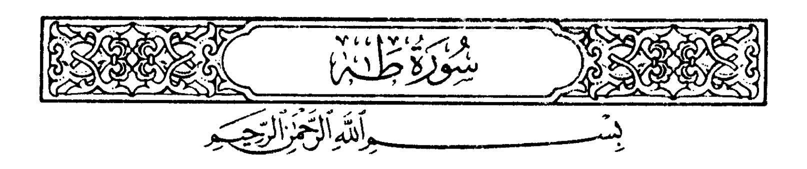
يبح صيده . وكذلك قوله : (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) [الذاريات : ٤١] . أي : سلطناها وسخرناها عليهم وكذلك قوله : (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) [الفيل : ٣] . وكذلك قوله : (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) [القمر : ٣١] . والتخلية بين المرسل وبين ما أرسل عليه من لوازم هذا المعنى ، ولا يتم التسليط إلا به . فإذا أرسل الشيء الذي من طبعه وشأنه أن يفعل فعلا ولم يمنعه من فعله فهذا هو التسليط .

ثم إن القدرية تناقضوا في هذا القول فإنهم إن جوزوا منعهم منهم وعصمتهم وإعادتهم ، فقد نقضوا أصلهم فإن منع المختار من فعله الاختياري مع سلامة النية وصحة بنيته تدل على أن فعله وتركه مقدور للرب وهذا عين قول أهل السنة ، وإن قالوا : لا يقدر على منعهم وعصمهم منهم وإعادتهم فقد جعلوا قدرتهم ومشيئتهم بفعل ما لا يقدر الرب على المنع منه وهذا أبطل الباطل . ثم قالت القدرية : تؤزهم أزا تأمرهم بالمعاصى أمرا وحكوا ذلك عن الضحاك ، وهذا لا يلتفت إليه إذ لا يقال لمن أمر غيره بشيء قد أزه ولا تساعد اللغة على ذلك . ولو كان ذلك صحيحا لكان يؤز المؤمنين أيضا فإنه يأمرهم بالمعاصي أكثر من أمر الكافرين ، فإن الكافر سريع الطاعة والقبول من الشيطان فلا يحتاج من أمره ما يحتاج إليه من أمر المؤمنين . بل يأمر الكافر مرة ويأمر المؤمن مرات فلو كان الأز الأمر لم يكن له اختصاص بالكافرين[1] .

* * *

(١) شفاء العليل (٦٢-٦٣) .

سُورَةُ طه



قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه : ١٤] .

قيل : المصدر مضاف إلى الفاعل ، أي لأذكرك بها .

وقيل : مضاف إلى المذكور ، أي لتذكروني بها ، واللام على هذا لام التعليل .

وقيل : هي اللام الوقتية ، أي أقم الصلاة عند ذكري كقوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس) [الإسراء : ٧٨] . وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) [الأنبياء : ٤٧] . وهذا المعنى يراد بالآية ، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر ، لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف ، والذكر : مصدر ، إلا أن يقدر زمان محذوف ، أي عند وقت ذكري ، وهذا محتمل .

والأظهر : أنها لام التعليل ، أي أقم الصلاة لأجل ذكري ، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره ، وإذا ذكر العبد ربه ، فذكر الله سابق على ذكره ، فإنه لما ذكره أهمه ذكره ، فالمعاني الثلاثة حق[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ ﴾ [طه : ٤٠] .

وأما الفُتون فهو مصدر فَتَنه يفتنه فتوناً ، أي امتحانك واختبرناك[2] .

قول الله تعالى ذكره لموسى : ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه : ٤١] .

---

(١) الوابل الصيب (٩٤) – دار البيان .

(٢) روضة المحبين (٥٠) .

والاصطناع في الأصل : اتخاذ الصنيعة . وهي الخير تُسديه إلى غيرك . قال الشاعر :

وإذا اصطنعت صنيعة، فاقصد بها　　　وجه الذي يولي الصنائع أودع

قال ابن عباس : اصطنعتك لوحيي ورسالتي .

وقال الكلبي : اخترتك بالرسالة لنفسي ، لكي تحبني وتقوم بأمري .

وقيل : اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي ، فتكلم عبادي عنى .

قال أبو إسحاق : اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي وجعلتك بيني وبين خلقي ، حتى صرت في الخطاب والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون أنا بها لو خاطبتهم .

وقيل : مثَّل حاله بحال من يراه بعض الملوك – لجوامع خصال فيه وخصائص – أهلاً لكرامته وتقريبه ، فلا يكون أحد أقرب منه منزلة إليه . ولا ألطف محلاً . فيصطنعه بالكرامة والأثرة ، ويستخلصه لنفسه ، بحيث يسمع به ، ويبصر به . ويطلع على سره[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] .

ومعناه لعله يتذكر سترنا له وإنعامنا عليه في أمر النيل إذ تضرع إلينا فأجرينا له النيل لما التمس قومه منه إجراء النيل أو يخشى انتقامنا منه في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار والحرق ... والفرق بين الاقتضاء والتذكير أن التقاضي لاستبعاد حصول المطلوب لطول مدة انتظار المرغوب . والتذكار إنما يكون عن غفلة أو نسيان كقول بعضهم :

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٩٦-٢٩٧) .

جئت لـلأذكار مستحـرضا لا لتقـاضيك وحُوشيتــا
ولستَ بالمهمــل لــكنما لـكثرة الأشغـال أنسيتـا[(١)]

وقال رحمه الله تعالى :

ويحقق ذلك أن الكلام المنفّر لا يتوقع منه إجابة ولا إنابة والكلام اللين المرغب يتوقع كل من سمعه الإجابة والإنابة فلذلك قيل لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ لما كان القول اللين سبباً للتذكر والخشية أمرهما به لتقوم عليه الحجة فهذا الرجاء المتعلق بكلامه[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٧-٤٨] .

أما قول موسى : ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدىء به فرعون ، بل هو خبر محض فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه فإن قال له : ﴿ **فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ . أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى .

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام ، والله أعلم .

وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته ، كيف ابتدأ الخطاب بقوله : (إنا رسولا ربك) [طه : ٤٧] . وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك

(١) الفوائد المشوق (٢٠١) .
(٢) الفوائد المشوق (٤٢) .

لننازعك ملكك ولا لنشركك فيه ، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك ، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه : « أنا رسول مولاك إليك وأستاذك » وإن كان أستاذهما معاً ولكن ينبه بإضافته إليه على السمع والطاعة له ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططا و لم يرهقه من أمره عسراً بل طلب منه غاية النصف .

ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة اختبارات :

أحدها : قوله تعالى : (قد جئناك بآية من ربك) فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة ، فقد قامت الحجة ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان : إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى ، (والسلام على من اتبع الهدى) وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى ، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب[1] .

قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩، ٥٠] .

قال مجاهد : أعطى كل شيء خلقه ، لم يعط الإنسان خلق البهائم ، ولا البهائم خلق الإنسان .

وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى .

قال عطية ، ومقاتل : أعطى كل شيء صورته .

وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شيء صلاحه .

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٦٩ - ١٧٠) .

والمعنى : أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه . هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين ، فيكون نظير قوله : (قدر فهدى) [الأعلى : ٣] .

وقال الكلبي والسدي : أعطى الرجل المرأة ، والبعير الناقة ، والذكر الأنثى من جنسه ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع[١] .

وهذا القول اختيار ابن قتيبة[٢] والفراء .

قال الفراء : أعطى الذكر من الناس امرأة مثله ، والشاة شاة والثور بقرة ثم ألهم الذكر كيف يأتيها .

قال أبو إسحاق : وهذا التفسير جائز ، لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله فألهمه الله ذلك وهداه إليه قال : والقول الأول ينتظم هذا المعنى لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة .

قلت : أرباب هذا القول هضموا الآية معناها فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه .

وقوله (أعطى كل شيء) يأبى هذا التفسير فإن حمل « كل شيء » على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له ، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن مما لم يتزوج من بني آدم ، ومن لم يسافد من الحيوان ، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقا له ، وأين نظير هذا في القرآن ، وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه ، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) فحمل قوله : ﴿ **أعطى كل شيء خلقه** ﴾ على هذا المعنى غير صحيح فتأمله .

---

(١) تفسير الطبري (١٦ / ١٧٢) .

(٢) تفسير غريب القرآن (٢٧٩) .

ومشكل القرآن (٤٤٤) . وكلاهما لابن قتيبة .

وفي الآية قول آخر ، قاله الضحاك ، قال : أعطى كل شيء خلقه أعطى اليد البطش ، والرجل المشي ، واللسان النطق ، والعين البصر والأذن السمع .

ومعنى هذا القول : أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له ، والخلق على هذا بمعنى المفعول ، أي : أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله ، أودعها الأعضاء ، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم .

والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به ثم هداه لما خلق له ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره .

فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته ، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله « فرعون » .

ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد . فقال : ﴿ **فما بال القرون الأولى** ﴾ [طه : ٥١] . أي فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان .

والمعنى : لو كان ما تقوله حقاً لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين وهذا شأن كل مبطل ، ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم[١] .

---

(١) رحم الله ابن القيم ، فهو أباح عن مكنون صدورنا تجاه هؤلاء السائرين على ضرب سابقيهم في الصد عن دين الله تعالى ورميه بأنواع التهم وأشنع الأوصاف ، مع رفع وتعظيم قوانين وعادات الكفار ، حتى المحرم منها ، يتهمون المسلمين بالتخلف لمجرد تحريمهم له كتحريم التبرج مثلًا ، سواءً كان في محافل العلم أو في أجهزة الإعلام أو الرياضة إلخ فيكيلون – بالظلم – ألوان الاتهامات وهم أولى بها وأهلها ، ولنا قول الله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ [الأنعام :٧١] . وقد رضينا بهذا الهدى وهذا التسليم والحمد لله دائما وأبدًا – ونسأله الثبات على طاعته .

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال : ﴿ **علمها عند ربي** ﴾ [طه : ٥٢] . أي أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال ، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى ، وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال .

وقال الكلبي : يعني به اللوح المحفوظ ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق ، والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها فيكون هذا من تمام قوله : (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فتأمله[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه : ٦١] .

أخبر سبحانه أنه لابد أن ينال المفترين غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وأعظم الافتراء الفرية عليه سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وقد ضمن سبحانه أنه لابد أن يخيب أهل الافتراء ولا يهديهم ، وأنه يسحتهم بعذابه أي يستأصلهم . قال تعالى إخباراً عن كليمه موسى أنه قال لرؤوس المعطلة وأئمتهم : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾ [طه : ٦١][2] .

قوله عز وجل : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٧،٦٨] .

فتوكيد الضمير ها هنا في قوله : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ نفى الخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه الغلبة والقهر ، ولو قال : لا تخف إنك الأعلى أو – وأنت الأعلى – لم يكن في التأكيد لنفي الخوف من قلب موسى كما له من القوة في تقرير الغلبة ونفي الخوف بقوله – إنك أنت الأعلى – وذلك

---

(١) شفاء العليل (٧٨ – ٧٩) .

(٢) الصواعق المرسلة (٤ – ١٢١٢) .

لأن في هذه الثلاث كلمات – وهو قوله تعالى : (إنك أنت الأعلى) – ست فوائد :

الأولى : « إنَّ » المشددة التي من شأنها التأكيد لما يأتي بعدها كقولك : زيد قائم ثم تقول إن زيداً قائم ، ففي قولك : إن زيداً قائم من الإثبات لقيام زيد والتقرير له ما ليس في قولك « زيد قائم » .

الثانية : تكرير الضمير في قوله تعالى : ﴿ **إنك أنت** ﴾ ولو قال : فأنت الأعلى لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى والإثبات لقهره ..

الثالثة : لام التعريف في قوله « الأعلى » فلو قال : أنك أنت أعلى فنكره وكان صالحاً لكل واحد من جنسه كقولك : رجل فإنه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال ، وإذا قلت : الرجل فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف وجعلته علَماً فيهم . وكذلك قوله : (إنك أنت الأعلى) أي أنت الأعلى دون غيرك .

الرابعة : لفظ أفعل الذي هو من شأنه التفضيل ولم يقل : العالي .

الخامسة : إثبات الغلبة من عال .

السادسة : الاستئناف في قوله : (إنك أنت الأعلى) ولم يقل : لأنك أنت الأعلى ، لأنه لم يجعل علة انتفاء الخوف عنه لأنه عال ، وإنما نفى الخوف عنه أولاً بقوله : (لا تخف) ثم استأنف الكلام بقوله : (إنك أنت الأعلى) فكان ذلك أبلغ في تقرير الغلبة لموسى عليه الصلاة والسلام وإثبات ذلك في قلبه ونفسه .

فهذه ست فوائد في هذه الكلمات الثلاث . فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة التي تحيّر العقول وتذهب الألباب ومعجز هذا الكلام العزيز الذي أعجز البلغاء وأفحم الفصحاء ورجّل فرسان الكلام .

فإن قيل : لو كان توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما لورد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه في كتابه حيث هو أحق بما هو أبلغ من الكلام وقد رأينا في الكتاب العزيز مواضع تختص بذكر الله تعالى وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر كقوله تعالى : (قل اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) [آل عمران : ٢٦] .

فما الموجب لذلك إن كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الاقتصار على أحدهما دون الآخر ، فقد كان يجب عند ذكر الله تعالى نفسه لأنه أحق بالأبلغ من العلاء ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك ، فكيف قلنا : إن توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ ؟

الجواب عن ذلك : إنا نقول توكيد المتصل بالمنفصل إنما يرد في الكلام لتقرير المعنى وإثباته في الذهن وما يختص بالله تعالى لا يفتقر إلى تقرير ولا إثبات لأنه إذا قيل عنه إنه على كل شيء قدير لم يحتج في ذلك إلى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير ، بل علم وعرف أنه على كل شيء قدير وأن قدرته جارية على كل مخلوق : فصار هذا من الأمر المعروف الذي لا يعتريه شك ولا يعترضه ريب ، وما هذا سبيله في الوضوح والبيان فلا حاجة فيه إلى التوكيد إذ كان التوكيد من شأنه التقرير للمعنى المراد إثباته في النفس وكون الله سبحانه على كل شيء قدير ثابت في النفوس فلم يحتج إلى تقرير وإثبات .

فإن قيل : فقد ورد في القرآن العزيز عند ذكر الله تعالى نفسه التأكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصل كقوله تعالى : (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) إلى قوله : (إنك أنت علام الغيوب ﴾ [المائدة : ١١٦] . كما أنك على كل شيء قدير ، فما السبب في هذا وهلا كان الجميع شرعاً واحداً ؟.

فالجواب على ذلك : أنا نقول : توكيد الضميرين أحدهما بالآخر في هذه الآية لا ينقض علينا ما أشرنا إليه أولاً لأنه إن وقع الاقتصار على أحدهما دون

الآخر ، فإن القول في ذلك ما تقدم في الآية الأولى ، وإن جيء بهما معاً فإن ذلك أبلغ في بابه وآكد والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد .

ولنمثل لك في استعمال الضميرين معاً والاقتصار على أحدهما دون الآخر مثالاً تتبعه فنقول : إذا كان المعنى المقصود أمراً معلوماً قد ثبت في النفس ورسخ في الألباب فأنت بالخيار بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر ، لأنك إن وكدت الكلام فيه أعطيت المعنى حقه وإن لم توكد فإنه لا يحتاج إلى تأكيد لبيانه وظهوره فإن كان المعنى المقصود خفيا ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى توكيد أحد الضميرين بالآخر لتقرره وتكسبه وضوحاً وبياناً ، ألا ترى إلى قوله لموسى عليه السلام : (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) فإنه كان ظهور موسى عليه السلام على السحرة وقهره لهم أمراً مستقراً في ضمن الغيب لا يعلم ولا يعرف ، وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك ليذهب عنه الخوف والحذر بالأبلغ من الكلام ليكون ذلك أثبت في نفس موسى وأقوى دليلاً عنده في انتفاء الخوف عنه ، فوكد الضمير المتصل بالمنفصل فجاء المعنى كما ترى ، ولو لم يؤكد كان ذلك أيضاً إخباراً لموسى عليه الصلاة والسلام بنفي الخوف عنه واستظهاره على السحرة ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى عليه الصلاة والسلام ما لقوله : إنك أنت الأعلى فاعرف[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ هاهنا دقائق :

أحدها : الإتيان بلفظة « إنَّ » المشددة لتفيد تأكيد ثبوت ما بعدها .

وثانيها : تكرير الضمير يدل على تأكيد ما يتعلق به .

وثالثها : ذكر « الأعلى » معرّفاً يدل على أن غيره لا يكون كذلك بخلاف عالي وأعلى .

(١) الفوائد المشوق (٢٠٤ - ٢٠٦) .

ورابعها : أن « الأعلى » بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو .

وخامسها : حذف لام العلة يفيد زيادة علة لعدم الخوف لأن قوله (لا تخف) علة لعدم الخوف لأنه نهي عنه واشتقاقه بعد ذلك بقوله (إنك أنت الأعلى) منع أيضاً من الخوف لأن الأعلى لا يخاف الأدنى[(١)] .

وبهذه الطريقة[(٢)] أخذ إمام المعطلة فرعون قومه حين قال للسحرة لما ظهرت حجة موسى عليه وصحت دعوته وصحت نبوته ، وألقي السحرة ساجدين إيمانا بالله ، وتصديقا برسوله .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه : ٧١] .

ولما تمكن الإيمان من قلوبهم علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء ، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء[(٣)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] .

فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم ، وعدم ملك الضر والنفع (دليل على عدم الإلهية ، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لابد أن يُكلم ويتكلم ويملك لعابده الضر والنفع) وإلا لم يكن إلهاً[(٤)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... ﴾

---

(١) الفوائد المشوق (١٨٥) .

(٢) أي طريقة النفاة مع أهل الإثبات ، وهي طريقة « الترغيب والترهيب والإيذاء » بعد هزيمتهم في ميدان الحجة والبرهان . وهذا دأب أهل البدع - في كل زمان ومكان - مع مخالفيهم .

(٣) الصواعق المرسلة (٤ / ١٣٨٩) .

(٤) الصواعق المرسلة (٣ / ٩١٥) .

[طه : ٨٦] . إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ.. ﴾ [طه : ٩٧] .

ومن تلاعبه بهم[1] عبادتهم الْعجل من دون الله تعالى ، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة ، والأخذة الرَّابيَة ، ونبيُّهم حَيٌّ لم يمت .

هذا . وقد شاهدوا صانِعه يَصْنَعه[2] ويَصُوغُه ، ويَصليه النار ، ويَدُقُّه بالمطرقة . ويَسْطُو عليه بالمبرد ، ويُقَلِّبه بيديه ظهراً لبطن .

ومن عجيب أمرهم : أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم ، حتى جعلوه إله موسى . فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى ، بل عبادة أبلد الحيوانات ، وأقلها دَفعاً عن نفسه ، بحيث يضربُ به المثَلُ في البلادة والذُّل . فجعلوه إله كليم الرحمٰن .

ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى عليه السلام ضالاً مخطئاً ، فقالوا : (فنسي) [طه : ٨٨] .

قال ابن عباس : أي ضَلَّ وأخطأ الطريق .

وفي رواية عنه : أي إن موسى ذهب يطلب ربه فَضَلَّ و لم يعلم مكانه .

وعنه أيضاً : نسي أن يذكر لكم أن هذا إله وإلٰهكم .

وقال السُّدي : أي ترك موسى إلٰهه هٰهنا وذهب يطلبه .

وقال قتادة : أي إن موسى إنما يطلب هذا ، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر .

هذا هو القول المشهور : أن قوله (فنسي) من كلام السامِرِيِّ وعُبَّاد العجل معه .

(١) يقصد « اليهود » عليهم من الله اللعنات .

(٢) يعني « العجل » .

وعن ابن عباس رواية أخرى : أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري : أنه نسي ، أي ترك ما كان عليه من الإيمان .

والصحيح : القول الأول . والسياق يدل عليه ، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره ، فقال : « [فنسى موساهم] » يقولونه : أخطأ الرب »[١] .

فإنه لما جعله إلـٰه موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه ، فيقولون له : إذا كان هذا إله موسى ، فلأيِّ شيء ذهب عنه لموعد إلهٰه ؟ فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله « فنسي » وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم .

فانظر إلى هؤلاء ، كيف اتخذوا إلـٰهاً مصنوعاً من جوهر أرضي ، إنما يكون تحت التراب ، محتاجاً إلى سبك بالنار ، وتصفية وتخليص لخبثه منه . مدقوقاً بمطارق الحديد ، مقلباً في النار مرة ، بعد مَرَّة ، قد نحت بالمبارد ، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل . والضَّيْم ، وجعلوه إلـٰه موسى . ونسبوه إلى الضلال ، حيث ذهب يطلب إلهاً غيره .

قال محمد بن جرير[٢] : وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم ، قال : حدثني إبراهيم بن بشار الرَّمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عِكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما هجم فرعون على البحر ، هو وأصحابه ، وكان فرعون على فرس أدهم فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر ، فمثل له جبريل على فرس أنثى فلما رآها الحصان تقحم خلفها ، قال : وعرف السامريُّ جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه قال : فأخذ قبضة من تحت الحافر .

---

(١) انظر فتح الباري (٤٨٧/٦) في الأنبياء، باب: قول الله عز وجل: ﴿ وهل أتاك حديث موسى ... ﴾.
وإلى هذا ذهب الطبري أيضاً (١٦ / ٢٠١) في تفسيره .

(٢) تفسير الطبري (١ / ٢٨١) ، وقد اختصر ابن القيم بعض عباراته .

قال سفيان : وكان ابن مسعود يقرؤها : (فَقَبَضْتُ قبضة مِنْ أَثرِ فَرسِ الرَّسُولِ)[(١)] .

قال أبو سعيد : قال عكرمة : عن ابن عباس : وأُلقي في رُوع السامري : إنك لا تلقيها على شيء ، فتقول : كن كذا وكذا إلا كان ، فلم تزل القبضةُ معه في يده ، حتى جاوز البحر ، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر ، وأغرق الله آل فرعون . قال موسى لأخيه هٰرون : اخلفني في قومي وأصلح ، ومضى موسى لموعد ربه . قال : وكان مع بنى إسرائيل حلي من حلي آل فرعون ، قد استعاروه فكأنهم تأثّموا منه ، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله . فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا ، فقذفها فيه وقال : كن عجلاً جسداً له خوار ، فصار عجلاً جسداً له خوار ، فكان يدخل الريح من دبره ويخرجه من فيه يسمع له صوت : (فقال هذا إلٰهكم وإلٰه موسى) [طه : ٨٨] . فعكفوا على العجل يعبدونه فقال هٰرون : ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني وأطيعوا أمري** ﴾ [طه : ٩٠] . ﴿ **قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ [طه : ٩١] .

وقال السدي : لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا ، وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط ، فلما نجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر ، وأغرق آل فرعون ، أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله ، فأقبل على فرس . فرآه السامري ، فأنكره . ويقال : إنه فرس الحياة .

فقال حين رآه : إن لهذا لشأناً ، فأخذ من تربة حافر الفرس . فانطلق موسى عليه السلام ، واستخلف هارون على بني إسرائيل ، وواعدهم ثلاثين ليلة . فأتمها الله تعالى بعشر . فقال لهم هرون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم ،

(١) قال ابن كثير « ... أي من أثر فرسه ، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم » . تفسير ابن كثير (٣ / ١٧٣) .

وما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه فهو من باب : القراءة التفسيرية . والله أعلم .

وإن حلي القبط إنما هو غنيمة . فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حفرة . فادفنوها ، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة ، وجاء السامري بتلك القبضة ، فقذفها ، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار . فلما رأوه قال لهم السامري : (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) يقول : ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه ، فعكفوا عليه يعبدونه ، وكان يخور ويمشي ، فقال لهم هٰرون : يا بني إسرائيل ، (إنما فتنتم به) ، يقول : إنما ابتليتم بالعجل : (وإن ربكم الرحمٰن) . فأقام هٰرون ومن معه من بني إسرائيل ، لا يقاتلونهم . وانطلق موسى إلى الله يكلمه فلما كلمه قال له : ﴿ **ما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري** ﴾ [طه : ٨٣-٨٥] . فأخبره خبرهم .

قال موسى : يارب هذا السامريُّ أمرهم أن يتخذوا العجل . فالروحُ مَنْ نفخها فيه ؟ قال الرب تعالى : أنا ، قال : يارب أنت إذاً أضللتهم .

وقال ابن إسحاق : عن حكيم بن جُبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان السامري (من أهل باجِرما) وكان من قوم يعبدون البقر ، فكان يحب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل ، فلما ذهب موسى إلى ربه قال لهم هارون: أنتم قد حملتم أوزاراً من زينة القوم – آل فرعون – وأمتعةً وحليًّا ، فتطهروا منها ، فإنها نَجَس وأوقد لهم ناراً .

فقال : اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها ، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي ، فيقذفون به فيها ، حتى إذا انكسر الحليُّ فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل ، فأخذ تراباً من أثر حافره ، ثم أقبل إلى النار ، فقال لهٰرون : يانبي الله ، ألقي ما في يدي ؟ ولايظن هٰرون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة ، فقذفه فيها فقال : كن عجلاً جسداً له خوار ، فكان البلاء والفتنة . فقال : هذا إلٰهكم وإلٰه موسى ، فعكفوا عليه ، وأحبوه حباً لم يحبوا مثله شيئاً قط . يقول الله عز وجل : (فَنَسِيَ) أي ترك ما كان عليه من الإسلام ، يعني السامريَّ : ﴿ **أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم**

ضراً ولا نفعاً﴾ [طه: ٨٩].

فلما رأى هٰرون ماوقعوا فيه قال : ﴿ **يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** ﴾ [طه : ٩٠-٩١] . فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن ، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوَّف هٰرون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى : ﴿ **فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾ [طه : ٩٤] . وكان له هائباً مطيعاً قال تعالى مذكراً لبني إسرائيل بهذه القصة التي جرت لأسلافهم مع نبيهم : (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده) [البقرة : ٥١] . يعني من بعد ذهابه إلى ربه . وليس المراد من بعد موته (وأنتم ظالمون) أي بعبادة غير الله تعالى . لأن الشرك أظلم الظلم . لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها .

فلما قدم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه ، وألقى الألواح عن رأسه ، وفيها كلام الله الذي كتبه له ، وأخذ برأس أخيه ولحيته ، ولم يعتب الله عليه في ذلك ، لأنه حمله عليه الغضب لله . وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه ، ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر فإنه ليس الخبر كالمعاينة[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طه : ١٠٨] .

أي : يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه . قال الفراء : وهذا كما تقول : دعوتك دعوة لا عوج لك عنها . وقال الزجاج : المعنى : لا عوج لهم عن دعائه ، أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده فإن قلت : إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي ، فكيف قاله : (لا عوج له) قيل : قالت طائفة : اللام بمعنى عن ، أي لا عوج عنه ، وقالت طائفة : المعنى لا عوج لهم عن دعائي ، كما قال الزجاج .

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ٣٠٠ - ٣٠٥) .

وفي القولين تكلف ظاهر . ولما كانت الدعوة تسمع الجميع لا تعوج عنهم ، وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه ، كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما .

والمعنى : لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه ، ولا في إجابتهم له[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به)[٢]، فقيل : هو الله سبحانه ، أي : ولا يحيطون بالله علماً .

وقيل : هو ما بين أيديهم وما خلفهم .

فعلى الأول : يرجع إلى العالم ، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم . وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم ، فأن لا يحيطوا علماً به – سبحانه – أولى[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه : ١١٢] .

يعني لا يُحمل عليه من سيئات ما لم يعمله ، ولا ينقص من حسنات ما عمل . ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده : لم يكن لعدم الخوف منه معنى ، ولا للأمن من وقوعه فائدة[٤][٥] .

قول الله تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزمًا** .. ﴾ [طه : ١١٥] . تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم .

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٠١) .
(٢) انظر تفسير الطبري (١٦ / ٢١٥) .
(٣) الصواعق المرسلة (١٣٧٢) .
(٤) في الرد على منكري الحكم والتعليل والأسباب .
(٥) مدارج السالكين (١ /٢٣٦) .

فقال : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ..** ﴾ الآية والنسيان ، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بها هاهنا فهو أمر عدمي[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١١٧] .

كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذَّكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش والمرأة في خدرها[١] .

قول الله تعالى ذكره لآدم :﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٨، ١١٩] .

فقابل بين الجوع والعري دون الجوع والظمأ ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع ، فإن الجوع عري الباطن وذله ، والعري جوع الظاهر وذله .

فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره ، والظمأ حر الباطن ، والضحى حر الظاهر فقابل بينهما[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

تأمل كيف قابل الجوع بالعري ، والظمأ بالضحى .

والواقف مع القالب ربما يخيل إليه: أن الجوع يقابل بالظمأ، والعري بالضحى .

والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلا الفصاحة والجلالة ، لأن الجوع ألم الباطن ، والعري ألم الظاهر ، فهما متناسبان في المعنى ، وكذلك الظمأ مع الضحى ، لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن ، والضحى موجب لحرارة الظاهر فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

الذي يقتضيه المعنى المناسب ظاهراً أن يقول إن لك أن لا تجوع فيها ولا

---

(١) طريق الهجرتين (١٠٠) .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٢٩) .

(٢) روضة المحبين (٢٢٦) .

(٣) بدائع الفوائد (٣ / ٢٤٠) .

تظمأ وإنك لا تعرى فيها ولا تضحى . وأما آدم عليه السلام فقد تقدم في المناسبة أنها تارة يُقصد فيها مناسبة اللفظ والمعنى وتارة يراعى فيها مناسبة اللفظ فقط ، وتارة يراعى فيها مناسبة المعنى وهذه الآية منه وهو الذي أريد لأن « الجوع » خلو الباطن عن الغذاء « والتعري » خلو الظاهر عن الثياب « والظمأ » احتراق الباطن بالحرارة «والضحى» احتراق الظاهر فظهرت المناسبة من حيث المعنى فيها[١].

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

فذكره : كلامه الذي أنزله على رسوله ، والإعراض عنه : ترك تدبره والعمل به .

والمعيشة الضنك ، فأكثر ما جاء في التفسير : أنها عذاب القبر ، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس ، وفيه حديث مرفوع[٢] .

وأصل الضنك في اللغة[٣] : الضيق والشدة ، وكل ما ضاق فهو ضنك ، يقال : منزل ضنك وعيش ضنك ، فهذه المعيشة الضنك ، في مقابلة التوسيع

---

(١) الفوائد المشوق (١٧٥– ١٧٦) .

(٢) روى الطبري (١٦ / ٢٢٨) بسنده عن ابن حجيرة عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ ... عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده ، إنه يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً .. » فذكر حديثاً قال عنه ابن كثير بعد أن ذكر أن ابن حاتم رواه أيضاً : « رفعه منكر جداً » تفسير ابن كثير (٣ / ١٧٨) .
ورواه البزار باختصار يسير (٣ / ٥٨ – ٥٩) .
وقال الهيثمي « فيه من لم أعرفه » مجمع الزوائد (٧ / ٦٧) .
وأشار محقق « كشف الأستار » بعد ذكره لقول الهيثمي السابق : « كأنه يعني أبا حجيرة » قلت :– والله أعلم – أن هذا وهم فإني لم أجد فيما بين يدي من مصادر من الرواة عن أبي هريرة من اسمه « أبو حجيرة » وهو ثقة وإنما هو « ابن حجيرة » واسمه « عبد الرحمن » .
كما في التهذيب (٦ / ١٦٠) وأشار إلى رواية مسلم والأربعة عنه .

(٣) لسان العرب (٥ / ٢٦١٣) مادة « ضنك » .

على النفس والبدن ، بالشهوات واللذات والراحة . فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكاً ، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح . فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة ، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة . فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما ، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن ، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون ، والله المستعان[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن ، وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية وقوله : (ومن أعرض عن ذكري) . يتناول الذكر الذي أنزله ، وهو الهدى الذي جاءت به الرسل ، ويدل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : ﴿ **وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] . فهذا هو الإعراض عن ذكره ، فإذا كان هذا حال المعرض عنه ، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده ، وأحسن الظن به فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا مَن قَبِلهُ وانقاد له فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وفسرت المعيشة الضنك : بعذاب القبر .

والصحيح : أنها في الدنيا ، وفي البرزخ . فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله ، فله من ضيق الصدر ، ونكد العيش ، وكثرة الخوف ، وشدة الحرص والتعب على الدنيا ، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها ، والآلام التي في خلال ذلك – ما لا يشعر به القلب ، لسكرته ، وانغماسه في السكر .

---

(١) الفوائد (١٦٥) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٤٥ – ٨٤٦) .

فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم ، فبادر إلى إزالته بسكر ثان ، فهو هكذا مدة حياته .

وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور ؟ .

فقلوب أهل البدع ، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي: في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر: (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) [الانفطار : ١٣،١٤]. هذا في دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكمال ظهوره : إنما هو في الدار الآخرة ، وفي البرزخ دون ذلك ، كما قال تعالى : (وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك) [الطور : ٤٧] .

وقال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) [النمل : ٧١،٧٢] .

وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ، ولكن يمنع من الإحساس به : الاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب ، وعدم التفكر فيه[1] .

وقال أيضاً : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ؛ فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم . ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات ،

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٢٢-٤٢٣) .

فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده . ولا تقر العين . ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق . وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحا[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذي أنزلته ، فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل ، كقيامي وقراءاتي ، لا إلى المفعول ، وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرني ، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره .

وأحسن من هذا الوجه : أن يقال : الذكر ههنا مضاف إضافة الأسماء ، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها .

والمعنى : ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه .

فإن القرآن يسمى ذكرا ، قال تعالى : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) [الأنبياء : ٥٠] . وقال تعالى : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) [آل عمران : ٥٨] . وقال تعالى : (وما هو إلا ذكر للعالمين) [القلم : ٥٢] . وقال تعالى : (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز) [فصلت : ٤١] . وقال تعالى : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب) [يس : ١١] .

وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله .

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٧٦ - ١٧٧) .

ونظيره في إضافة اسم الفاعل : (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) [غافر : ٢] . فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد ، وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم ، وكذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) [غافر : ١-٣] .

فصـــل

قوله تعالى : (فإن له معيشة ضنكا) [طه : ١٢٤] . فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر ، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر ، ولهذا قال : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ . أي تترك في العذاب ، كما تركت العمل بآياتنا . فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار .

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) [غافر : ٤٦] . فهذا في البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) [غافر : ٤٦] . فهذا في القيامة الكبرى .

ونظيره قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) [الأنعام : ٩٣] . فقول الملائكة : (اليوم تجزون عذاب الهون) المراد به : عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت .

ونظيره قوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) [الأنفال : ٥١] . فهذه الإذاقة هي في البرزخ .

وأولها حين الوفاة فإنه معطوف على قوله : (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه ، كنظائره .

وكلاهما واقع وقت الوفاة وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) [إبراهيم : ٢٧] . قال : « نزلت في عذاب القبر » والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر .

والمقصود : أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره – وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى – فإن له معيشة ضنكا . وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة ، ويجزيه أجره في الآخرة ، فقال تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [النحل : ٩٧] .

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علما وعملا في العاجلة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة .

وقال سبحانه : (ومن يَعْش عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) [الزخرف : ٣٦،٣٧] . فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد ، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه ، وعاين هلاكه وإفلاسه قال : (ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) [الزخرف : ٣٨] .

وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر في ضلاله إذ كان يحسب أنه على هدى ؟ كما

قال تعالى : (ويحسبون أنهم مهتدون) [الأعراف : ٣٠][(١)] .

قيل : لا عذر لهذا وأمثاله من الضُّلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى . فإذا ضل فإنما أُتي من تفريطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها . فذاك له حكم آخر . والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول .

وأما الثاني : فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه ، كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [الإسراء : ١٥] . وقال تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء : ١٦٥] . وقال تعالى في أهل النار : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) [الزخرف :٧٦]. وقال تعالى: (أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كَرَّة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) [الزمر : ٥٦-٥٩] . وهذا كثير في القرآن .

فصـــل

وقول الله تعالى ذكره : ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا** ﴾ [طه : ١٢٤] . اختلف فيه : هل هو من عمى

(١) قال كثير من المفسرين في قوله تعالى : [الأعراف : ٣٠] ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ تعليل لقوله ﴿ وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ أي ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين في معصية الله ، ومع هذا ﴿ يحسبون أنهم مهتدون ﴾ مع عدم اعترافهم بالضلالة ، وهذا بيان شدة تمردهم وعنادهم والله أعلم .
انظر تفسير الطبري (٨ / ١٥٩) .
وابن كثير (٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦) .
وفتح القدير (٢ / ١٩٩) .
وحاشية الشيخ زادة على البيضاوي (٢ / ٢٣٦) .

البصيرة ، أو من عمى البصر ؟[1] .

والذين قالوا : هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) [مريم : ٣٨] . وقوله : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) [ق : ٢٢] . وقوله : (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) [الفرقان : ٢٢] . وقوله (لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) [التكاثر : ٦،٧] . ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة . كقوله تعالى : (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي) [الشورى : ٤٥] . وقوله : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعًّا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) [الطور : ١٣،١٤] . وقوله : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) [الكهف : ٥٣] .

والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا : السياق لا يدل إلا عليه . لقوله : ﴿ **قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا** ﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق ، فكيف يقول : وقد كنت بصيرا ؟ وكيف يجاب بقوله : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٥] . بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر ، وأنه جوزي من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته : أعمى الله بصره يوم القيامة . وتركه في العذاب ، كما ترك الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره تركه في العذاب . وقال تعالى : (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُميا وبُكماً وصُماً) [الإسراء : ٩٧] .

وقد قيل في هذه الآية أيضا : إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى ، كما قيل في قوله : (ونحشره يوم القيامة أعمى) قالوا : لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون

(١) انظر الطبري (١٦ / ٢٢٩ - ٢٣٠) .

ويبصرون[1] .

ومن نصر أنه العمى والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق . قال بعضهم : هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق . فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه .

ولهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لا يرون شيئاً يسرهم » .

وقال آخرون : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروي عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى : (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) [المؤمنون : ١٠٨] . فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم ، فيصيرون بأجمعهم عمياً بكما صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا : المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم : أنهم لا حجة لهم ، ولم يريدوا أن لهم حجتهم عُمي عنها ، بل هم عمي عن الهدى ، كما كانوا في الدنيا فإن العبد يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ، ويقر بما كان يجحده في الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب : أن الحشر هو الضم والجمع ، ويراد به تارة : الحشر إلى موقف القيامة . كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم محشورون إلى الله

---

(١) تفسير الطبري (١٥ / ١٦٧) .

حفاة عراة غرلا »[1] . وكقوله تعالى : (وإذا الوحوش حشرت) [التكوير : ٥] . وكقوله تعالى : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) [الكهف : ٤٢] .

ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين : جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين : جمعهم وضمهم إلى النار ، قال تعالى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) [مريم : ٨٥] . وقال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) [الصافات : ٢٢،٢٣] . فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف ، وهو حشرهم وضمهم إلى النار . لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا : (يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) [الصافات : ٢١] . ثم قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثاني .

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف ، والحشر الثاني من الموقف إلى النار ، فعند الحشر الأول : يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون .

وعند الحشر الثاني : يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصماً فلكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى ، وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضاً : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [النساء : ٨٢][2] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

فنفى عنه الضلال ، الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضاً ، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح[3] .

* * *

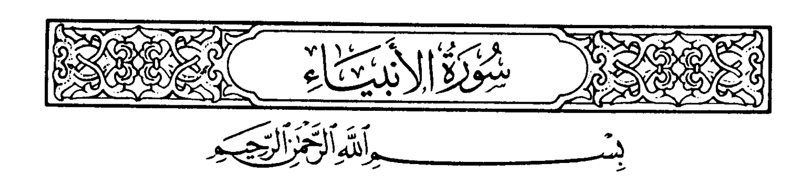
(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه (١١ / ٣٨٥) في الرقاق ، باب : الحشر . ومسلم (٥ / ٧١٢) في الجنة ، باب : فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٦-٥٠) .

(٣) إغاثة اللهفان (٥٨) .

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ





بسم الله الرحمن الرحيم

وكذلك ما احتج به سبحانه على النصارى مبطلا لدعوى إلهية المسيح كقوله : ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب والنصارى غير سائغ في العقول إذا تأمله المتأمل .

ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء من عوارض البشر المجبول على الثبات والبقاء لا من جوهر هذا العالم الفاني الدائر الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار ، ولما كان هذا الحجاج كما ترى في هذه القوة والجلالة أتبعه بقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨][(١)] .

أن الوقف التام في قوله : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنبياء : ١٩] . ها هنا ، ثم يبتدىء : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ .

فهما جملتان تامتان مستقلتان ، أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكا .

ثم استأنف جملة أخرى فقال : ﴿ **ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته ، يعني لا يأنفون عنها ،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٨١) .

ولا يتعاظمون ولا يستحسرون ، فيعيون وينقطعون – يقال : حَسَر واستحسر ، إذا تعب وأعيا – بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم .

فالأول : وصف لعبيد ربوبيته .

والثاني : وصف لعبيد إلهيته[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١،٢٣] .

كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه فسواها به مع أعظم الفرق .

فقوله : ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية والإلهية .

وقوله : ﴿ **وهم يسألون** ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية . فإنها مسئولة مربوبة مُدَبَّرة ، فكيف يسوي بينها وبينه مع أعظم الفرقان .

فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب[2] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام ، وكلها بلاء .

وقال ابن يزيد : نبلوكم بما تحبون وما تكرهون لننظر كيف صبركم وشكركم

(١) مدارج السالكين (١ / ١٠٢) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٢٩٥) .

فيما تحبون وما تكرهون .

وقال الكلبي : بالشر ، بالفقر ، والبلاء ، والخير بالمال ، والولد ، فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيَّتا الابتلاء والامتحان[1].

قول الله تعالى ذكره : ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً ويكون يكلؤكم مضمناً معنى يجيركم وينجيكم من بأسه ، أو كانت « من » البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن ، أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كالىء لكم غيره .

ونظير « من » هذه قوله : (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون) [الزخرف : ٦٠] . على أحد القولين ، أي عوضكم وبدلكم ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

جارية لم تأكل المرققا　　ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تأكل الفستق بدل البقول .

وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده ، لا حافظ لهم غيره ، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه سبحانه وتعالى ، فإنه غني عن خلقه من كل وجه وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه : وفي بعض الآثار يقول تعالى : « أنا الجواد ، ومن أعظم مني جوداً وكرماً ؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم »[2].

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

---

(١) عدة الصابرين (١٦٠) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٩٤) .

وأصح الأقوال في الآية أن المعنى من قبل نزول التوراة .

فإنه سبحانه قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٨] . وقال : ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] . ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ . ولهذا قطعت **(قبل)** عن الإضافة وبنيت لأن المضاف منوي معلوم وإن كان غير مذكور في اللفظ .

وذكر سبحانه هؤلاء الثلاثة وهم أئمة الرسل وأكرم الخلق عليه محمد وإبراهيم وموسى .

وقد قيل « من قبل » : أي في حال صغره قبل البلوغ ، وليس في اللفظ ما يدل على هذا والسياق إنما يقتضي من قبل ما ذكر .

وقيل المعنى بقوله : « من قبل » أي في سابق علمنا ، وليس في الآية أيضا ما يدل على ذلك ، ولا هو أمر مختص بإبراهيم ، بل كل مؤمن فقد قدر الله هداه في سابق علمه .

والمقصود قوله : « وكنا به عالمين » قال البغوي[1] : إنه أهل للهداية والنبوة .

وقال أبو الفرج[2] : « أي عالمين بأنه موضع لإيتاء الرشد » .

وقال صاحب الكشاف : « المعنى علمه به أنه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة ، وصفات قد رضيها وحمدها حتى أهّله لمخالته ومخالصته ، وهذا كقولك في خَيِّرٍ من الناس : أنا عالم بفلان . فكلامك هذا من الاحتواء على

(١) تفسير البغوي (٤ / ٢٩٧) بحاشية الخازن .

(٢) هو أبو الفرج ابن الجوزي الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام ، جمال الدين ، عبد الرحمن ابن علي بن محمد ... الحنبلي ، انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٥) . وانظر كتابه زاد المسير (٥ / ٣٥٧) .

محاسن الأوصاف »[١]. وهذا كقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام: ١٢٤]. وقوله : (ولقد اخترناهم على علم) [الدخان : ٣٢]. ونظيره قوله: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) [آل عمران : ٣٣،٣٤] . وقريب منه قوله : (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) [الأنبياء : ٨١] . حيث وضعنا هذا التخصيص في المحل الذي يليق به من الأماكن والأناسي[٢] .

قال إمام الحنفاء لقومه : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] .

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف ، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل .

والتماثيل جمع تمثال ، وهي الصور الممثلة ، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه ، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام ؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم .

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفا عليها ، فهو نظير عكوف الأصنام عليها ، ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبدا لها ودعا عليه بالتعس والنكس ، فقال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش »[٣] .

قول الله تعالى ذكره : حكاية عن عبدة الأصنام حين كسرها إبراهيم عليه السلام : ﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۞ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ

---

(١) تفسير الكشاف (٣ / ١٣ - ١٤) .

(٢) شفاء العليل (٣٢ - ٣٣) .

(٣) الفوائد (١٩٠) .

هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٢،٦٣] .

يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار معه فكسرها .

فغرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم لأنه قال : ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ هذا على سبيل الاستهزاء بهم . وهذا من رموز الكلام . والقصد فيه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم ، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة عليهم وتبكيتهم والاستهزاء بهم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

لا شبهة أنه ليس غرضهم أن يقر لهم بوجود كسر الأصنام ، ولكن غرضهم أن يقرّ بأن ذلك منه لا من غيره[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٨،٧٩] .

فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكم . وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة .

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل : « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ؟ » فقال : « لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر »[٣] .

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : «والفهم

(١) الفوائد المشوق (١٣٤) .
(٢) الفوائد المشوق (١٥٨) .
(٣) رواه البخاري (٦ / ٩٥) في الجهاد ، باب : الحراسة في الغزو في سبيل الله .

الفهم فيما أدلي إليك»[١] . فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله في قلبه . يعرف به ، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره ، مع استوائهما في حفظه . وفهم أصل معناه[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وعلى هذا الأصل تبتني الحكومة المذكورة في كتاب الله عز وجل التي حكم فيها النبيان الكريمان : داود وسليمان صلى الله عليهما وسلم ؛ إذ حكما في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم . والحرث هو البستان ؛ وقد روي أنه كان بستان عنب ، وهو المسمى بالكرم . والنَّفش : رعي الغنم ليلاً ، فحكم داود بقيمة المتلف ، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة ، فدفعها إلى أصحاب الحرث ، إما لأنه لم يكن لهم دراهم أو تعذر بيعها ، ورضوا بدفعها ، ورضي أولئك بأخذها بدلا عن القيمة .

وأما سليمان فقضى بالضمان على أصحاب الغنم ، وأن يضمنوا ذلك بالمثل ، بأن يعمروا البستان ، حتى يعود كما كان ، ولم يضيع عليهم مغلَّة من حين الإتلاف إلى حين العود بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك ، ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان ، فيستوفوا من نماء غنمهم نظير ما فاتهم من نماء حرثهم ، وقد اعتبر النماءين ، فوجدهما سواء . وهذا هو العلم الذي خصه الله به ، وأثنى عليه بإدراكه[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في التملق له ، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره ، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه .

---

(١) وهو الكتاب الذي شرحه ابن القيم رحمه الله من (١ / ٨٥) إلى (٢ / ١٨٣) من إعلام الموقعين ط الكليات الأزهرية .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤١) .
(٣) أعلام الموقعين (١ / ٤٠٣) .

وقد جُرِّب أنه من قالها سبع مرات ولاسيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره[(١)(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :

فإن فيها من كمال التوحيد : التنزيه للرب تعالى ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهمَّ والغمَّ ، وأبلغ الوسائل إلى الله — سبحانه — في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه . والاعتراف بالظلم يتضمَّن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته ، والاعتراف بعبوديته ، وافتقاره إلى ربه ، فها هنا أربعة أمور ، قد وقع التوسل بها : التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف[(٣)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٧-١٠٢] .

وفي صحيح[(٤)] الحاكم من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي ،

---

(١) الفوائد (١٩٥) .

(٢) وجاء في فضل هذه الدعوة ما رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له » .
رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ٣٥ – ٣٦) وقال أحمد شاكر : إسناد صحيح .
ورواه الترمذي (٥ / ٤٩٥) في الدعوات ، باب : (٨٢) .
ورواه الحاكم (١ / ٥٠٥) (٢ / ٣٨٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .
وصححه **الألباني** ، كما في صحيح الكلم رقم (١٢٢) فانظره مفصلاً .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٠٨) .

(٤) إطلاق « الصحيح » على مستدرك الحاكم ، فيه تجاوز ومعلوم أنه احتوى على الضعيف وغيره ، وانظر =

عن عكرمة، عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم**﴾ قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله[١]. قال: فنزلت: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[٢] وهذا إسناد صحيح.

وقال علي بن المديني: ثنا يحيى بن آدم، ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، قال: أخبرني أبو رزين عن أبي يحيى عن ابن عباس أنه قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها.

فقيل له: وما هي.

فقال: لما نزلت: ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ شق ذلك على قريش أو على أهل مكة وقالوا: يشتم آلهتنا.

فجاء ابن الزبعرى فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا! قال: وما قال؟ قالوا: قال: ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟.

فقال: لا بل لكل من عبد من دون الله.

قال: فقال ابن الزبعرى: خصمت ورب هذه البنية - يعني الكعبة - ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح وأن عزيراً عبد صالح، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة وهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرا.

= ما ذكره ابن كثير عنه في الباعث الحثيث صـ (٢٣ - ٢٤).

(١) في المستدرك «فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها».

(٢) والحديث في المستدرك (٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥).
وصححه ووافقه الذهبي.
وانظر الطبري (١٧ / ٩٦ - ٩٧).

قال : فضج أهل مكة ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها** ﴾ قال : ونزلت : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) [الزخرف : ٥٧] . قال : هو الضجيج[١] .

وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبعري لا يرد على الآية فإنه سبحانه قال : (إنكم وما تعبدون من دون الله) ولم يقل (ومن تعبدون) وما لما لا يعقل ، فلا يدخل فيها الملائكة ، والمسيح ، وعزير ، وإنما ذلك للأحجار ونحوها التي لا تعقل[٢] .

وأيضا فإن السورة مكية والخطاب فيها لعباد الأصنام فإنه قال : (إنكم وما تعبدون) فلفظة (إنكم) ، ولفظة (ما) تبطل سؤاله وهو رجل فصيح من العرب لا يخفى عليه ذلك ولكن إيراده إنما كان من جهة القياس والعموم المعنوي الذي يعم الحكم فيه بعموم علته أي إن كان كونه معبودا يوجب أن يكون حصب جهنم ، فهذا المعنى بعينه موجود في الملائكة وعزير والمسيح فأجيب بالفارق وذلك من وجوه :

إحداها : أن الملائكة والمسيح والعزير ممن سبقت لهم من الله الحسنى فهم سعداء لم يفعلوا ما يستوجبون به النار فلا يعذبون بعبادة غيرهم مع بغضهم

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٣٢٨ - ٣٢٩) برقم (٢٩٢١) .
وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .
والطبراني في الكبير (١٢ / ١٥٣) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٦٨ - ٦٩) و (٧ / ١٠٤) وفيه عاصم بن بهدلة ، وقد وثق ، وضعفه جماعة » . وقد وثقه الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، وانظر سير أعلام النبلاء (٥ / ٢٦٠) .
وسيرة ابن هشام (١ / ٣٨٢) .
والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١ / ٧٠) .
والواحدي في أسباب النزول (صـ ٢٢٩ - ٢٣٠) .
وجاء في سنده « يحيى بن نوح » والصواب « يحيى بن آدم » . والله أعلم .

(٢) انظر الروض الأنف للسهيلي (٣ / ٣١٧-٣١٨) .

ومعاداتهم لهم ، فالتسوية بينهم وبين الأصنام أقبح من التسوية بين البيع والربا ، والميتة والذَّكي ، وهذا شأن أهل الباطل وإنما يسوون بين ما فرق الشرع والعقل والفطرة بينه ، ويفرقون بين ما سوى الله ورسوله بينه .

الفرق الثاني : أن الأوثان حجارة غير مكلفة ، ولا ناطقة فإذا حصبت بها جهنم إهانة لها ولعابديها لم يكن في ذلك من لا يستحق العذاب ، بخلاف الملائكة والمسيح وعزير فإنهم أحياء ناطقون فلو حصبت بهم النار كان ذلك إيلاما وتعذيباً لهم .

الثالث : أن من عبد هؤلاء بزعمه فإنه لم يعبدهم في الحقيقة ، فإنهم لم يدعوا إلى عبادتهم وإنما عبد المشركون الشياطين وتوهموا أن العبادة لهؤلاء فإنهم عبدوا بزعمهم من ادعى أنه معبود مع الله وأنه معه إله وقد برأ الله سبحانه ملائكته والمسيح وعزيراً من ذلك ، وإنما ادعى ذلك الشياطين ، وهم بزعمهم يعتقدون أنهم يرضون بأن يكونوا معبودين مع الله ، ولا يرضى بذلك إلا الشياطين . ولهذا قال سبحانه : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) [سبأ : ٤٠،٤١] . وقال تعالى : (ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) [يسٓ : ٦٠] .

وقول الله تعالى ذكره : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين** ﴾ [الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

فما عبد غير الله إلا الشيطان .

وهذه الأجوبة منتزعة من قوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ فتأمل الآية تجدها تلوح في صفحات ألفاظها وبالله التوفيق .

والمقصود ذكر الحسنى التي سبقت من الله لأهل السعادة قبل وجودهم

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: ثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد، ثنا أبو عامر العقدي، ثنا عروة بن ثابت الأنصاري، ثنا الزهري عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضاً شديداً أغمي عليه فأفاق فقال: أغمي عليَّ قالوا : نعم . قال : إنه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا : انطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين فانطلقا بي ، فتلقاهما رجل وقال : أين تريدان به ؟ قالا : نحاكمه إلى العزيز الأمين فقال : دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه .

وقال عبد الله بن محمد البغوي : ثنا داود بن رشيد ثنا ابن علية حدثني محمد بن محمد القرشي عن عامر بن سعد قال : أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل ، فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعلياً فنهاه فكأنما زاده إغراء ! فقال : ويلك تريد أن تسب أقواماً هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك .

فقال : كأنما يخوفني نبيٌّ من الأنبياء ؟! فانطلق[1] فدخل داراً فتوضأ ودخل المسجد ثم قال : اللهم إن كان هذا قد سب أقواما قد سبقت لهم منك حسنى أسخطك سبه إياهم ، فأرني اليوم آية تكون للمؤمنين آية .

وقال : تخرج بختية[2] من دار بني فلان لا يردها شيء حتى تنتهي إليه ويتفرق الناس وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طغى .

قال : فأنا رأيت سعدا يتبعه الناس يقولون : استجاب الله لك يا أبا إسحاق استجاب الله لك يا أبا إسحاق !

وقال تعالى : (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) [الحج : ٧٨] . أي الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن ، فسبقت تسمية الحق

(١) أي سعد – رضي الله عنه – ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا مختصراً في مجابي الدعوة صـ (٤٨) .
(٢) هي الأنثى من الإبل ، مختار الصحاح (٤٢) . وهو أعجمي معرب كما في اللسان (١ / ٢١٩) .

سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم .

وقال تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) [الصافات : ١٧١-١٧٣] . وقال ابن عباس في رواية الوالبي[١] عنه في قوله : (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم)[يونس : ٢] . قال : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول . وهذا لا يخالف قول من قال : إنه الأعمال الصالحة التي قدموها ، ولا قول من قال : إنه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه سبق لهم من الله في الذكر الأول السعادة بأعمالهم على يد محمد صلى الله عليه وسلم فهو خير تقدم لهم من الله ، ثم قدمه لهم على يد رسوله ، ثم يقدمهم عليه يوم لقائه وقد قال تعالى : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) [الأنفال : ٦٨] . وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق[٢] ، فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم : لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم .

وقال آخرون : لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً إلا بعد الحجة لعاقبكم .

وقال آخرون : لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاءوا لعاقبهم .

وقال آخرون وهو الصواب : لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . والله أعلم[٣] .

وقول الله تعالى ذكره : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

---

(١) هو الإمام سعيد بن جبير رضي الله عنه كما مر برقم (٢) صـ (٤١) من سورة النساء . وانظر تفسير الآية (٢) من سورة يونس .

(٢) راجع الآية (٦٨) من الأنفال .

(٣) شفاء العليل (٢٦ – ٢٨) .

والسجل : الورق المكتوب فيه ، والكتاب : نفس المكتوب ، واللام بمنزلة على ، « أي نطوى السماء كطي الدرج على مافيه من السطور المكتوبة » ، ثم استدل على النظير بالنظير فقال : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥،١٠٦] .

فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود ، والذكر أم الكتاب الذي عند الله ، والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

هذا أصح الأقوال في هذه الآية ، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه ، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله .

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء »[2] .

فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) [النحل : ٤٣،٤٤] . أي أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٩٧) .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٦ / ٣٣٠ - ٣٣١) . في بدء الخلق ، باب : ما جاء في قول الله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ...﴾ .
ولم أجده في مسلم ، ولم يشر لذلك صاحب . جامع الأصول (٤ / ١٥ - ١٦) .
وكذا المزي في تحفة الأشراف (٨ / ١٨٢ - ١٨٣) وأشار إلى رواية (خ ت س) له .

والنور . والذكر ههنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما التوراة والإنجيل[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما قول من قال : إنها[٢] تجتمع في الأرض التي قال الله فيها : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٥].

فهذا إن كان قاله تفسير الآية فليس هو تفسيراً لها .

وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : هي أرض الجنة ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وعن ابن عباس قول آخر : أنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله تعالى في سورة النور : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) [النور : ٥٥] . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها »[٣] .

وقالت طائفة من المفسرين : المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها[٤] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

---

(١) شفاء العليل (٣٩) .

(٢) يعني « الروح » .

(٣) رواه مسلم (٥ / ٧٣٩) في الفتن ، باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .
والترمذي (٤ / ٤١٠) في الفتن ، باب ما جاء في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً في أمته .
وأبو داود (١١ / ٣٢٢) في الفتن ، باب : ذكر الفتن ودلالتها .

(٤) الروح (١٠٧) .

أصح القولين في هذه الآية : أنها على عمومها .

وفيها على هذا التقدير وجهان :

أحدهما : أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته .

أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة .

وأما أعداؤه المحاربون له : فالذين عُجّل قتلهم وموتهم خَير لهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة ، وهم قد كتب عليهم الشقاء ، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر .

وأما المعاهدون له : فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته ، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له .

وأما المنافقون : فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها .

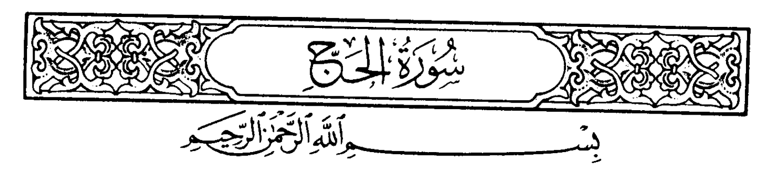
وأما الأمم النائية عنه : فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض ، فأصاب كل العالمين النفع برسالته .

الوجه الثاني : أنه رحمة لكل أحد ، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى ، والكفار ردوها ، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم ، لكن لم يقبلوها ، كما يقال : هذا دواء لهذا المرض . فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض[1] .

* * *

(١) جلاء الأفهام (١١٥ – ١١٦) الطبعة المنيرية .

سُورَةُ الحَجِّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ الآية [الحج : ١،٢] .

المرضع من لها ولد ترضعه .

والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت** ﴾ أبلغ من مرضع في هذا المقام فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع .

وتأمل – رحمك الله تعالى – السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله : (ذات حمل) ، فإن الحامل قد تطلق على المهيئة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومباديه ، فإذا قيل : (ذات حمل) لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أو سقطاً كما يقال : ذات ولد ، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

في دخول التاء في قوله تعالى : ﴿ **مرضعة** ﴾ يتضمن فائدة لا تحصل بدونها فتعين الإتيان بها ، وهي أن المراد بالمرضعة فاعلة الرضاع فالمراد الفعل لا مجرد

(١) بدائع الفوائد (٤ / ٢١ – ٢٢) .

الوصف ولو أريد الوصف المجرد بكونها من أهل الرضاع لقيل مرضع كحائض وطامث .

ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار »(١) فإن المراد به الموصوفة بكونها من أهل الحيض لا من يجري دمها ، فالحائض والمرضع وصف عام يقال على من لها ذلك وصفا وإن لم يكن قائماً - بها ويقال على من قام - بها بالفعل فأدخلت التاء ههنا إيذاناً بأن المراد من تفعل الرضاع فإنها تذهل عما ترضعه لشدة هول زلزلة الساعة وأكد هذا المعنى بقوله ﴿ **عما أرضعت** ﴾ فعلم أن المراد المرضعة التي ترضع بالفعل لا بالقوة والتهيؤ(٢) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ [الحج : ٣،٤] .

إن هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ليس عندهم علم ، ولا هدى ، ولا كتاب مبين ، فمعارضتهم باطلة ، وهم فيها أتباع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير فهذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله ، ليس عنده إلا الجهل والضلال .

ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب ، فبدأ بالأعم وهو العلم ، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله ، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص ، وهو الهدى ، ثم انتقل إلى ما هو أخص ، وهو الكتاب المبين ،فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفطرة ، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من

---

(١) حديث صحيح .
رواه أبو داود (٢ / ٣٤٥) في الصلاة ، باب : المرأة تصلي بغير خمار .
والترمذي (٢ / ٢١٥) في الصلاة ، باب ما جاء : لا تقبل صلاة المرأة إلا بخمار . رواه الحاكم (١ / ٥٢١) .
وانظر إرواء الغليل (١ / ٢١٤) .

(٢) بدائع الفوائد (٣ / ٢٩) .

جهة الرسل ، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله ، فإن الهدى قد يكون كتاباً ، وقد يكون سنة ، وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعاً ، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل ، فقد قالوا : إنه لا يفيد علماً ولا يقيناً ، والمعقول يعارضه ، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة ، وبقي العلم فهم يَدَّعُونَه ، والله تعالى قد نفاه عنهم .

وقد قام البرهان والدليل العقلي المستلزم لمدلوله ، على صدق الرب في خبره ، فعلم قطعاً أن هذا الذي عارضوا به الوحي ، ليس بعلم ، إذ لو كان علماً لبطل دليل العقل الدال على صدق الرب تعالى في خبره ، فهذا يكفي في العلم بفساد كون ما عارضوا به علماً ، فكيف وقد قام الدليل العقلي الصحيح المقدمات على فساد تلك المعارضة ، وأنها تخص الجهل المركب ، فكيف وقد اتفق على فساد تلك المعارضة العقل والنقل !.

ونحن نطالب هؤلاء المعارضين بواحدة من ثلاث : إما كتاب منزل ، أو أثاره من علم يؤثر عن نبي من الأنبياء ، أو معقول صحيح المقدمات ، وقد اتفق العقلاء على صحة مقدماته . وهم يعلمون والله شهيد عليهم ، بأنهم عاجزون عن هذا وهذا ، فترك ما علمناه من كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما نزل به جبريل من رب العالمين ، على قلب رسوله الأمين ، بلسان عربي مبين ، لوحي الشياطين ، وشبه الملحدين ، وتأويلات المعطلين .

فإن قيل : فما الفرق بين الصنف الأول الذي يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، والصنف الثاني الذي يجادل في الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ، كما ذكرهم سبحانه صنفين ؟

قيل : قد ذكر سبحانه ثلاثة أصناف :

صنفاً يجادل في الله بغير علم، ويتبع كل شيطان مريد ، مكتوباً عليه إضلال من تولاه ، وهذه حال المتبع لأهل الضلال ، وصنفاً يجادل في الناس بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيله . وهذه حال المتبوع

المستكبر ، الصاد عن سبيل الله ، فالأول حال الأتباع ، والثاني حال المتبوعين ، ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف ، وهذه حال المتبع لهواه الذي إن حصل له ما يهواه في الدنيا عبد الله ، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه ، وهذه حال من كان مريضاً في إرادته وقصده ، وهي حال أهل الشهوات والأهواء ، ولهذا ذكر ذلك في العبادة فأصلها القصد والإرادة ، وأما الأولان فحال الضال والمضل ، وذلك مرض في العلم والمعرفة ، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد ، والجدال بالباطل ، والله سبحانه يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات ، ولا صلاح للعبد إلا بمعرفة الحق ، وقصده كما قال تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) [الفاتحة : ٦،٧] .

فمن لم يعرف الحق كان ضالاً ، ومن عرفه و لم يتبعه كان مغضوباً عليه ، ومن عرفه واتبعه فقد هدي إلى الصراط المستقيم .

وأول الشر الضلال ومنتهاه الغضب ، كما أن أول الخير الهدى ومنتهاه الرحمة والرضوان ، فذكر سبحانه في آيات الحج ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال ، وما يعرض في الإرادة والعمل من اتباع الأهواء ، كما جمع بينهما في قوله : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) [النجم: ٢٣].

فقال أولاً : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد** ﴾ [الحج : ٣] .

وهذا يتضمن الجدال فيه بغير هدى ولا كتاب منير ، فإن من جادل بغير ذلك فقد جادل بغير علم ، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريقة حصل ، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدى ، أو كتاب منير ، هذه حال الضال المتبع لمن يضله ، فلم يحتج إلى تفصيل ، فبين أنه يجادل بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد ، كتب على ذلك الشيطان أن من اتبعه ، فأنه يضله ويهديه

إلى عذاب السعير ، وهذه حال مقلدة أئمة الضلال من الكفار وأهل الأهواء والبدع .

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثني عطفه تكبراً كما قال : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها) [لقمان : ٧] .

وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي ، وأنها في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم ، لنفى هذه الثلاثة ، فإن مجادلة المتبوع أصل وهو أقعد[1] بها من مجادلة التابع ، ومصدرها كبر ، ومصدر مجادلة التابع ضلال ، وتقليد ، فذكر حال المتبوع على التفصيل ، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه ، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع ، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل ، وقدم العقل عليه[2] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [الحج : ٥] .

يقول سبحانه : إن كنتم في ريب من البعث ، فلستم ترتابون في أنكم مخلوقون ، ولستم ترتابون في مبدأ خلقكم من حال إلى حال إلى حين الموت ، والبعث الذي وعدتم به نظير النشأة الأولى ، فهما نظيران في الإمكان والوقوع ،

(١) أي : أولى وأقرب .
وانظر أساس البلاغة (٣٧٢) .
ولسان العرب (٦ / ٣٦٨٩) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣ / ١٠٨٦ - ١٠٩١) .

فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ - ٧] .

وقوله تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير) [فصلت : ٩٠] .

جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات ، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور ، ودل بالنظير على نظيره ، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب :

أحدها : وجود الصانع ، وأنه الحق المبين ، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله .

الثاني : أنه يحيي الموتى .

الثالث : عموم قدرته على كل شيء .

الرابع : إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها .

الخامس : أنه يُخرج الموتى من القبور ، كما أخرج النبات من الأرض[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ١٨٨) .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ١٩٣) .

ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] . فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه ، وهو الذي أهانه بترك السجود، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له(١) .

وقول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [الحج : ٢٣] .

واختلفوا(٢) في جر « لؤلؤ » ونصبه ، فمن نصبه ففيه وجهان :

أحدهما : أنه عطف على موضع قوله : من أساور .

والثاني : أنه منصوب بفعل محذوف دل عليه الأول ، أي ويحلون لؤلؤا ، ومن جره أنه عطف على الذهب ثم يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون لهم أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ .

ويحتمل أن تكون الأساور مركبة من الأمرين معاً : الذهب المرصع باللؤلؤ والله أعلم بما أراد(٣) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الحج : ٢٥] .

وهذا لا يختص بمقام الصلاة قطعاً ، بل المراد به الحرم كله ، فالذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، هو الذي توعد من صد عنه ، ومن أراد الإلحاد بالظلم فيه ، فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة ، والمسعى ومنى ، وعرفة ،

---

(١) كتاب الصلاة (١٨٠) .
(٢) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٥) .
(٣) حادي الأرواح (١٦٤) .

ومزدلفة ، لا يختص بها أحد ، دون أحد بل هي مشتركة بين الناس ، إذ هي محل نسكهم ومتعبدهم ، فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه ، ولهذا امتنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبنى له بيت بمنى يظله من الحر وقال : « مِنى مُناخُ من سَبَقَ »[١][٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

وأما تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جليلة ، وهي : أن الله شرط في الحج الاستطاعة ولابد من السفر إليه لغالب الناس ، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب ، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً .

ومن الناس من يقول : قدمهم جبراً لهم ؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم وتقول : إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم ، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة[٣] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج : ٣٠] .

قال جماعة من المفسرين[٤] : ﴿ **حرمات الله** ﴾ هاهنا مغاضبه ، وما نهى عنه ، و« **تعظيمها** » ترك ملابستها .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى من حديث عائشة رضي الله عنها (٦ / ٢٠٦ - ٢٠٧) .
وأبو داود (٥ / ٥٠١) في المناسك ، باب : تحريم مكة .
والترمذي (٣ / ٢٢٨) في الحج ، باب : ما جاء أن مِنى مناخ من سبق .
وقال : « حديث حسن صحيح » .
وابن ماجه (٢ / ١٠٠٠) في المناسك ، باب : النزول بمنى .
وضعفه الألباني ، كما في ضعيف **ابن ماجة (٢٣٨)** .

(٢) زاد المعاد (٣ / ٤٣٥) .

(٣) بدائع الفوائد (١ / ٦٩) .

(٤) انظر تفسير الطبري (١٧ / ١٥٣) .

قال الليث : حرمات الله : ما لا يحل انتهاكها ، وقال قوم : الحرمات هي الأمر والنهي .

وقال الزجاج : الحرمة : ما وجب القيام به ، وحرم التفريط فيه . وقال قوم : الحرمات هاهنا المناسك ، ومشاعر الحج زماناً ومكاناً .

والصواب : أن « الحرمات » تعم هذا كله . وهي جمع « حرمة » وهي ما يجب احترامه ، وحفظه : من الحقوق ، والأشخاص ، والأزمنة ، والأماكن . فتعظيمها : توفيتها حقها ، وحفظها من الإضاعة[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠،٣١] .

فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله ، وتعلق بغيره .

ويجوز لك في هذا التشبيه أمران :

أحدهما : أن تجعله تشبيها مركباً ، ويكون قد شبه من أشرك بالله ، وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة ؛ فصور حاله بصورة حال من خرَّ من السماء ، فاختطفته الطير في الهوي ، فتمزق مزقاً في حواصلها ، أو عصف به الريح ، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة ، وعلى هذا لا ينظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به .

والثاني : أن يكون من التشبيه المفرق ، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به ، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه ، فمنها هبط إلى الأرض ، وإليها يصعد منه ،

(١) مدارج السالكين (٢ / ٧٤) .

وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد ، والآلام المتراكمة ، والطير الذي تخطف أعضاءه ، وتمزقه وتقلقه إلى مظان هلاكه ، فكل شيطان له مِزعة من دينه وقلبه ، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه ، والريح التي تهوي به في مكان سحيق ، هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان ، وأبعده من السماء[1].

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٦،٣٧] .

فأخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها ، وأنه إنما يناله التقوى ، وهو التقرب إليه بها ، وذكر اسمه عليها ، فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعاً من أكلها ، وكانت مكروهة لله ، فأكسبتها كراهيته لها ، حيث لم يذكر عليها اسمه ، أو ذكر عليها اسم غيره ، وصف الخبث ، فكانت بمنزلة الميتة .

وإذا كان هذا في متروك التسمية ، وما ذكر عليه اسم غير الله ، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو أخبث البرية أولى بالتحريم ؛ فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح ، كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة .

وهذه أمور إنما يصدق بها من أشرق فيه نور الشريعة وضياؤها ، وباشر قلبه بشاشة حكمها ، وما اشتملت عليه من المصالح في القلوب والأبدان ، وتلقاها صافية من مشكاة النبوة ، وأحكم العقد بينها وبين الأسماء والصفات التي لم يطمس نور حقائقها ظلمة التأويل والتحريف[2] .

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٣٤ - ٢٣٥) .
(٢) إعلام الموقعين (٢ / ١٦٠ - ١٦١) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **إن الله يَدْفَع عن الذين آمنوا** ﴾ [الحج : ٣٨] .

وفي القراءة الأخرى : (إن الله يدافع)[١] فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله . ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم ، ومن نقص نقص ، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان[٢] .

فقول الله تعالى ذكره : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩] .

وقد قالت طائفة : إن هذا الإذن كان بمكة ، والسورة مكية[٣] وهذا غلط لوجوه :

أحدها : أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثاني : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة ، وإخراجهم من

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمر : (إن الله يَدْفَعُ) (ولولا دَفْعُ) بغير ألف فيهما .
وقرأ نافع (إن الله يُدَافِعُ) (ولولا دِفَاعُ الله) بالألف فيهما .
وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: (إن الله يُدَافِعُ) بالألف (ولولا دَفْعُ الله) بغير ألف .
كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٤٣٧) .

(٢) الوابل الصيب (١٠٠) .

(٣) قال القرطبي رحمه الله تعالى : « وهي مكية سوى ثلاث آيات : قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان ﴾ [الحج : ١٩ – ٢١] إلى تمام ثلاث آيات ، قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضًا أنهن أربع آيات ، إلى قوله : ﴿ عذاب الحريق ﴾ . [الحج : ٢٤] .
وقال الضحاك وابن عباس أيضاً : هي مدنية – وقاله قتادة – إلا أربع آيات : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ إلى ﴿ عذاب يوم عقيم ﴾ فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات .
وقال الجمهور : السورة مختلطة ، منها مكي ومنها مدني . وهذا هو الأصح ، لأن الآيات تقتضي ذلك ، لأن « يا أيها الناس » مكيّ ، و « يا أيها الذين آمنوا » مدني . اهـ تفسير القرطبي (٥ / ٤٣٩٣) .

ديارهم ، فإنه قال : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) [الحج : ٤٠] . وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا في ربهم) [الحج : ١٩] . نزلت في الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين[١] .

الرابع : أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) . والخطاب بذلك كله مدني ، فأما الخطاب (يا أيها الناس) فمشترك .

الخامس : أنه أمر فيها بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره ، ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة ، فأما جهاد الحجة ، فأمر به في مكة بقوله : (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) [الفرقان : ٥٢] . أي بالقرآن جهاداً كبيراً . فهذه سورة مكية ، والجهاد فيها هو التبليغ ، وجهاد الحجة ، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

السادس : أن الحاكم روى في « مستدركه » من حديث الأعمش ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾ [الحج : ٣٩] . وهي أول آية نزلت في القتال . وإسناده على شرط « الصحيحين »[٢] .

وسياق السورة يدل على أن فيها المكيَّ والمدنيَّ ، فإن قصة إلقاء الشيطان

---

(١) وهم من الصحابة الأبرار « حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم » ومن أعدائهم الأشقياء « شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة» رواه البخاري (٣٤٦/٧) في المغازي باب : قتل أبي جهل . و (٨ / ٢٩٧) في تفسير سورة الحج .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (١ / ٢١٦) .
والترمذي (٥ / ٣٠٤) في التفسير ، باب : ومن سورة الحج .
والحاكم (١ / ٦٦) وصححه ووافقه الذهبي .

في أمنية الرسول مكية[١]، والله أعلم[٢].

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

قال الزجاج : « تأويل هذا : لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم – في كل شريعة نبي – المكان الذي يصلى فيه ، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كان يصلى فيها في شريعته ، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن محمد المساجد » .

وقال الأزهري : « أخبر الله سبحانه أنه لولا دفعه بعض الناس عن الفساد ببعضهم لهدمت متعبَّدات كل فريق من أهل دينه وطاعته في كل زمان ، فبدأ بذكر الصوامع والبيع لأن صلوات من تقدم من بني إسرائيل وأصحابهم كانت فيها قبل نزول القرآن ؛ وأخرت المساجد لأنها حدثت بعدهم » .

وقال ابن زيد : « الصلوات صلوات أهل الإسلام تنقطع إذا دخل عليهم العدو » .

قال الأخفش : « وعلى هذا القول : الصلوات لا تهدم ، ولكن تحل محل فعل آخر ، كأنه قال : تركت صلوات » .

وقال أبو عبيدة « إنما يعني مواضع الصلوات » .

وقال الحسن : « يدفع عن مصليّات أهل الذمة بالمؤمنين » . وعلى هذا القول لا يُحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول ؛ وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه : فإن الآية دلت على الواقع ، ولم تدل على كون هذه الأمكنة – غير المساجد – محبوبة مرضية له ، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام وأقرَّ منها ما أقرَّ بعده وإن كانت مسخوطة له ، كما أقرّ أهل الذمة وإن كان يبغضهم

(١) يأتي ذلك عند الآية (٥٠) من السورة .
(٢) زاد المعاد (٣ / ٧٠ – ٧١) .

ويمقتهم ، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم . وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها ، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعاً وقدراً : فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم . وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى ، وهو مذهب ابن عباس في الآية .

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد الله — هو ابن موسى — عن إسرائيل ، عن السدي ، عمن حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لهدمت صوامع وبيع » قال : الصوامع التي يكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود ، والصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين[١] .

قال ابن أبي حاتم وأخبرنا الأشج ، ثنا حفص بن غياث ، عن داود ، عن أبي العالية قال : « لهدمت صوامع » قال : صوامع وإن كان يشرك به ! وفي لفظ : إن الله يحب أن يذكر ولو من كافر !

وفي تفسير شيبان[٢] عن قتادة : الصوامع للصابئين ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين[٣] .

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنواع القلوب في قوله : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾ [الحج : ٥٣-٥٤] .

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٧ / ١٧٤ - ١٧٨).
والدر المنثور (٦ / ٦٠) .
(٢) شيبان بن عبد الرحمن النحوي ، الإمام الحافظ الثقة .
انظر ترجمته ومصادرها في السير للذهبي (٧ / ٤٠٦) .
(٣) أحكام أهل الذمة (٢ / ٦٦٦- ٦٦٨) .

فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق ، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه ، فهذان القلبان شقيان معذبان . ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به .

قال الكلبي : (فتخبت له قلوبهم) فترقَّ للقرآن قلوبهم ، وقد بين سبحانه حقيقة الإخبات ووصف المخبتين في قوله : (وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) [الحج : ٣٤،٣٥] .

فذكر للمخبتين أربع علامات : وجل قلوبهم عند ذكره ، والوجل : خوف مقرون بهيبة ومحبة ، وصبرهم على أقداره ، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً ، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم . وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت .

قال ابن عباس : المخبتين : المتواضعين .

وقال مجاهد : المطمئنين إلى الله .

وقال الأخفش : الخاشعين .

وقال ابن جرير[١] : الخاضعين .

قال الزجاج : اشتقاقه من الخَبت وهو المنخفض من الأرض . وكل مخبت متواضع[٢] .

فالإخبات سكون الجوارح على وجه التواضع والخشوع لله .

فإن قيل : فإذا كان معناه التواضع والخشوع ، فكيف عدي بـ « إلى » في قوله : (وأخبتوا إلى ربهم) [هود : ٢٣] . قيل : ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا ، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع .

---

(١) الطبري (١٧ / ١٦١ و ١٩١ - ١٩٢) .

(٢) انظر أيضاً في معنى الإخبات لسان العرب (٢ / ١٠٨٧) والمفردات للأصفهاني (١٤١) .

والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض ، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتاً إليه وبعضها قاسياً ، وجعل للقسوة آثاراً وللإخبات آثاراً .

فمن آثار القسوة تحريف الكلم عن مواضعه[١] وذلك من سوء الفهم وسوء القصد وكلاهما ناشيء عن قسوة القلب ومنها نسيان ما ذكر به ، وهو ترك ما أمر به علماً وعملاً . ومن آثار الإخبات وجل القلوب لذكره سبحانه ، والصبر على أقداره ، والإخلاص في عبوديته ، والإحسان إلى خلقه[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٣] .

اللام على بابها وهي لام الحكمة والتعليل أخبر الله سبحانه أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول محنة واختبارا لعباده فافتتن به فريقان وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم .

وعلم المؤمنون أن القرآن والرسول حق وأن إلقاء الشيطان باطل ، فآمنوا بذلك وأخبتت له قلوبهم . فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر .

والله سبحانه جعل القلوب على ثلاثة أقسام : مريضة ، وقاسية ، ومخبتة ، وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً أو لاتكون كذلك .

فالأول : حال القلوب القاسية الحجرية التي لا تقبل ما يبث فيها ولا ينطبع فيها الحق ولا ترتسم فيها العلوم النافعة ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة .

وأما النوع الثاني : فلا يخلو :

إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه أو يكون ثابتاً مع

---

(١) قال الله تعالى ذكره : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به .. ﴾ الآية [المائدة : ١٣] .

(٢) شفاء العليل (١٠٦) .

ضعف وانحلال . والثاني هو القلب المريض والأول هو الصحيح المخبت وهو جمع الصلابة والصفاء واللين فيبصر الحق بصفائه ويشتد فيه بصلابته ويرحم الخلق بلينه كما في أثر مروي « القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وأرقها وأصفاها »[1] كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب : (أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح : ٢٩] . فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم واشتدوا على الكفار بصلابتها وتراحموا فيما بينهم بلينها وذلك أن القلب عضو من أعضاء البدن ، وهو أشرف أعضائه وملكها المطاع وكل عضو كاليد مثلاً إما أن تكون جامدة ويابسة لا تلتوي ولا تبطش أو تبطش بضعف فذلك مثل القلب القاسي ، أو تكون مريضة ضعيفة عاجزة ولضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض أو تكون باطشة بقوة ولين فذلك مثل القلب العليم الرحيم ، فبالعلم خرج عن المرض الذي ينشأ من الشهوة والشبهة ، وبالرحمة خرج عن القسوة . ولهذا وصف سبحانه من عدا أصحاب القلوب المريضة والقاسية بالعلم والإيمان والإخبات . فتأمل ظهور حكمته سبحانه في أصحاب هذه القلوب وهم كل الأمة فأخبر أن الذين أوتوا العلم علموا أنه الحق من ربهم كما أخبر أنه في المتشابه يقولون : (آمنا به كل من عند ربنا) ، وكلا الوصفين موضع شبهة فكان حظهم منه الإيمان ، وحظ أرباب القلوب المنحرفة عن الصحة الافتتان . ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات . فالإحكام ههنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك ، ونسخ ما يلقي الشيطان هاهنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك ، والنسخ هاهنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الرب سبحانه . وللنسخ معنى آخر وهو النسخ من أفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده ولا دل اللفظ عليه وإن أوهمه ، كما أطلق الصحابة النسخ على قوله (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) [البقرة : ٢٨٤] . قالوا : نسختها قوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) الآية [البقرة : ٢٨٦] . فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت ، فإن

---

(١) انظر رقم (١) من سورة المائدة (٢ /١٠٦) .

المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضاً ولهذا عمهم بالمحاسبة ثم أخبر بعدها أنه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ففهم المؤاخذة التي هي المعاقبة من الآية تحميل لها فوق وسعها فرفع هذا المعنى من فهمه بقوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى آخرها[١] . فهذا رفع لفهم غير المراد من إلقاء الملك وذاك رفع لما ألقاه غير الملك في أسماعهم أو في التمني .

وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين وهو ترك الظاهر إما بتخصيص عام أو بتقييد مطلق وهذا كثير في كلامهم جداً .

وله معنى رابع : وهو الذي يعرفه المتأخرون وعليه اصطلحوا وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافع[٢] له .

فهذه أربعة معان للنسخ .

والإحكام له ثلاثة معان :

أحدها : الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات) [آل عمران :٧] .

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان كقوله تعالى: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) . وهذا الإحكام يعم جميع آياته وهو إثباتها وتقريرها وبيانها ومنه قوله : (كتاب أحكمت آياته) [هود :١] .

---

(١) انظر بيان ذلك في تفسير الطبري (٦ / ١٠١ - ١٢١) المحقق .
وتفسير البغوي (١ / ٣١٠ - ٣١٢) وممن ذهب إلى نسخها :
قتادة بن دعامة ، في الناسخ والمنسوخ له (٣٧) .
وابن الجوزي في ناسخه (٢١) .
وابن كثير في تفسيره (١ / ٣٥١) .
والشوكاني في تفسيره (١ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .
وانظر الناسخ والمنسوخ لأبي عبيدة (٢٧٤) .

(٢) انظر المستصفى للغزالي (١ / ١٠٧) .
وأصول الفقه الإسلامي د . وهبة الزحيلي (٢ / ٩٣٣) .

الثالث : إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة كما يقول السلف كثيراً هذه الآية محكمة غير منسوخة ، وذلك لأن الإحكام تارة يكون في التنزيل فيكون في مقابلة ما يلقيه الشيطان في أمنيته ما يلقيه المبلغ ، أو في سمع المبلغ ، فالحكم هنا هو المنزل من عند الله ، أَحْكَمَهُ الله أي فصَّلَهُ من اشتباهه بغير المنزل ، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله .

وتارة يكون في إبقاء المنَزَّل واستمراره فلا ينسخ بعد ثبوته .

وتارة يكون في معنى المنزل وتأويله ، وهو تمييز المعنى المقصود من غيره حتى لا يشتبه به . والمقصود أن قوله : (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) هي لام التعليل على بابها وهذا الاختبار والامتحان مظهر لمختلف القلوب الثلاثة : فالقاسية والمريضة ظهر خبؤها من الشك والكفر ، والمخبتة ظهر خبؤها من الإيمان والهدى وزيادة محبته ، وزيادة بغض الكفر والشرك والنفرة عنه وهذا من أعظم حكمة هذا الإلقاء[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١].

وفيه قولان :

أحدهما : أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك ، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر ، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه . وعلى هذا في عامة كل ليل ونهار .

والقول الثاني : أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة ، وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال ، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر . وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة

(١) شفاء العليل (١٩٢ - ١٩٣) .

أو البرودة إلا أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لم تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه ، وكل موضع لا تفارقه كذلك ، لفرط حره ويبسه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٣،٧٤] .

حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل ، ويتدبره حق تدبره فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه ، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده ، وإعدام ما يضره . والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ما هو أكبر منه ؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه ، فيستنقذوه منه ، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ، ولا على الانتصار منه ، واسترجاع ما سلبهم إياه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ، ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله ؟ .

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله ، وتقبيح عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة ، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات ، وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات ، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات ، وإجابة الدعوات فأعطوها صوراً وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الإله الحق وأذلها

(١) مفتاح دار السعادة (٢٢٨- ٢٢٩) .

وأصغرها وأحقرها ، ولو اجتمعوا لذلك ، وتعاونوا عليه ، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم . أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً ، واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجزوا عن ذلك ، ولم يقدروا عليه ، ثم سوّى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب** ﴾ قيل : الطالب العابد ، والمطلوب المعبود ، فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل : هو تسوية بين السالب والمسلوب ، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز ، وعلى هذا فقيل : الطالب : الإله الباطل ، والمطلوب : الذباب يطلب منه ما استلبه منه ، وقيل : الطالب : الذباب ، والمطلوب : الإله ، فالذباب منه ما يأخذه مما عليه .

والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع ، فضعف العابد والمعبود المستلِب والمستلَب ، فمن جعل هذا إلهاً مع القوى العزيز ، فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق تعظيمه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه ، فمن لم يستمعه فقد عصى أمره . كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها ، وأسجل[2] على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضاً وعاونه بأبلغ المعاونة ، لعجزوا عن خلق ذباب واحد ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم ، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها .

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٣٥ - ٢٣٧) .

(٢) أشار محقق الصواعق أنها في نسخة « سجل » والمعنى - والله أعلم - المناظرة والتحدي والمفاخرة . وإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب ، وتساجلوا أي تفاخروا .. لسان العرب (٤ / ١٩٤٥) مادة : سجل .
وأساس البلاغة (٢٠٣) .

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستكرهها غموض ولم يشنها تطويل ولم يعبها تقصير ، ولم تزر بها زيادة ولا نقص بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها ، وتحتها من المعنى الجليل القدر ، العظيم الشرف ، البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

فما قَدَّره مَنْ عَبَدَ مِنْ دونه من لا يخلق ذباباً واحداً ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه من خلوق وغيره لم يقدر على استنقاذه منه ، ولا يكون أضعف من هذا الإله وعابده ، فكيف يُعْبَدُ مَنْ دُونَ مَنْ له القوة كلها ، والعزة كلها ، ولما كان هذا من جهلهم بالله وترك تعظيمه الذي ينبغي له ، قال كثير من المفسرين في معنى ذلك : ما عظموه حق عظمته .

وقال بعضهم : ما عرفوه حق معرفته .

وقال بعضهم : ما عبدوه حق عبادته .

وقال آخرون : ما وصفوه حق صفته ، ولما كان أهل العلم والإيمان قد قاموا من ذلك بحسب قدرتهم وطاقتهم التي أعانهم بها ، ووفّقهم بها لمعرفته وعبادته وتعظيمه لم يتناولهم هذا الوصف ؛ فإن التعظيم له سبحانه والمعرفة والعبادة ووصفه به نفسه قد أمر به عباده وأعانهم عليه ورضي منهم بمقدورهم من ذلك ، وإن كانوا لا يقدرونه قدره ولا يقدر أحد من العباد قدره ، فإنه إذا كانت السماوات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا ، والأرضون السبع في يده الآخرى ، كذلك فكيف يقدره حق قدره ، من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً ؟ فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة ، وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له ، وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب ، وللمتفلسفة

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٦٦ - ٤٦٧) .

وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج : ٧٨] .

فأخبر تعالى أنه اجتباهم ، والاجتباء كالاصطفاء، وهو افتعال من : اجتبى الشيء يجتبيه إذا ضمه إليه وحازه إلى نفسه ، فهم المجتبون الذين اجتباهم الله إليه ، وجعلهم أهله وخاصته وصفوته من خلقه بعد النبيين والمرسلين ، ولهذا أمرهم تعالى أن يجاهدوا فيه حق جهاده فيبذلوا له أنفسهم ، ويفردوه بالمحبة والعبودية ، ويختاروه وحده إلهاً معبوداً محبوباً على كل ما سواه ، كما اختارهم على من سواهم ، فيتخذونه وحده إلههم ومعبودهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم ومحبتهم وإرادتهم ، فيؤثرونه في كل حال على من سواه ، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءه وآثرهم بذلك على من سواهم .

ثم أخبرهم تعالى أنه يسَّر عليهم دينه غاية التيسير ، ولم يجعل عليهم فيه من حرج البتة ، لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم .

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم ، وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحبِّ والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام ؛ فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره .

ثم أخبر تعالى أنه نوه بهم وأثنى عليهم قبل وجودهم وسمَّاهم عباده المسلمين قبل أن يظهرهم ، ثم نوه بهم وسماهم كذلك بعد أن أوجدهم اعتناء بهم ورفعة لشأنهم وإعلاء لقدرهم .

ثم أخبر تعالى أنه فعل ذلك ليشهد عليهم رسوله ، ويشهدوا هم على

(١) الصواعق المرسلة (٤ / ١٣٦٣ - ١٣٦٤) .

الناس ، فيكونوا مشهوداً لهم بشهادة الرسول ، شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم ، فكان هذا التنويه وإشارة الذكر لهذين الأمرين الجليلين ولهاتين الحكمتين العظيمتين .

والمقصود أنهم إذا كانوا بهذه المنزلة عنده تعالى فمن المحال أن يحرمهم كلهم الصواب في مسألة فيفتي فيها بعضهم بالخطأ ولا يفتي فيها غيره بالصواب ويظفر فيها بالهدى من بعدهم والله المستعان[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده ، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته ، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، فحقُّ جهاده أن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله ، فيكون كله لله، وبالله ، لا لنفسه ، ولا بنفسه ، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ، ومعصية أمره ، وارتكاب نهيه ، فإنه يعد الأمانيَّ ويمني الغرور ، ويعد الفقر ، ويأمر بالفحشاء ، وينهى عن التقى والهدى ، والعفة والصبر ، وأخلاق الإيمان كلها فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره ، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان ، وعدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

واختلفت عبارات السلف في حقِّ الجهاد ، فقال ابن عباس : هو استفراغ الطاقة فيه ، وألا يخاف في الله لومة لائم .

وقال مقاتل : اعملوا لله حق عمله ، واعبده حقَّ عبادته .

وقال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى . ولم يصب من قال : إن الآيتين منسوختان[2] لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق .

وحقّ تقاته وحقّ جهاده : هو ما يطيقه كل عبد في نفسه ، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة ، والعجز ، والعلم ، والجهل ، فحق

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ١٦٧ - ١٦٨) .

(٢) انظر الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي (٤٤) .

التقوى ، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء ، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء ، وتأمل كيف عقب الأمر بذلك قوله : ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الحج : ٧٨] .

والحرج : الضيق ، بل جعله واسعاً يسع كل أحد ، كما جعل رزقه يسع كلّ حي وكلف العبد بما يسعه العبد ، ورزق العبد ما يسع العبد ، فهو يسع تكليفه ، ويسعه رزقه ، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفيَّة السَمْحَةِ »[1] . أي بالملة ، فهي حنيفيَّة في التوحيد ، سمحة في العمل . وقد وسع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه ، ورزقه ، وعفوه ، ومغفرته ، وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد ، وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة ، أو صدقة ، أو حسنة ماحية ، أو مصيبة مكفرة ، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه ، وأطيب ، وألذ ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام ، ويسعه الحلال ، فلا يضيق عنه ، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله ، ويسراً بعده ، « فلن يغلب عسر يسرين » فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده ، فكيف يكلفهم مالا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه[2] .

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١ / ١٩٢) عن حبيب بن ثابت مرسلاً .
والخطيب في تاريخه (٧ / ٢٠٩) .
وضعفه الألباني كما في غاية المرام (٢٠) حديث رقم (٨) .
ويغني عنه ما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى : (٣ / ٣٥٥) (المحققة) عن ابن عباس رضي الله عنه قال : **قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأديان أحبُ إلى الله؟ قال: « الحنفية السمحة »**.
والبخاري في الأدب المفرد (١ / ٣٨٥) .
والطبراني في الكبير (٧ / ٢٢٧) رقم (١١٥٧٢) .
وأحمد في الزهد مرسلاً (٢٨٩ و ٣١٠) .
والبخاري معلقاً في الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب : الدين يسر (١ / ١١٦) قال الحافظ ابن حجر **«إسناده حسن» وكذا قال الألباني كما في الصحيحة رقم (٨٨١) وتمام المنة صـ (٤٥). والله أعلم .**

(٢) زاد المعاد (٣ / ٨-٩) .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج : ٧٨] .

و « ملة » منصوب على إضمار فعل ، أي : اتبعوا والزموا ملة إبراهيم ، ودل على المحذوف ما تقدم من قوله : (وجاهدوا في الله حق جهاده) وهذا هو الذي يقال له : الإغراء[(١)] .

وقيل : منصوب انتصاب المصادر ، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا : « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[(٢)(٣)] .

وقال رحمه الله تعالى :

أي : الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن ، فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم ، وقبل وجودهم[(٤)] .

---

(١) الإغراء هو : « أمر المخاطب بلزوم ما يحمد به » .
انظر الألفية بشرح ابن عقيل (٣ / ٣٠١) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه (٣ / ٤٠٧) عن عبد الرحمن بن أبزى .
والدارمي (٢ / ٢٠٢) برقم (٢٦٩١) .
والطبراني في الدعاء (٢ / ٩٢٦) برقم (٢٩٤) .
والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٩) .
وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٢) برقم (٣٣) .
قال النووي « إسناده صحيح » الأذكار (٦٨) .
وقال الهيثمي « رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح » مجمع الزوائد (٦ / ١١٦) .

(٣) **جلاء الأفهام (١٥٤) .**

(٤) **شفاء العليل (٢٨) .**

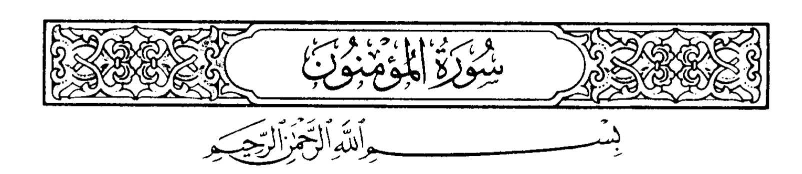
قول الله تعالى ذكره : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] .

أي متى اعتصمتم به تولاكم . ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان . وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد . وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج . وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله[١] .

* * *

(١) مدارج السالكين (١ / ١٧٩ - ١٨٠) .

سُورَةُ المؤْمِنُونَ



قول الله تعالى ذكره : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

[المؤمنون : ١-٧]

علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح ، واستحق اسم العدوان ، ووقع في اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك[١] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠،١١]

والفردوس : اسم يقال على جميع الجنة ، ويقال على أفضلها وأعلاها ، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات .

---

(١) الجواب الكافي (٢٢٧) .

وأصل الفردوس : البستان ، والفراديس : البساتين . قال كعب : هو البستان الذي فيه الأعناب . وقال الليث : الفردوس : جنة ذات كروم مفردس ، أي معرش .

وقال الضحاك : هي الجنة الملتفة بالأشجار ، وهو اختيار المبرد وقال : الفردوس – فيما سمعت من كلام العرب ، الشجر الملتف والأغلب عليه العنب ، وجمعه : الفراديس . قال : ولهذا سمي باب الفراديس بالشام ، وأنشد لجرير :

فقلت للركب إذ جد المسير بنا يا بعد ما بين أبواب الفراديس

وقال مجاهد : هذا البستان بالرومية . واختاره الزجاج ، فقال : هو بالرومية منقول إلى لفظ العرب . قال وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين ، قال حسان :

وإن ثواب الله كل مخلد جنان من الفردوس فيها يخلد[1]

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٢-١٦] .

فاستوعب سبحانه ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماء ، إلى حين بعثه يوم القيامة ، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين ، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين ، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم يقلب الله سبحانه تلك النطفة علقة : وهي قطعة سوداء من

---

(١) حادي الأرواح (٨٨ – ٨٩) وراجع الآية رقم (١٠٧) من سورة الكهف .

دم ، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى ، ثم يصيرها سبحانه مضغة : وهي قطعة لحم أربعين يوماً ، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته[1] .

أن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، والزُّبر : الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله ، وما بعث الله به رسوله ، فقال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون : ٥١-٥٣] .

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم أن يأكلوا من الطيبات ، وأن يعملوا صالحاً ، وأن يعبدوه وحده ، وأن يطيعوا أمره وحده ، وأن لا يتفرقوا في الدين ، فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله قابلين لرحمته ، حتى نشأت خلوف قطَّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ، فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال ، وعلم من أي الحزبين هو ، والله المستعان[2] .

وقال الله سبحانه في إثبات نبوة رسوله باعتبار التأمل لأحواله وتأمل دعوته وما جاء به : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٨-٧٠] .

فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول . وتأمل حال القائل ، فإن كون القول للشيء كذباً وزوراً يعلم من نفس القول تارة وتناقضه واضطرابه وظهور شواهد

(١) تحفة المودود (٢١٣) .

(٢) إعلام الموقعين (٢ / ٢٢٤) .

الكذب عليه ، فالكذب باد على صفحاته وباد على ظاهره وباطنه ، ويعرف من حال القائل تارة فإن المعروف بالكذب والفجور والخداع لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب وفجور . بل قلب هذا وقصده وقوله وعمله يشبه بعضه بعضاً ، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضاً فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحيئذ تتبين لهم حقيقة الأمر وأن ما جاء به في أعلى مراتب الصدق[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٩-٧١] .

فأخبر سبحانه أن الحق لو اتبع أهواء العباد فجاء شرع الله ودينه بأهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . ومعلوم أن عند النفاة[2] يجوز أن يرد شرع الله ودينه بأهواء العباد وأنه لا فرق في نفس الأمر بين ما ورد به وبين ما تقتضيه أهواؤهم إلا مجرد الأمر وأنه لو ورد بأهوائهم جاز وكان تعبداً وديناً ، وهذه مخالفة صريحة للقرآن وأنه من المحال أن يتبع الحق أهواءهم وأن أهواءهم مشتملة على قبح عظيم لو ورد الشرع به لفسد العالم أعلاه وأسفله وما بين ذلك ومعلوم أن هذا الفساد إنما يكون لقبح خلاف ما شرعه الله وأمر به ، ومنافاته لصلاح العالم علويه وسفليه ، وأن خراب العالم وفساده لازم لحصوله ولشرعه ، وأن كمال حكمة الله وكمال علمه ورحمته وربوبيته يأبى ذلك ويمنع منه ومن يقول

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٦٩ - ٤٧٠) .

(٢) أي نفاة الحكمة والتعليل .

الجمع في نفس الأمر سواء يجوِّز ورود التعبد بكل شيء سواء كان من مقتضى أهوائهم وخلافها[١] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين . فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلاً ، يوصل إلى عابديه النفع ويدفع عنهم الضر . فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه ، بل إن قَدِرَ على قهره والتفرد بالإلٰهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به ، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه .

فلابد من أحد أمور ثلاثة :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف فيهم ولايتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه . فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون .

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد ، من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا ربَّ له غيره .

فذاك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٣٨) .

أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان[١] .

قول الله تعالى ذكره -: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧،٩٨] .

والهمزات : جمع همزة كتمرات وتمرة . وأصل الهمز الدفع ، قال أبو عبيد عن الكسائي :

همزته ، ولمزته ، ولهزته ، ونهزته – إذا دفعته .

والتحقيق : أنه دفع بنخز وغمز ، يشبه الطعن ، فهو دفع خاص ، فهمزات الشياطين : دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب .

قال ابن عباس والحسن : « همزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم » .

وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم ، وهذا قول مجاهد ، وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون . وظاهر الحديث[٢]: أن الهمز نوع غير النفخ والنفث .

وقد يقال – وهو الأظهر -: إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصابتهم لابن آدم ، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً ، كنظائر ذلك .

ثم قال : ﴿ **وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ قال ابن زيد : في أموري .

وقال الكلبي : عند تلاوة القرآن .

وقال عكرمة : عند النزع والسياق ، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه . فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه ،

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٦٣ – ٤٦٤) .

(٢) راجع هامش (٢) صـ (٥٦) . من سورة النحل .

وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) [المؤمنون : ٩٦] . فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن ، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم[(١)] .

- قول الله تعالى ذكره : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠]

تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب إليها .

وتأمل قوله أولاً (ربّ) استغاث بربه ، ثم التفت إلى الملائكة الذين أُمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى فقال : (ارجعوني) ثم ذكر سبب سؤال الرجعة ، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه ، فيقال له (كلا) لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمّرت ما يتذكر فيه من تذكر . ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له في المهلة ليتذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب ، وإنما ذلك شيء يقوله لسانه ، وأنه لو رد لعاد لما نهي عنه وأنه من الكاذبين . فحكمه أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل فإنه لا فائدة في ذلك ، ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الأولى[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾

[المؤمنون : ١١٥، ١١٦]

فنزه سبحانه نفسه عن ذلك كما نزهها عن الشريك والولد ، والصاحبة وسائر العيوب والنقائص من السنة والنوم واللُغوب والحاجة واكتراثه بحفظ

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٩٥-٩٦) .

(٢) عدة الصابرين (١٨٤ - ١٨٥) .

السموات والأرض ، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه كما يظنه أعداؤه المشركون يُخْرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئاً منها ، فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه ، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثاً وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته ، ويعرف المبطلون منهم أنهم كانوا كاذبين ، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم ، فمن أنكر ذلك فقد أنكر إلّهيته وربوبيته وملكه الحق وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه ، كما قال المؤمن لصاحبه الذي حاوره في المعاد وأنكره : (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً) [الكهف : ٣٧][(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

أي لغير شيء ، لا تؤمرون ولا تنهون ، ولا تثابون ولا تعاقبون. والعبث قبيح ، فدل على أن قبح هذا مستقر في الفطر والعقول . ولذلك أنكره عليهم إنكار منبه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم ، وأنهم لو فكروا ، وأبصروا لعلموا أنه لا يليق به ، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً ، لا لأمر ، ولا لنهي ، ولا لثواب ولا لعقاب . وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهي والجزاء مستقر في العقول والفطر وأن من جوز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى ما لايليق به ، وإلى ما تأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا[(٢)] .

وقال رحمه الله :

نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته ، وأنه لايليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة وأيضاً فإنه سبحانه يحب من عباده أموراً يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل

---

(١) عدة الصابرين (١٦١) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣٧) .

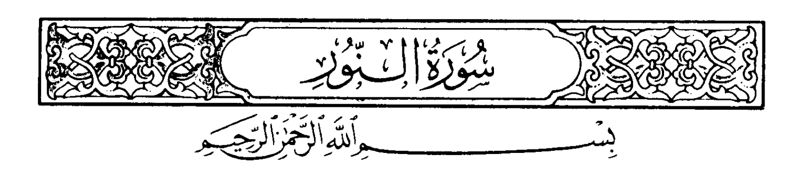
إلا في دار الابتلاء والامتحان ، فإنه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصـول هـذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصـول الملزوم بدون لازمه[1] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٨) .

سُورَةُ النُّورِ





قول الله تعالى ذكره : ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٣] .

والصواب : القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء ، وهي مشتملة على خبر وتحريم ، ولم يأت من ادّعى نسخها بحجة ألبتة ، والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى ، فإنهم أشكل عليهم قوله : ﴿ **الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة** ﴾ هل هو خبر أو نهي ، أو إباحة ؟ فإن كان خبرا فقد رأينا كثيراً من الزناة ينكح عفيفة ، وإن كان نهياً فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة ، فيكون نهيا له عن نكاح المؤمنات العفائف ، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني ، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعا ، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهاً يصح حملها عليه .

فقال بعضهم : المراد من النكاح الوطء والزنا ، فكأنه قال الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة ، وهذا فاسد ، فإنه لا فائدة فيه ، ويصان كلام الله – تعالى – عن حمله على مثل ذلك ، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية ، فأي فائدة في الإخبار بذلك ؟

ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه .

ثم قالت طائفة : هذا عامُّ اللفظ خاصُّ المعنى ، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة ، وهي « عناق » البغيّ وصاحبها فإنه أسلم ، واستأذن رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها . فنزلت هذه الآية[١] .

وهذا أيضا فاسد ، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه ولو كان ذلك لبطل الاستدلال به على غيرها .

وقالت طائفة : بل الآية منسوخة بقوله : (وأنكحوا الأيامى منكم) [النور : ٣٢] . وهذا أفسد من الكل ، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ، ولا تُنَاقِضُ إحداهما الأخرى ، بل أَمَرَ سبحانه بإنكاح الأيامى ، وحرم نكاح الزانية ، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمةَ ، وذوات المحارم ، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا ؟

فإن قيل : فما وجه الآية ؟

قيل : وجهها – والله أعلم – أن المتزوج أُمِرَ أن يتزوج المحصنة العفيفة ، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط ، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة[٢] ، والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه ، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان ، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به ، فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله ، أو لا يلتزمه ، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله ، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه ، لم يصح النكاح ، فيكون زانياً ، فظهر معنى قوله : ﴿ **لا ينكح إلا زانية أو مشركة** ﴾ وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة .

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة ،

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٨ / ٧١) .
وأبو داود (٦ / ٤٨) في النكاح ، باب : في قوله تعالى : ﴿ الزاني لاينكح إلا زانية ﴾ .
والترمذي (٥ / ٣٠٧) تفسير سورة النور وقال : « حسن غريب » .
والنسائي (٦ / ٦٦) في النكاح ، باب : تزويج الزانية .
والحاكم (٢ / ١٦٦) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ **وءاتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات** ﴾ [النساء : ٢٥] .
وقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ [المائدة : ٥] .

ومقتضى العقل ، فإن الله – سبحانه – حرم على عبده أن يكون قرْناناً[(١)] ديوثاً زوج بغي ، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا : زوج قحبة ، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك .

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية والله الموفق[(٢)] .

وقال رحمه الله :

وأما نكاح ، الزانية فقد صرح الله – سبحانه وتعالى – بتحريمه في سورة النور ، وأخبر أن مَنْ نكحها ، فهو إما زانٍ أو مشرك ، فإنه إما أن يلتزم حكمه – سبحانه – ويعتقد وجوبه عليه ، أولاً ، فإن لم يلتزمه ولم يعتقده ، فهو مشرك . وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه ، فهو زان ، ثم صرح بتحريمه فقال : ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ [النور : ٣] .

ولا يخفى أن دعوى نسخ الآية بقوله : (وأنكحوا الأيامى منكم) [النور : ٣٤] . مِنْ أضعف ما يقال ، وأضعف منه حمل النكاح على الزنى إذ يصير معنى الآية : الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة ، والزانية لا يزني بها إلا زان أو مشرك ، وكلام الله ينبغي أن يصان عن مثل هذا . وكذلك حمل الآية على امرأة بغي مشركة في غاية البعد عن لفظها وسياقها ، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان ، وهو العفة ، فقال : (فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) [النساء: ٢٥].

فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها ، وليس هذا من باب دلالة المفهوم ، فإن الأبضاع في الأصل على التحريم ، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع ، وما عداه ، فعلى أصل التحريم .

---

(١) القَرْنانُ : الذي يُشارَكُ في امرأته كأن يقرن به غيره ، وهو نعت سوءٍ في الرجل الذي لا غيرة له . لسان العرب (٦ / ٣٦١٢) .

(٢) **إغاثة اللهفان** (١ / ٦٥ – ٦٦) .

وأيضاً فإنه سبحانه قال : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات) [النور : ٢٦] . والخبيثات : الزواني . وهذا يقتضي أن من تزوج بهن ، فهو خبيث مثلهن .

وأيضاً . فمن أقبح القبائح أن يكون الرجل زوج بغي ، وقُبْحُ هذا مستقرٌ في فطر الخلق ، وهو عندهم غاية المسبة .

وأيضاً : فإن البغي لا يؤمن أن تفسد على الرجل فراشه ، وتعلق عليه أولاداً من غيره ، والتحريم يثبت بدون هذا .

وأيضاً : فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنى .

وأيضاً فإن مرثد بن أبي مرثد الغنوي استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج « عناق » وكانت بغيًّا ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آية النور وقال : « لا تنكحها »[١][٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور : ١٣] .

فحكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب ، وإن كان خبره مطابقاً . وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله ، كما أخبر الله تعالى به عنه . فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا ، فأي توبة له ؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه[٣]؟ .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ

(١) تقدم في أول السورة .
(٢) زاد المعاد (٥ / ١١٤ - ١١٥) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٣٦٥) .

أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] .

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية ، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] .

وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين ، والكلمات الطيبات للطيبين ، وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين ، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، وهي تعم ذلك وغيره ، فالكلمات ، والأعمال ، والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين ، والكلمات ، والأعمال ، والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين ، فالله سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة ، وجعل الخبيث بحذافيره في النار فجعل الدور ثلاثة : داراً أخلصت للطيبين ، وهي حرام على غير الطيبين ، وقد جمعت كل طيب وهي الجنة ، وداراً أخلصت للخبيث والخبائث ، ولا يدخلها إلا الخبيثون ، وهي النار ، وداراً امتزج فيها الطيب والخبيث ، وخلط بينهما وهي هذه الدار ، ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط ، وذلك بموجب الحكمة الإلهية ، فإذا كان يوم ميعاد الخليقة ، ميز الله الخبيث من الطيب ، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، فعاد الأمر إلى دارين فقط : الجنة ، وهي دار الطيبين ، والنار ، وهي دار الخبيثين ، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم ، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم ، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور ، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم ، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام حكمة بالغة ، وعزة باهرة قاهرة ، ليري عباده كمال ربوبيته ، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته ، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٤٩) .

المفترين الكذابين ، لا رسله البررة الصادقون .

قال الله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقًّا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) [النحل : ٣٨،٣٩][(١)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] .

فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج .

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد ، عظيمة الخطر جليلة القدر :

إحداها : حلاوة الإيمان ولذته ، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى . فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه ، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة ، والعين رائد القلب . فيبعث رائده لنظر ما هناك ، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله ، تحرك اشتياقا إليه ، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده ؛ كما قيل :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كلَّه أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة ، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته فإن النظر يولد المحبة . فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه . ثم تقوى فتصير صبابة . ينصب إليه القلب بكليته . ثم تقوى فتصير غراما يلزم القلب . كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه . ثم يقوى فيصير عشقاً . وهو الحب المفرط ، ثم يقوى فيصير شغفا . وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله . ثم يقوى فيصير تتيما . والتتيم التعبد ومنه

(١) زاد المعاد (١ / ٦٦) .

« تيمه الحب » إذا عبده و « تيَّمَ الله » عبد الله . فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له . وهذا كله جناية النظر . فحينئذ يقع القلب في الأسر . فيصير أسيرا بعد أن كان ملكا ، ومسجونا بعد أن كان مطلقا . يتظلم من الطرف ويشكوه . والطرف يقول : « أنا رائدك ، ورسولك وأنت بعثتني » . وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له ، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب . فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره[1] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

فمنعهن من الضرب بالأرجل ، وإن كان جائزا في نفسه ؛ لئلا يكون سببا إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن[2] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وهذه الآية في سورة مدنية[3] ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه . وأتى بأداة « لعل » المشعرة بالترجي ، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح . فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم[4] .

وقال رحمه الله تعالى :

فكل تائب مفلح ، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به ، وترك ما

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٤٧) .

(٢) إعلام الموقعين (٣ / ١٨١) .

(٣) قال القرطبي « مدنية بالإجماع » (٦ / ٤٥٥٠) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ١٧٨) .

نهي عنه[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٣] .

فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى ، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر ، وأخبر أنه تعالى يغنيهم ، فما محل كل من الآيتين ؟

فالجواب : أن قوله : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾ في حق الأحرار ، أمرهم الله تعالى أن يستعفوا حتى يغنيهم الله من فضله فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم .

وأما قوله : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] .

فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن . هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد ، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل ، وإن استعمل في حق المرأة . ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح ، فالآية الأولى في حكم تزوجهم لأنفسهم ، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم .

وقوله في هذا القسم : (إن يكونوا فقراء) يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه ، فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة . وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقاً فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية وهي غناه ما دام عبداً ، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق ، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق ، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله ، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته ، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى

(١) مدارج السالكين (٣٠٥/١ - ٣٠٦) .

الذي ينتظر بنكاح الحر ، والله أعلم .

وفي المسند وغيره مرفوعاً[١] « ثلاثة حق على الله عونهم : المتزوج يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، وذكر الثالث »[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٣]

فهذا نهي عن إكراههن على كسب المال بالبغاء ، كما قيل : إن عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين كان له إماء يكرههن على البغاء[٣] .

وليس هذا استكراها للأمة على أن يزني بها هو فإن هذا بمنزلة التمثيل بها ، وذاك إلزام لها بأن تذهب هي ، فتزني ، مع أنه يمكن أن يقال العتق بالمُثْلَة لم يكن مشروعاً عند نزول الآية ، ثم شرع بعد ذلك[٤] .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢ / ٤٣٧) .
والترمذي (٤ / ١٥٧ - ١٥٨) في فضائل الجهاد ، باب : ما جاء في المجاهد والناكح ... وقال : حسن .
والنسائي (٦ / ٦١) في الجهاد ، باب : معونة الله الناكح .
وابن ماجه (٢ / ٨٤١ - ٨٤٢) في العتق ، باب : المكاتب .
والحاكم (٢ / ١٦٠) .

(٢) روضة المحبين (٢٩٦ - ٢٩٧) .

(٣) رواه الطبري (١٨ / ١٣٢) .
ومسلم (٥ / ٨٧٩) في التفسير ، باب : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ .
وأبو داود (٦ / ٤٢٢) في الطلاق ، باب : في تعظيم الزنا .
وراجع تفسير ابن كثير (٣ / ٣٠٠) .

(٤) إعلام الموقعين (٢ / ٨-٩) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور : ٣٥] .

ثم ذكر من أمسك عنه هذا النور و لم يجعله له فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٣٩]

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله »[1] .

وقال تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) [الأنعام : ٣٩] .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١٠ / ١٢٧) مطولاً . وصحح إسناده أحمد شاكر .
وقال الهيثمي « رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات » .
مجمع الزوائد (٧ / ١٩٣ - ١٩٤) .
ورواه الترمذي (٥ / ٢٦) في الإيمان ، باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة .
وقال : حديث حسن .
والحاكم (١ / ٣٠) مطولاً ، وصححه .
وصححه الألباني ، كما في الصحيحة (٣ / ٦٤) رقم (١٠٧٦) .

وهذه الظلمات ضد الأنوار التي يتقلب فيها المؤمن فإن نور الإيمان في قلبه ومدخله نور ومخرجه نور وعلمه نور ومشيته في الناس نور وكلامه نور ومصيره إلى نور والكافر بالضد . ولما كان النور من أسمائه الحسنى وصفاته كان دينه نوراً ورسوله نوراً وكلامه نوراً وداره نوراً يتلألأ والنور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين ويجري على ألسنتهم ويظهر على وجوههم وكذلك لما كان الإيمان واسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه وكذلك الإحسان صفته وهو المحسن ويحب المحسنين ، وهو صابر يحب الصابرين ، شاكر يحب الشاكرين ، عفو يحب أهل العفو ، حيي يحب أهل الحياء ، ستير[1] يحب أهل الستر ، قوى يحب أهل القوة من المؤمنين ، عليم يحب أهل العلم من عباده ، جواد يحب أهل الجود ، جميل يحب المتجملين ، بَرٌّ يحب الأبرار ، رحيم يحب الرحماء ، عدل يحب أهل العدل ، رشيد يحب أهل الرشد ، وهو الذي جعل من يحبه من خلقه كذلك وأعطاه من هذه الصفات ما شاء وأمسكها عمن يبغضه وجعله على أضدادها فهذا عدله وذاك فضله والله ذو الفضل العظيم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره :

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٥] .

قال أبيّ بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم . وهذا هو النور الذي

---

(١) قال في اللسان :
سَتِيرٌ : على وزن فَعِيلٌ بمعنى فاعل ، أي شأنه وإرادته حُبُّ الستر والصون .. لسان العرب (٤ / ١٩٣٥) .

(٢) شفاء العليل (١٠٥) .

أودعه الله في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكر . فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا .

منهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً عل إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى ، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطي على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً لا باطنا أعطي نوراً ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله عز وجل لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة ، وهي الكوَّة في الحائط فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه . وهي مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن ، وهي الصفاء والرقة ، والصلابة فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله تعالى ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها : (أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح : ٢٩] . وقال تعالى : (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) [التحريم : ٩] .

وفي أثر « القلوب آنية الله تعالى في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها »[1] .

---

(١) انظر رقم (١) من سورة المائدة (٢ / ١٠٦) .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان على طرفي نقيض .

أحدهما : قلب حجري قاس ، لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا برّ ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل جبار جاهل ، لا علم له بالحق ، ولا رحمة فيه للخلق .

وبإزائه قلب ضعيف مائيٌ لا قوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه من قوي وضعيف ، وطيب وخبيث .

وفي الزجاجة مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة ، وهي حاملته . ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار .

فهذه مادة نور المصباح . وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن : هو من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها عن الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء .

فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ، ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته وقويت مادة ضوء النار به ، فيه كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن : قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فيكاد ينطق بالحق ، وإن لم يسمع فيه أثراً ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته ، فيكون نوراً على نور .

فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به

مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة . فذكر سبحانه وتعالى نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلب عباده المؤمنين : النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي، فهما نوران عظيمان، أحدهما أعظم من الآخر .

وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يعش فيه آدمي ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يكون البتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ميتة ، وقلب فقد منه هذا النور : ميت ولابد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد فُسر قوله تعالى : ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ بكونه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله ، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به . ومنه اشتق له اسم النور ، الذي هو أحد الأسماء الحسنى .

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين : إضافة صفة إلى موصوفها وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول كقوله عز وجل : (وأشرقت الأرض بنور ربها) [الزمر : ٦٩] . فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى ، إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء المشهور[2] « أعوذ بنور

---

(١) الوابل الصيب (٦٥ – ٦٨) دار البيان .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ .

وعند مسلم (٥ / ٥٦٧) الذكر ، باب : الأدعية من حديث ابن عباس رضي الله عنه . بلفظ :
« اللهم لك أسلمت .... اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ... » .
والإمام أحمد (١ /٣٠٢) .

وجهك الكريم : أن تُضلَّني . لا إله إلا أنت » .

وفي الأثر الآخر « أعوذ بوجهك ، أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات »[١] .

فأخبر صلى الله عليه وآله وسلم : أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله ، كما أخبر تعالى : أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

وفي معجم الطبراني والسنة له ، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما : عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : « ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه »[٢] .

وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض .

وأما من فسرها بأنه مُنَوِّر السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود.

والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها .

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال « قام بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٣] .

= وهو عند البخاري مختصرًا (١٣ / ٣٨٠) في التوحيد باب : (وهو العزيز الحكيم) .

(١) أثر مشهور في قصة الطائف ، رواها ابن إسحاق بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا (٢ / ٢٨) لكن الدعاء وأوله « اللهم أشكو إليك .. » رواه دون سند .
قال الهيثمي « رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس **ثقة** وبقية رجاله **ثقات**»(٦ / ٣٥) وانظر فقه السيرة (١٣٣) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩ / ٢٠٠) قال الهيثمي « فيه أبو عبد السلام ... مجهول .. ، وعبد الله بن مكرر أو مكرز على الشك لم أر من ذكره .

(٣) رواه مسلم (١ / ٤٢٣) كتاب الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : نور . أنَّى أراه ؟! »[(١)] .

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : معناه : كان ثَمَّ نور ، وحال دون رؤيته نور ، فأنَّى أراه ؟

قال : ويدل عليه : أن في بعض الألفاظ الصحيحة « هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً »[(٢)] .

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس ، حتى صحَّحه بعضهم فقال « نور إني أراه » على أنها ياء النسب ، والكلمة كلمة واحدة ، وهذا خطأ لفظاً ومعنى . وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ : أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه ، وكان قوله « أنى أراه » كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث ، ورده بعضهم باضطراب لفظه .

وكل هذا عدول عن موجب الدليل .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له : إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج . وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك .

وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف في الحقيقة ، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه . وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين ، حيث قال : إنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل . ولم يقل بعيني رأسه . ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس رضي الله عنهما .

ويدل على صحته : ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رضي الله عنه : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر « حجابه النور » فهذا النور هو – والله أعلم – النور المذكور في حديث أبي ذر رضي الله عنه « رأيت نورا » .

(١) رواه مسلم (١ / ٤٢٢) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله تعالى .
والترمذي (٥ / ٣٦٩) في التفسير ، باب : تفسير سورة النجم .

(٢) رواه مسلم (١ / ٤٢٢) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية الله تعالى ورواه غيره .
وانظر « دقائق التفسير » الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٤ / ٤٧٤ – ٤٧٥) .

فصـــل

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾ هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن ، كما قال أبي بن كعب وغيره .

وقد اختلف في مفسر الضمير في « نوره » فقيل : هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي مثل نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقيل : مفسره المؤمن ، أي مثل نور المؤمن[1] .

والصحيح : أنه يعود على الله سبحانه وتعالى ، والمعنى : مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده وأعظم عباده نصيبا من هذا النور: رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور ، وهو وجه الكلام ، يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم لفظا ومعنى .

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى ، إذ هو معطيه لعبده ، وواهبه إياه ويضاف إلى العبد ، إذ هو محله وقابله . فيضاف إلى الفاعل والقابل . ولهذا النور فاعل وقابل ، ومحل وحامل ، ومادة .

قد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعل : هو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادي لنوره من يشاء . والقابل : العبد المؤمن . والمحل : قلبه . والحامل : همته وعزيمته وإرادته . والمادة : قوله وعمله .

وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره : ما تقر به عيون أهله ، وتبتهج به قلوبهم .

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان :

---

(١) راجع تفسير الطبري (١٨ / ١٣٦) .

إحداهما : طريقة التشبيه المركب ، وهى أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف ، وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به. وعلى هذا عامة أمثال القرآن.

فتأمل صفة المشكاة ، وهي كُوَّة تنفذ لتكون أجمع للضوء ، قد وضع فيها مصباح . وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً ، من زيت شجرة في وسط القراح ، لا شرقية ولا غربية ، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار ، بل هي في وسط القراح ، محمية بأطرافه ، تصيبها الشمس أعدل إصابة . والآفات إلى الأطراف دونها . فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار ، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وصفه في قلب عبده المؤمن ، وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل ، فقيل : المشكاة صدر المؤمن والزجاجة : قلبه . شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها . وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة ، فهو يرحم ويحسن ، ويتحنن ، ويشفق على الخلق برقته ، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه . ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد في أمر الله ويتصلب في ذات الله تعالى ، ويغلظ على أعداء الله تعالى ، ويقوم بالحق لله تعالى .

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها»[1] والمصباح هو نور الإيمان في قلبه ، والشجرة المباركة : هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق . وهي مادة المصباح التي يتَّقد منها . والنور على النور نور الفطرة الصحيحة ، والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نوراً على نور . ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من

(١) راجع (٢ / ١٠٦) المائدة .

الأثر ، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع ، والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل ألبتة ، بل يتصادقان ويتوافقان . فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة ، والخيالات الفاسدة ، من الظنون ، والجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات . فهي في صدره كما قال الله : ﴿ **أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور** ﴾ [النور : ٤٠] .

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام واشتملت عليها أكمل اشتمال ، فإن الناس قسمان :

أهل الهدى والبصائر . الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الله سبحانه وتعالى ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه أمرها على من قل نصيبه من العقل والسمع ، فيظنها شيئاً له حاصل ينتفع به ، وهي ﴿ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ [النور : ٣٩،٤٠] .

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، أصحاب العلم النافع ، والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره ، ولم يعارضوه بالشبهات ، وأطاعوه في أوامره ، ولم يضيعوها بالشهوات . فلاهم في علمهم من أهل الخوض الخراصين ، (الذين هم في غمرة ساهون) [الذاريات : ١١] . ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم ، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون . أضاء لهم نور الوحي المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات

في ظلمات آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتهوكون ، وفي ريبهم يترددون ، مغترين بظاهر السراب ، مُمْحِلين مُجْدبين مما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الحكمة وفصل الخطاب ، إن عندهم إلا نخالة الأفكار ، وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها ، وقدموها على السنة والقرآن (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) [غافر : ٥٦] . أوجبه لهم اتباع الهوى ، ونخوة الشيطان ، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

فصــــل

القسم الثاني : أهل الجهل والظلم ، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم ، الذين قال الله تعالى فيهم : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) [النجم : ٢٣] .

وهؤلاء قسمان :

أحدهما : الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال . فهؤلاء أهل الجهل المركب ، الذين يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله : وهم (ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) [المجادلة : ١٨] .

فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب ، الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه . ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان . كما هو حال من أمَّ السراب فلم يجده ماءً ، بل انضاف إلى ذلك : أنه وجد عنده أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل ، فوفاه إياه بمثاقيل الذر . وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه ، فجعله هباء منثوراً ، إذ لم يكن خالصاً لوجهه ، ولا على سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً

نافعة كذلك هباء منثورا ، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه .

و « السراب » ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض ، كأنه ماء يجري .

و « القيعة » والقاع : هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد .

فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله : بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمه ، فيخيب ظنه ، ويجده ناراً تتلظى .

فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس ، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء ، وإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم : (فسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) [محمد : ١٥]. وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله تعالى صيرها الله تعالى حميما ، وسقاهم إياه ، كما أن طعامهم : (من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع) [الغاشية : ٦،٧] . وهو تلك العلوم ، والأعمال الباطلة ، التي كانت في الدنيا كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع .

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) [الكهف : ١٠٣،١٠٤] . وهم الذين عنى الله بقوله : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) [الفرقان : ٢٣] .

وهم الذين عنى بقوله تعالى : (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) [البقرة : ١٦٧] .

القسم الثاني من هذا الصنف : أصحاب الظلمات .

وهم المنغمسون في الجهل ، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد ، واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى .

فظلمات : جمع ظلمة ، وهي ظلمة الجهل ، وظلمة الكفر ، وظلمة الظلم واتباع الهوى ، وظلمة الشك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم . والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور .

فإن المعرض عن ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات : قوله ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمة ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من النور جَدَّ في الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره . فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى . كما قيل :

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ووافقها قِطْعٌ من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ، ونحاتة الأذهان ، جال وصال ، وأبدى وأعاد ، وقعقع وفرقع . فإذا طلع نور الوحي ، وشمس الرسالة انحَجَر في جحرة الحشرات .

قوله : (في بحر لجي) « اللجي » العميق ، منسوب إلى لجة البحر . وهو معظمه .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب** ﴾ تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه .

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر وأنها أمواج بعضها فوق بعض .

والضمير الأول في قوله « يغشاه » راجع إلى البحر . والضمير الثاني في

قوله « من فوقه » عائد إلى الموج .

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب .

فهاهنا ظلمات : ظلمة البحر اللجي ، وظلمة الموج الذي فوقه ، وظلمة السحاب الذي فوقه ذلك كله ، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكد يراها .

واختلف في معنى ذلك :

فقال كثير من النحاة : هو نفي لمقاربة رؤيتها ، وهو أبلغ من نفيه الرؤية ، وأنه قد ينفي وقوع الشيء ولا تنفي مقاربته . فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه .

قال هؤلاء : « كاد » من أفعال المقاربة ، لها حكم سائر الأفعال في النفي والإثبات . فإذا قيل : كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل . فإذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفي لمقاربة الفعل .

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد . وفي ذلك إثبات رؤيتها بعد أعظم العسر ، لأجل تلك الظلمات .

قالوا : لأن « كاد » لها شأن ليس لغيرها من الأفعال . فإنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قلت : ماكدت أصل إليك . فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة . فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت : كاد زيد يقوم فهي نفي لقيامه ، كما قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ [الجن : ١٩] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ [القلم : ٥١] . وأنشد بعضهم في ذلك لغزا :

أنحوي هذا العصر : ما هي لفظة	جرت في لسان جرهم وثمود
وإذا استعملت في صورة النفي أثبتت	فإن أثبتت قامت مقام جحود؟

وقالت فرقة ثالثة ، منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره : إن استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها ، كقولك : كاد زيد يقوم . واستعمالها منفية يقتضي نفيه

بطريق الأولى . فهي عنده تنفي الخبر ، سواء كانت منفية أو مثبتة . فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يقم ، واحتج بأنها إذا نفيت وهي من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل ، وهو أبلغ من نفيه . وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه . واعتذر عن مثل قوله تعالى : (فذبحوها وما كادوا يفعلون) [البقرة : ٧١] . وعن مثل قوله : وصلت إليك وما كدت أصل ، وسلمت وما كدت أسلم ، بأن هذا وارد على كلامين متباينين أي فعلت كذا بعد أن لم أكن مقارباً له . فالأول يقتضي وجود الفعل . والثاني يقتضي أنه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيساً منه . فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة : إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها . فإذا كانت في الإثبات فهي لمقاربة الفعل ، سواء كانت بصفة الماضي أو المستقبل . وإن كانت في طرف النفي فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربته نحو قوله (لم يكد يراها) وإن كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الإثبات ، نحو قوله : (فذبحوها وما كادوا يفعلون) .

فهذه أربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

والصحيح : أنها فعل يقتضي المقاربة . ولها حكم سائر الأفعال ، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها . فإنها لم توضع لنفيه ، وإنما استفيد من لوازم معناها فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً ، فيكون منفياً باللزوم .

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة ، كما إذا قلت : لا يكاد البطال يفلح ، ولا يكاد البخيل يسود ، ولا يكاد الجبان يفرح . ونحو ذلك .

وإن كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد أن لم يكن مقارباً . كما قال ابن مالك[1] .

---

(١) راجع شرح ابن عقيل على الألفية (١ / ٣٢٢) .

فهذا التحقيق في أمرها .

والمقصود : أن قوله (لم يكد يراها) إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر . فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :

إذا غَيَّر النأي المحبين ، لم يكد رسيس الهوى من حب مَيَّة يبرح

أي لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول ؟.

فشبه سبحانه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد ، فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمّله ورجاه .

وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج ، الذي قد غشيه السحاب من فوقه .

فياله تشبيهاً ما أبدعه ، وأشد مطابقة لحال أهل البدع والضلال ، وحال من عبد الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم وأنزل به كتابه .

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم .

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم . فهي سراب لا حاصل لها ، وظلمات لا نور فيها .

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد . ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه[1] .

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٦ - ١٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

ذكر سبحانه للكافرين مثلين : مثلا بالسراب ، ومثلا بالظلمات المتراكمة وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان .

أحدهما : من يظن أنه على شيء ، فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل ، وأهل البدع والأهواء ، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم ، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء ، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة ، يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له ، وهكذا الأعمال التي لغير الله ، وعلى غير أمره ، يحسبها العامل نافعة له ، وليست كذلك ، وهذه الأعمال التي قال الله عز وجل فيها : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) [الفرقان : ٢٣] .

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء ، والشجر والنبات والعالم فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها ، والسراب لا حقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ما تحت قوله : ﴿ **يحسبه الظمآن ماء** ﴾ والظمآن : الذي قد اشتد عطشه ، فرأى السراب ، فظنه ماء ، فتبعه ، فلم يجده شيئاً ، بل خانه أحوج ما كان إليه ، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولغير الله جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها ، فلم يجدوا شيئاً ، ووجدوا الله سبحانه ثَمَّ فجازاهم بأعمالهم ، ووفاهم حسابهم .

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث التجلي يوم القيامة : « **ثم يؤتى بجهنم ، تعرض كأنها السراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا ، فيتساقطون في جهنم ، ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟**

فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا ، فيتساقطون »(١) وذكر الحديث .

وهذه حال كل صاحب باطل ، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه .

فإن الباطل لا حقيقة له ، وهو كاسمه باطل .

فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولاحَقٍّ كان متعلقه باطلًا ، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة ، كالعمل لغير الله ، أو على غير أمره ، بطل العمل ببطلان غايته ، وتضرر عامله من بطلانه ، وبحصول ضد ما كان يؤمله ، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده ، لا له ولاعليه ، بل صار معذباً بفوات نفعه ، وبحصول ضد النفع ، فلهذا قال الله تعالى : ﴿ **ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب** ﴾ .

فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى .

فصــــل

النوع الثاني : أصحاب مثل الظلمات المتراكمة ، وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي والهوى فحالهم كحال من كان في بحر لجي ، لا ساحل له ، وقد غشيه موج ، ومن فوق ذلك الموج موج ، ومن فوقه سحاب مظلم ، فهو في ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب .

وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان .

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٤٣١) في التوحيد ، باب قول الله عز وجل : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ... ﴾ [القيامة : ٢٢] .
ومسلم (١ / ٤٣٤) في الإيمان ، باب : رؤية الله عز وجل .

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة ، وهو الماء ، والظلمات المضادة للنور : نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين ، وهما المثل المائي ، والمثل الناري ، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق ، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور ، والموت المضاد للحياة ، فكذلك الكفار في هذين المثلين . حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ، ولا حقيقة له ، وحظهم الظلمات المتراكمة .

وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار ، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي ، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد .

ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار ، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة ، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وأصحاب المثل الثاني : هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى ، وآثروا الباطل على الحق ، وعموا عنه بعد أن أبصروه ، وجحدوه بعد أن عرفوه ، فهذا حال المغضوب عليهم ، والأول حال الضالين .

وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) – إلى قوله – (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) [النور : ٣٥-٣٨] . فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم ، وهم أهل النور ، والضالين ، وهم أصحاب السراب ، والمغضوب عليهم : وهم أهل الظلمات المتراكمة . والله أعلم .

فالمثل الأول من المثلين : لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع .

والمثل الثاني : لأصحاب العلم الذي لا ينفع ، والاعتقادات الباطلة ، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ، ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج

الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم : بتلاطم أمواج البحر فيه ، وأنها أمواج متراكمة ، من فوقها سحاب مظلم ، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغيِّ والهوى والباطل .

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين ، وليطابق بينهما وبين المثلين فيعرف عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

وأخبر سبحانه ، أن الموجب لذلك : أنه لم يجعل لهم نورا ، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور ، فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل .

فلذلك أقول : جف القلم على علم الله »[(١)] .

فالله سبحانه خلق الخلق فمن أراد هدايته جعل له نوراً وجودياً يحيي به قلبه وروحه كما يحيي به بدنه بالروح التي ينفخها فيه فهما حياتان : حياة البدن بالروح ، وحياة الروح والقلب بالنور . ولهذا سمى سبحانه الوحي روحاً لتوقف الحياة الحقيقية عليه ؛ كما قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [النحل : ٢] .

وقال : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ [غافر : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعل وحيه روحاً ونوراً ، فمن لم يحيه بهذا الروح ، فهو ميت ، ومن لم يجعل له نوراً فهو في الظلمات ماله من نور[(٢)] .

---

(١) مضى برقم (١) ص(٢٥٢)، وهو حديث صحيح .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢٠٥ - ٢٠٩) .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه عن مثل نور الإيمان به ، وبأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله وصدق رسله في قلوب عباده ، وموافقة ذلك لنور عقولهم وفطرهم التي أبصروا بها نور الإيمان بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود وأنه نور على نور ، نور الوحي ونور العقل . نور الشرعة ، ونور الفطرة . نور الأدلة السمعية ، ونور الأدلة العقلية(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع وضلالة ، واتباع هوى ، واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة ، واشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب ؛ فإذا نفذ ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس(٢) الظلام(٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

فضرب سبحانه مثلا لنوره الذي قذفه في قلب المؤمن كما قال أبي بن كعب رضي الله عنه مثل نوره في قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذي أعطاه إياه كما قال في آخر الآية (نور على نور) يعني نور الإيمان على نور القرآن كما قال بعض السلف: يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور وقد جمع الله – سبحانه – بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان في غير موضع من كتابه كقوله : (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) [الشورى :

---

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٥١، ٨٥٢) .

(٢) الحناديس ، جمع حِنْدِس ، وهو الليل الشديد الظلمة – لسان العرب (٢ / ١٠٢٠) .

(٣) الجواب الكافي (٢٦٩) .

٥٢] . وقوله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [يونس : ٥٨] . ففضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن .

وقوله - تعالى -: (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) [الأنعام : ١٢٢] .

وقد تقدمت هذه الآيات . وقال في آية النور : (نور على نور) وهو نور الإيمان على نور القرآن[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : ٤٥] .

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضاءها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها ، فنبه على الاشتراك والاختلاف فيشير إلى يسير منه . فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت ، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ماوراء ذلك ، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك ، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال ، واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره ، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره ، واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت ، وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان . فمن أعظم

(١) مفتاح دار السعادة (٥٩) .

الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله ، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته ، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة أعني بالنوع من قادر واحد حكيم واحد بجميع هذه الأنواع وأضعافها مما لا تعلمه العقول البشرية كما قال : (ويخلق ما لا تعلمون) [النحل : ٨][١] .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ [النور : ٥٤] .

الفعل للمخاطبين . وأصله فإن تتولوا ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والمعنى : أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها ، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم .

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال : « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم »[٢] .

فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه .

فإنه لم يحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم . وإنما حمل أداء الرسالة إليكم .

﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ [النور : ٥٤] . ليس عليه هداهم وتوفيقهم[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ [النور : ٥٨] .

أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة ؛ لئلا يكون دخولهم هجما بغير استئذان فيها ذريعة إلى

---

(١) شفاء العليل (٢٣١ – ٢٣٢) .

(٢) فتح الباري (١٣ / ٥١٢) في التوحيد ، باب : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ... ﴾ الآية .

(٣) الرسالة التبوكية (٤٦ – ٤٧) .

اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة ، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها ، وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور : ٦٢] .

فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه[2]

قول الله تعالى ذكره : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣] .

وفيه قولان للمفسرين[3] :

أحدهما : أنكم لا تدعونه باسمه ، كما يدعو بعضكم بعضا ، بل قولوا : يارسول الله يا نبي الله . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى المفعول ، أي دعاءكم الرسول .

الثاني : أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا . إن شاء أجاب ، وإن شاء ترك ، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بُدٌّ من إجابته ، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى الفاعل ، أي دعاؤه إياكم[4] .

وقال رحمه الله تعالى :

أمر سبحانه أن لا يدعى رسوله بما يدعوا الناس بعضهم بعضاً بل يقال :

---

(١) إعلام الموقعين (١٨١ - ١٨٢) .
(٢) إعلام الموقعين (١ / ٨٧) .
(٣) انظر تفسير الطبري (١٨ / ١٧٧) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٨٩ - ٣٩٠) .

« يارسول الله » ولا يقال : « يامحمد » وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفارُ ، وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه برسول الله . وإذا كان هذا في خطابه فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض بل يدعو له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

ولأن الله سبحانه نهى الأمة أن يجعلوا دعاء الرسول بينهم كدعاء بعضهم بعضا . فلا يسمونه إذا خاطبوه باسمه كما يسمي بعضهم بعضا ، بل يدعونه برسول الله ونبي الله . وهذا من تمام تعزيزه وتوقيره وتعظيمه فهكذا ينبغي أن يخص باقتران اسمه بالصلاة عليه ، ليكون ذلك فرقا بينه وبين ذكر غيره ، كما كان الأمر بدعائه بالرسول والنبي فرقاً بينه وبين خطاب غيره ، فلو كان عند ذكره لا تجب الصلاة عليه كان ذكره كذكر غيره في ذلك ، هذا على أحد التفسيرين في الآية .

وأما عن التفسير الآخر وهو أن المعنى لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا ، فتؤخروا الإجابة بالاعتذار والعلل التي يؤخر بها بعضكم إجابة بعض ، ولكن بادروا إليه إذا دعاكم بسرعة الإجابة ، ومعاجلة الطاعة حتى لم يجعل اشتغالهم بالصلاة عذراً لهم في التخلف عن إجابته والمبادرة إلى طاعته ، فإذا لم تكن الصلاة التي فيها شغل عذراً يستباح بها تأخير إجابته فكيف ما دونها من الأسباب والأعذار ؟ فعلى هذا يكون المصدر مضافا إلى الفاعل ، وعلى القول الأول يكون مضافا إلى المفعول .

وقد يقال – وهو أحسن من القولين –: إن المصدر هنا لم يضف إضافته إلى فاعل ولا مفعول ، وإنما أضيف إضافة الأسماء المحضة ، ويكون المعنى : لا تجعلوا الدعاء المتعلق بالرسول المضاف إليه كدعاء بعضكم بعضا ، وعلى هذا فيعم الأمرين معاً ، ويكون النهي عن دعائهم له باسمه كما يدعو بعضهم بعضا وعن

---

(١) جلاء الأفهام (٨٨) .

تأخير إجابته صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم ، قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله فتمييزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود[١] .

وقال رحمه الله :

فأمر سبحانه أن لايدعى باسمه كما يدعى غيره باسمه ، فكيف يسوغ أن تجعل الصلاة عليه كما تجعل على غيره في دعائه ، والإخبار عنه ؟ هذا مما لايسوغ أصلاً[٢] .

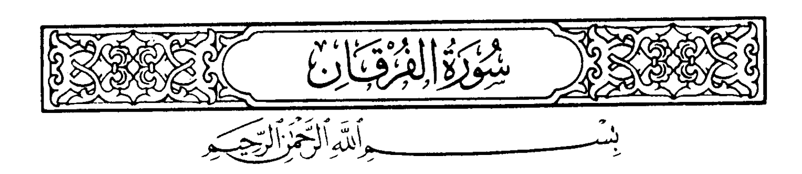
* * *

---

(١) جلاء الأفهام (٢٣٥) .

(٢) جلاء الأفهام (٢٧٩) .

سُورَةُ الفُرْقَانِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قول الله تعالى ذكره : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

البركة نوعان أيضاً .

أحدهما : بركة هى فعله – تبارك وتعالى –، والفعل منها « بارك » ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة ، والمفعول منها « مبارك » وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله – تعالى –

والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها «تبارك» ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك كما قال المسيح : (وجعلني مباركاً أينما كنت) [مريم : ٣١] .

فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك .

وأما صفته « تبارك » فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله : (تبارك الله رب العالمين) [الأعراف : ٥٤] . وقوله : (تبارك الذي بيده الملك) [الملك : ١] .

وقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) [المؤمنون : ١٤] .

وقوله : (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) [الزخرف : ٨٥] .

وقوله : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) [الفرقان : ١] .

وقوله : (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) [الفرقان : ١٠] .

وقوله : (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً) [الفرقان : ٦١] .

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به ولا تطلق على غيره وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما . فجاء بناء « تبارك » على بناء « تعالى » الذي هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك « تبارك » دال على كمال بركته وعظمها وسعتها وهذا معنى قول من قال من السلف : تبارك : تعاظم . وقال آخر : معناه أن تجيء البركات من قبله ، فالبركة كلها منه . وقال غيره : كثر خيره وإحسانه . إلى خلقه وقيل : اتسعت رأفته ورحمته بهم . وقيل : تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ، ومن هنا قيل معناه تعالى وتعاظم وقيل : تبارك : تقدس ، والقدس : الطهارة . وقيل : تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء . وقيل : تبارك ارتفع والمبارك المرتفع . ذكره البغوي[1] . وقيل : تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره ، وقال ابن عباس : جاء بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال. ذكره البغوي أيضاً.

وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصْفاً وفعلاً منه – تبارك وتعالى –، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين[2] وهما متلازمان لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل فإنه فعل لازم مثل « تعالى » و « تقدس » و « تعاظم » . ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوساً ولا عظيماً هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه ، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس فكذلك « تبارك » لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى هذا لازم وهذا متعد ، فعلمت أن من فسر « تبارك » بمعنى « ألقى البركة » و « بارك في غيره » لم يصب معناها ، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب « مجد » والمجد كثرة صفات الجلالة والسعة والفضل وبارك من باب « أعطى وأنعم » ولما كان المتعدي في

(١) تفسير البغوي (٢ / ٢٤٠) .
(٢) تفسير الطبري (١٨ / ١٧٩) .

ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسَّر مَنْ فسّر مِنَ السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال : مجيء البركة كلها من عِنده أو البركة كلها من قبله ، وهذا فرع على تبارك في نفسه وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب « الفتح المكي »[1] وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك ، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك ، ولهذا كان كتابه مباركا ورسوله مباركاً وبيته مباركا والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة فليلة القدر مباركة وما حول المسجد الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة[2] .

وتدبر قول النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام »[3] فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء أعني ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى فأخبر أنه السلام ومنه السلام ، فالسلام له وصفا وملكا وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسماءه كلها سلام وكذا الحمد كله له وصفا وملكا فهو المحمود في ذاته ، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودا فيهبه حمداً من عنده وكذلك العزة كلها له وصفاً وملكا وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه ومن عز من عباده فبإعزازه له . وكذلك الرحمة كلها له وصفاً وملكاً ، وكذلك البركة فهو تبارك في ذاته الذي يبارك

---

(١) هذا من الكتب التي لم تصلنا – في حدود علمي – ولعل الله يمن بظهورها .

(٢) هي أربعة مواضع [الأعراف : ١٣٧] .
و [الإسراء : ١] .
و [الأنبياء : ٧١، ٨١] . والله أعلم .

(٣) رواه مسلم (٢ / ٢٣٦) في المساجد ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته .
والإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ٢٧٥) .
وأبو داود (٤ / ٣٧٧) في الصلاة ، باب : ما يقول الرجل إذا سلم .
والنسائي (٣ / ٦٩) في الصلاة ، باب : الاستغفار بعد التسليم .
وابن ماجه (١ / ٣٠٠) في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب : ما يقال بعد التسليم .

فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركا : (فتبارك الله رب العالمين) [غافر : ٦٤] . (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) [الزخرف : ٨٥] . وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه. وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاهاً : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] . وقال في حديث الشفاعة الطويل : « فأخر ساجداً لربي فيفتح عليّ من محامده بمالا أحسنه الآن » وفي دعاء الهم والغم « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » فدل على أن لله سبحانه وتعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرّبٌ ولا نبى مرسل . وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه وبالله التوفيق[2] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان : ٧،٨] .

أي لو كان رسولاً لخالق السموات والأرض ، لما أحوجه أن يمشي بيننا في الأسواق في طلب المعيشة ولأغناه عن أكل الطعام ، ولأرسل معه ملكاً من الملائكة ، ولألّقى إليه كنزاً يغنيه عن طلب الكسب[3] .

قول الله تعالى ذكره: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ * قَالُواْ

---

(١) رواه مسلم (٢ / ١٢٣) في الصلاة ، باب : ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع .

(٢) بدائع الفوائد (٢ / ١٨٥ - ١٨٧) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٩٧) .

سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ١٧-١٩] .

وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان ، فقوله سبحانه : ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله** ﴾ عام في كل عابد ومن عبده من دون الله ، وأما قوله : ﴿ **فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ فقال مجاهد ، فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح ، عنه قال : « هذا خطاب لعيسى وعزير ، والملائكة »[1] وروى عنه ابن جريج نحوه ، وأما عكرمة والضحاك والكلبي ، فقالوا : هو عام في الأوثان وعبدتها . ثم يأذن -سبحانه - لها في الكلام ، فيقول : ﴿ **أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء** ﴾ قال مقاتل يقول سبحانه- : « أأنتم أمرتموهن بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل ، أي أم هم أخطأوا الطريق » فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم : ﴿ **سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ ، وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير ، ومَنْ عَبَدَهُمُ المشركون من أولياء الله ولهذا قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيها لك ياربنا وتبرئةً مما أضاف إليك هؤلاء المشركون] ﴿ **ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**﴾ نواليهم ، بل أنت ولينا من دونهم، وقال ابن عباس ، ومقاتل « نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إلـٰه » .

وفيها قراءتان :

أشهرهما : (نَتّخِذ) بفتح النون وكسر الخاء ، على البناء للفاعل ، وهي قراءة السبعة .

والثانية : (نُتّخَذ) بضم النون وفتح الخاء ، على البناء للمفعول ، وهي

(١) تفسير الطبري (١٨ / ١٨٩) .

قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع[1] .

وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال . فأما قراءة الجمهور ، فإن الله – سبحانه – إنما سألهم : هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم ، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم ؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقاً للسؤال ؟ فإنه لم يسألهم : هل اتخذتم من دونى من أولياء ؟ حتى يقولوا : (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ؟) ، وإنما سألهم هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك ، أم هم أشركوا من قِبَلِ أنفسهم ؟ فالجواب مطابق أن يقولوا : لم نأمرهم بالشرك ، وإنما هم آثروه وارتضَوه ، أو لم نأمرهم بعبادتنا ، كما قال في الآية الأخرى عنهم : (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) [القصص : ٦٣] . فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فروا إلى بناء الفعل للمفعول . وقالوا : الجواب يصح على ذلك ، ويطابق . إذ المعنى : ليس يصلح لنا أن نعبد ونتخذ آلهة . فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا ، ولا يحسن منا ؟ ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمرٌ آخر . وهو قوله : ﴿ **من أولياء** ﴾ فإن زيادة « مِنْ » لا يحسن إلا مع قصر العموم ، كما تقول : « ما قام من رجل ، وما ضربت من رجل » فأما إذا كان النفي وارداً على شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة « مِنْ » فيه ، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوى المشركين : أنهم أمروهم بالشرك ، فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا تحسن منهم ، ولا يليق بهم أن يعبدوا ، فكيف ندعو عبادك إلى أن يعبدونا ؟ فكان الواجب على هذا : أن نقرأ : (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ أولياء من دونك) أو (من دونك أولياء) فأجاب أصحاب القراءة الأولى بوجوه :

أحدها : أن المعنى : ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك ، ونتخذ غيرك وليا ومعبوداً فكيف ندعوا أحداً إلى عبادتنا ؟ أي إذا كنا نحن لا نعبد غيرك ، فكيف ندعو أحداً إلى أن يعبدنا ؟ والمعنى : أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى ، فكيف يدعون غيرهم إلى عبادتهم ؟ وهذا جواب الفراء .

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٦ / ٤٧٢٦ – ٤٧٢٧) .

وقال الجرجاني : هذا بالتدريج يصير جواباً للسؤال الظاهر ، وهو أن من عبد شيئاً فقد تولاه ، وإذا تولاه العابد صار المعبود ولياً للعابد . يدل على هذا قوله تعالى : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) [سبأ : ٤٠،٤١] . فدل على أن العابد يصير ولياً للمعبود ويصير المعنى كأنهم قالوا : ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء ، وأن نتخذ من دونك ولياً يعبدنا .

وهذا بسطٌ لقول ابن عباس في هذه الآية . قال : يقولون : ما توليناهم ، وما أحببنا عبادتهم قال : ويحتمل أن يكون قولهم : ﴿ **ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ أن يريدوا معشر العبيد ، لا أنفسهم ، أي نحن وهم عبيدك . ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء . ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعاً منهم . كما يقول الرجل لمن أتى منكراً : ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا ، أي أنت مثلي عَبْدٌ مُحَاسب ، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضاً . قال : ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتَّخَذ) بضم النون ، وهذه القراءة أقرب في التأويل ، لكن قال الزجاج : هذه القراءة خطأ ، لأنك تقول : ما اتخذت من أحد وليا ، ولا يجوز ما اتخذت أحداً من ولى . لأن « مِنْ » إنما دخلت لأنها تنفي واحداً من معنى جميع . تقول : « ما من أحد قائماً ، وما من رجل محباً لما يضره » ولا يجوز : « ما رجل من محب لما يضره » قال : ولا وجه عندنا لهذا ألبتة ، ولو جاز هذا لجاز في : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) [الحاقة : ٤٧] .

« ما أحد عنه من حاجزين » فلو لم تدخل « مِنْ » لصحت هذه القراءة قال صاحب النظم : العلة في سقوط هذه القراءة : أن « مِنْ » لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه، فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول « من » كقوله : (ما كان لله أن يتخذ من ولد) [مريم : ٣٥] . فقوله « من ولد » لا مفعول دونه سواه ، ولو قال : ما كان لله أن يتخذ أحداً من ولد ، لم يحسن فيه دخول « من » لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد ، وصحح آخرون هذه القراءة

لفظاً ومعنى ، وأجروها على قواعد العربية قالوا : وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته فقرأ بها زيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو جعفر ، ومجاهد ، ونصر ابن علقمة ، ومكحول ، وزيد بن علي ، وأبو رجاء ، والحسن ، وحفص بن حميد ، ومحمد بن علي ، على خلاف عن بعض هؤلاء . ذكر ذلك أبو الفتح ابن جني[1] ثم وجهها بأن يكون « من أولياء » في موضع الحال ، أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ، ودخلت « من » زائدةً لمكان النفي . كقولك : « اتخذت زيداً وكيلا » فإذا نفيت قلت : « ما اتخذت زيداً من وكيل » ، وكذلك : « أعطيته درهماً . وما أعطيته من درهم » ، وهذا في المفعول فيه . قلت : يعني أن زيادتها مع الحال ، كزيادتها مع المفعول ، ونظير ذلك أن تقول : « ما ينبغي لي أن أخدمك متثاقلاً » فإذا أكدت ، قلت : « من متثاقل » .

فإن قيل : فقد صحت القراءتان لفظاً ومعنى ، فأيهما أحسن وأبلغ في المعنى المقصود ، والبراءة مما لا يليق بهم ؟ فإنهم على قراءة الضّم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء ، وعلى قراءة الجمهور : يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم ، ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليا من دونه ، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا ، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً ، فكيف يليق بنا أن ندعوا عبادك إلى أن يعبدونا من دونك ؟ وهذا المعنى أجلُّ من الأول وأكبر ، فتأمله .

والمقصود : أنه على القراءتين : فهذا الجواب من الملائكة ، ومَنْ عبد مِنْ دون الله من أوليائه ، وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر . وقد يقال : إن الله – سبحانه – أنطقها بذلك ، تكذيباً لهم ، ورداً عليهم ، وبراءة منهم . كقوله : (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا) [البقرة : ١٦٦] . وفي الآية الأخرى : (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) [القصص : ٦٣] .

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين بالإيمان بالله – تعالى – بقولهم : ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴾ [الفرقان : ١٨] .

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ...(٢ / ١١٩ – ١٢٠) .

قال ابن عباس : « **أطلت لهم العمر ، وأفضلت عليهم ، ووسعت لهم في الرزق** » .

وقال الفراء : ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد ، حتى نسوا ذكرك ، وكانوا قوماً بوراً ، أي هَلْكَى فاسدين . قد غلب عليهمُ الشقاء والخذلان ، والبوار : الهلاك والفساد ، يقال : بارت السلعة ، وبارت المرأة ، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها .

قال قتادة : والله ما نسي قوم ذكر الله عز وجل إلا باروا وفسدوا . والمعنى : ما أضللناهم ولكنهم ضلوا . قال الله تعالى : ﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾ أي كذبكم المعبودون ، بقولكم فيهم : إنهم آلهة ، وإنهم شركاء ، أو بما تقولون إنهم أمروكم بعبادتهم ، ودعوكم إليها ، وقيل : الخطاب للمؤمنين في الدنيا ، أي فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه ، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان ، والأول أظهر . وعليه يدل السياق ، ومَنْ قرأها بالياء - آخر الحروف - فالمعنى : فقد كذبوكم بقولهم ، ثم قال : ﴿ **فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً** ﴾ إخباراً عن حالهم يومئذ ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم ، ولا نصرها من الله . قال ابن زيد : ينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق : (مالكم لا تناصرون) [الصافات : ٢٥] . يقول . مَنْ عُبدَ مِنْ دون الله ، لا ينصر اليوم من عَبَدَهُ ، والعابد لاينصر إلٰهه : (بل هم اليوم مستسلمون) [الصافات : ٢٦] .

فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن ، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين ، إذا سمعوا النداء: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يابني آدمْ أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) [يس: ٥٩-٦٢][1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ٢٣٨ - ٢٤٣) .

وهذا عام في جميع الخلق ، امتحن بعضهم ببعض فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم ، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم ، وامتحن المرسل إليهم بالرسل ، وهل يطيعونهم وينصرونهم ، ويصدقونهم ، أم يكفرون بهم ، ويردون ، عليهم ويقاتلونهم ؟

وامتحن العلماء بالجهال ، هل يعلمونهم ، وينصحونهم ، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم ، وإرشادهم ، ولوازم ذلك ؟ وامتحن الجهال بالعلماء ، هل يطيعونهم ، ويهتدون بهم ؟

وامتحن الملوك بالرعية ، والرعية بالملوك .

وامتحن الأغنياء بالفقراء ، والفقراء بالأغنياء ، وامتحن الضعفاء بالأقوياء ، والأقوياء بالضعفاء ، والسادة بالأتباع ، والأتباع بالسادة ، وامتحن المالك بمملوكه ، ومملوكه به ، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به ، وامتحن الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين .

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم ، وامتحن المأمورين بهم ، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم ، من أتباع الرسل ، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم ، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل ، وقالوا : (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) [الأحقاف : ١١] . هؤلاء .

وقالوا لنوح عليه السلام: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) [الشعراء: ١١١].

قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا) [الأنعام : ٥٣] .

فإذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسو حَمِيَ وأنِفَ أن يسْلِمَ ، فيكون مثله ، وقال : أُسلم فأكون أنا وهذا الوضيِ على حد سواء ؟

قال الزجاج : كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام ، فيمتنع منه ، لئلا

يقال : أسلم قبله من هو دونه ، فيقيم على كفره ، لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل .

ومن كون بعض الناس لبعضهم فتنة : أن الفقير يقول : لِمَ لَمْ أكن مثل الغنى ؟ ويقول الضعيف : هلا كنتُ مثلَ القوى ؟ ويقول المبتلى : هلا كنت مثل المعافى .

وقال الكفار: (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) [الأنعام : ١٢٤].

قال مقاتل : نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين ، نحو بلال وخباب ، وصهيب ، وأبي ذر ، وابن مسعود ، وعمار ، كان كفار قريش يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمداً من موالينا وأراذلنا ؟ قال الله تعالى : (إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هُم الفائزون) [المؤمنون : ١٠٩-١١١] . فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ [الفرقان : ٢٠] . قال الزجاج : أي أتصبرون على البلاء ، فقد عرفتم ما وجد الصابرون ، قلت : قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا وفي قوله : (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا) [النحل : ١١٠] .

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر ، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة ، من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة ، فالفتنة كير القلوب ، ومحك الإيمان ، وبها يتبين الصادق من الكاذب قال تعالى : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) [العنكبوت : ٣] . فالفتنة قسمت الناس ، إلى صادق وكاذب ، ومؤمن ومنافق ، وطيب وخبيث ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها[1] .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٦٠ - ١٦٢) .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾

[الفرقان : ٢٧-٢٩]

فكل من اتخذ غير الرسول ، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا ، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان . إذا لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان .

فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول واللعنة .

كما قال تعالى : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) [الزخرف : ٦٧][1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

هجر القرآن أنواع :

أحدها : هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه .

والثاني : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

والرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ،

(١) الرسالة التبوكية (٥٥) .

فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به ، وكل هذا دَخَلَ في قوله – تعالى –:
﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[١] .

(١) الفوائد (٨٢) .

معنى تيسير القرآن للذكر

أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى، ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها، مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف - سبحانه - به كتابه في قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]

فالحق: هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق فهي تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله في الظهور والبيان، وباقيه[1] في الاشتقاق الأكبر: الإسفار ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت وظهوره، ومنه السِّفْر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم وبيانه، فلابد من أن يكون التفسير مطابقاً للمفسر مفهماً له، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن، ولهذا لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً، ولا أتم بياناً، من كلام الله - سبحانه -، ولهذا سماه سبحانه بياناً، وأخبر أنه يسّره للذكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير:

أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ.

الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسَّراً له، بل كان معسَّراً عليه، فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، وهو مناف للتيسير؛

(١) أشار محقق الصواعق إلى أن في نسخة و «تلاقيه»، وقال: ولعلها يلاقيه.

فإنه لاشيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه - سبحانه - لاداخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصلاً به ، ولا منفصلاً عنه ، ولا مبايناً له ، ولا محايثا ، ولا يرى بالأبصار عياناً ، ولا له وجه ، ولا يد ، من قوله : (قل هو الله أحد) [الإخلاص : ١][(١)] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد ، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام ؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي ، وتتبع الطريق ؛ فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً ، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولا يهتدون ، ولا يفرقون بين ما يضرهم وما ينفعهم .

والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه ، وما ينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بماأعطى وجعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار . فهم أضل من البهائم ، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي ، حيث لادليل معه[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٥،٤٦] .

فأخبر تعالى : أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركاً تبعاً لحركة

---

(١) الصواعق المرسلة (١ / ٣٣٠ - ٣٣٢) .
(٢) إعلام الموقعين (٢١٠/١) .

الشمس ، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك ، إما بسكون المظهر له ، والدليل عليه ، وإما بسبب آخر . ثم أخبر أنه قبضه – بعد بسطه – قبضاً يسيراً ، وهو شيء بعد شيء ، لم يقبضه جملة . فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته ، وكمال حكمته .

فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته ، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته . ولو شاء ربنا لجعله لاصقا بأصل ما هو ظل له ، من جبل وبناء وشجر وغيره . فلم ينتفع به أهله ، فإن كان الانتفاع به تابعا لمده وبسطه ، وتحوله من مكان إلى مكان . وفي مده وبسطه ، ثم قبضه شيئاً فشيئاً : من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكناً دائماً ، أو قبض دفعة واحدة : لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئاً فشيئاً لازم لحركة الشمس ، على ما قدرت عليه من مصالح العالم .

وفي دلالة الشمس على الظلال : ما تعرف به أوقات الصلوات ، وما مضى من اليوم ، وما بقي منه . وفي تحركه وانتقاله : ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من آيات الله الدالة عليه .

وفي الآية وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء ، كالقبة المضروبة ، ودحى الأرض تحتها ، فألقت القبة ظلها عليها فلو شاء – سبحانه – لجعله ساكناً مستقراً في تلك الحال . ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل ، فهو يتبعها في حركتها ، يزيد بها ، وينقص ، ويمتد ويتقلص . فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله وفيها وجه آخر ، وهو : أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهي الأجرام التي تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه . وقوله تعالى : « قبضناه إلينا » كأنه يشعر بذلك . وقوله « قبضا يسيرا » يشبه قوله : (ذلك حشر علينا يسير) [ق : ٤٤] . وقوله : (قبضناه) بصيغة الماضي لا ينافي ذلك . كقوله تعالى : (أتى أمر الله) [النحل : ١] . والوجه في الآية : هو الأول[1] .

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٩٣) .

ومن العجب استدلاله[١] بقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ [الفرقان : ٤٥] .

فما لهذه الآية وما للرجاء ولاسيما ذكره المصنف في تفسيره رجاء القوم ، والاستشهاد بهذا من جنس الألغاز ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه ، والمعنى : انظر كيف بسط ربك الظل ، والظل ما قبل الزوال ، والفيء بعده ، فمده - سبحانه - وبسطه عند طلوع الشمس فإنه يكون مديداً أطول ما يكون ، وجعل الشمس دليلا عليه فإنها هي التي تظهره وتبينه ، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئاً انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيراً حتى ينتهي إلى غايته ، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئاً فشيئاً حتى يصير كهيئته عند طلوعها ، ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره ، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال ، ولو شاء الله لجعله ساكناً دائماً على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان ، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق - سبحانه - ، وأما دلالة هذه الآية على الرجاء فيحتاج إلى إشارة وتكلف غيرف مقصود بها[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ .[الفرقان : ٥١-٥٢] .

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار ، بالحجة ، والبيان ، وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين ، إنما هو بتبليغ الحجة ، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٥] .

هذا من ألطف خطاب القرآن ، وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائماً مع الله

---

(١) أي ابن الصائف ، أبو العباس أحمد بن موسى الأندلسي ، صوفي ، صنف « محاسن المجالس » وفيات الأعيان (١ / ١٦٨) .

(٢) طريق الهجرتين (٣٢٢ - ٣٢٣) .

(٣) زاد المعاد (٣ / ٥) .

على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه . وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له – سبحانه – كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه ، والبعيدون منه فارغون من ذلك ، غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .

وعبارات السلف على هذا تدور .

ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث عن مجاهد قال : يظاهر الشيطان على معصية الله ، ويعينه عليها. وقال زيد ابن أسلم : ظهيراً أي مواليا .

والمعنى : أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه . فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ، ومع نفسه وهواه وقربانه .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم** ﴾ وهذه العبادة : هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ، ومساخطه ، بخلاف وليه – سبحانه – ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله ، وبالله التوفيق[1] .

وقال رحمه الله :

نفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم وهذا في القرآن كثير بَيِّنٌ أن المعبود لابد أن يكون مالكاً للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى خوفا

(١) الفوائد (٧٩ – ٨٠) .

ورجاء دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[١] .

وقال تعالى ذكره : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦١] .

فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خِلفَة أي يخلف أحدهما الآخر لايجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما . وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار ، كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه ، بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه ، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولايدرك أحدهما صاحبه[٢] .

وقال أيضاً – رحمه الله –:

هو تعظيم وثناء منه – تعالى – على نفسه بجعل هذا البروج والشمس والقمر في السماء ، وقد اخْتُلِفَ في البروج المذكورة في هذه الآية فأكثر السلف على أنها القصور أو الكواكب العظام .

قال ابن المنذر في تفسيره : حدثنا موسى حدثنا شجاع حدثنا ابن إدريس عن أبيه عن عطية : ﴿ **جعل في السماء بروجاً** ﴾ قال : قصوراً فيها حرس .

حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا أبو معاوية ووكيع عن إسماعيل عن يحيى بن رافع قال : قصوراً في السماء .

حدثنا موسى حدثنا أبو بكر حدثنا وكيع عن سفيان بن أبي نجيح عن مجاهد قال : النجوم يعني بروجاً .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢-٣) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٢٢٦ - ٢٢٧) .

وكذلك قال عكرمة حدثنا أبو أحمد حدثنا يعلى حدثنا إسماعيل عن أبي صالح : (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) قال : النجوم الكبار[1] ، وهذا موافق لمعنى اللفظة في اللغة فإن العرب تسمى البناء المرتفع برجاً .

قال – تعالى –: (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) [النساء : ٧٨] .

وقال الأخطل :

كَأَنهَا بُرجٌ رُومِيٌّ يُشَيِّـدهُ بَانٍ يَجُصُّ وَآجُرّ وأَحْجَارِ

قال الأعمش : كان أصحاب عبد الله يقرءونها : [تبارك الذي جعل في السماء قصورا] .

وأما المتأخرون من المفسرين فكثير منهم يذهب إلى البروج الاثني عشر التي تنقسم عليها المنازل ، كل برج منزلتان وثلث وهذه المنازل الثمانية والعشرون يبدو منها الناظر أربعة عشر منزلا أبداً ويخفى منها أربعة عشر منزلا ، كما أن البروج يظهر منها أبداً ستة ويخفى ستة ، والعرب تسمي أربعة عشر منزلاً منها شامية ، وأربعة عشر يمانية، فأول الشامية السرطان وآخرها السماك الأعزل ، وأول اليمانية العفر وآخرها الرشا . إذا طلع منها من المشرق غاب رقيبه من المغرب وهو الخامس عشر ، وبها تنقسم فصول السنة الأربع ، فللربيع منها الحمل والثور والجوزاء ومنازلها الشرطين والبطين والثريا والديران والهقعة والهنعة والذراع وللصيف منها السرطان والأسد والسنبلة ومنازلها الثرة والطرف والجبهة والزبرة والضرفة والعواء والسماك وللخريف منها الميزان والعقرب والقوس ومنازلها الغفر والزبان والإكليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة ، وللشتاء منها الجدي والدلو والحوت ومنازلها سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبيةِّ والفرع المقدم ويسمى الأول والفرع المؤخر ويسمى الثاني ، والرشا ولما كان نزول القمر في هذه المنازل معلوما

---

(١) انظر الدر المنثور (٦ / ٢٦٩) .
وتفسير الطبري (١٩ / ٢٩) .

بالعيان والمشاهدة ونزول الشمس فيها إنما هو بالحساب لا بالرؤية ، قال تعالى: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل) [يونس: ٥]. وقال تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) [يس: ٣٨-٣٩].

فخص القمر بذكر تقدير المنازل دون الشمس وإن كانت مقدرة المنازل لظهور ذلك الحس في القمر وظهور تفاوت نوره بالزيادة والنقصان في كل مَنْزِل مُنْزَل .

ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط وأصح للضبط من الحساب الشمسي ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي ، ولهذا قال تعالى في القمر : (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) [يونس : ٥] . ولم يقل ذلك في الشمس ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر وسيره ونزوله في منازله ، لاعلى حساب الشمس وسيرها حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب ، وتعذر الغلط والخطأ فيه فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب فهذا الذي أخبرنا – تعالى – به من شأن المنازل وسير القمر فيها وجعل الشمس سراجاً ، وضياء يبصر به الحيوان ولولا ذلك لم يبصر الحيوان فأين هذا مما يدعيه الكذابون من علم الأحكام التي كَذِبُهَا أضعافُ صدقها[1] .

ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان ، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله – تعالى – : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطوات في قوله تعالى : (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)[1] .

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٨ – ٥٣٩) .

(١) الجواب الكافي (٢٤٤) .

وقال - رحمه الله - :

نصب السلام من قوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ . ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب : (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) [القصص : ٥٥] .

فالجواب عنه أن الله - سبحانه - مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾. فـ « سلاما » هنا صفة لمصدر محذوف هو القول نفسه أي قالوا قولاً سلاما ، أى سدادا وصوابا وسليما من الفحش والخنا ، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل . فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلّموا عليهم ، وليس هذا معنى الآية ولا مدح فيه ، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله بل يقابلونه بالقول السلام فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى . وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها فقال : ﴿ **الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾ أي بسكينة ووقار . والهَوْن بفتح الهاء من الشيء الهين وهو مصدر هان هوناً أي « سهل » ، ومنه قولهم يمشي على هينته ولا أحسبها إلا مولدة[1] . ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة فهي فعلة من الهون وأصلها هِوْنة فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها ، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف وأما الهُون بالضم فهو الهوان فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان ، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهَون فوصف مشيهم بأنه مشيُ حلم ووقار وسكينة لا مشي جهل وعنف وتبختر ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة فلهذا جمع

(١) لسان العرب (٨ / ٤٧٤١) .

بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم فتأمله[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣]

أي سكينة ووقارا متواضعين ، غير أشرين ، ولامرحين ولا متكبرين .

قال الحسن : علماء حلماء .

وقال محمد بن الحنفية : أصحاب وقار وعفة لايسفهون . وإن سفه عليهم حلموا . « والهون » بالفتح في اللغة : الرفق واللين . و« الهُون » بالضم : الهوان . فالمفتوح منه : صفة أهل الإيمان . والمضموم : صفة أهل الكفران . وجزاؤهم من الله النيران[٢] .

قوله تعالى في جهنم : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] .

والغرام : الشر الدائم واللازم والعذاب .

قال بشر :

وَيَوْمُ النِّسار وَيَوْمُ الجَفَا ... رِكَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَاماً

وقال الأعشى :

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإنْ يُعْـ ... ـطَ جَزِيلاً فإنَّهُ لا يُبَالِـي

وقال أبو عبيدة: **﴿إن عذابها كان غراماً﴾** كان هلاكا ولزاماً لهم[٣].

---

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٥٨ - ١٥٩) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢٧) .

(٣) روضة المحبين (٥٨) .

فحش الزنا

وقد أكد سبحانه حرمته ، بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [الفرقان : ٦٨، ٧٠] .

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ، مالم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح[1] .

قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

قلت : وهاهنا مسألة : هذا الموضع أخص المواضع ببيانها ، وهي أن التائب إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه ؟ ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً .

فقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، لكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

قال ابن عطية : « يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة ، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم». قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن ، ورد على من قال هو في يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله – سبحانه – يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له

(١) الجواب الكافي (٢٢٦) .

من الموحدين بدل سيئاته حسنات ، وذكره الترمذي والطبري » وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية .

قال ابن عطية وهو معنى كرم العفو . هذا آخر كلامه .

قلت : سيأتي إن شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه .

قال المهدوي : وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما .

وقال الثعلبي : قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد ﴿ **يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ . يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام ، فيبدلهم بالشرك إيماناً ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصاناً .

وقال آخرون : يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة . وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة ؟ فمن قال : إنه في الدنيا قال : هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها ، وهي حسنات ، وهذا تبديل حقيقة ، والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها ، فأما أن تنقلب حسنة فلا ، فإنها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟ قالوا : وأيضاً فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله – تعالى –: (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا) [آل عمران : ١٩٣] . وقوله – تعالى –: (ويعفو عن السيئات) [الشورى : ٢٥] . وقوله – تعالى –: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) [الزمر : ٥٣] . والقرآن مملوء من ذلك .

وفي الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : « يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره

بذنوبه ، فيقول هل تعرف ؟ فيقول رب أعرف . قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل »[1] فهذا الحديث المتفق عليه الذي تضمن العناية بهذا العبد إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا ، ومغفرتها له يوم القيامة ، ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة . فدل على أن غاية السيئات معرفتها وتجاوز الله عنها ، وقد قال الله في حق الصادقين : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ [الزمر : ٣٥] .

فهؤلاء خيار الخلق ، وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ، ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها ، وأما السيئات فأن تلغى ويبطل أثرها . قالوا : وأيضاً فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق التائب لكان أحسن حالا من الذي لم يرتكب منها شيئاً وأكثر حسنات منه ، لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه ، وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له ؟ قالوا : وأيضاً فكما أن العبد إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها ، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها ، فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فإنها لا تنقلب حسنات ، فإن قلتم : وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته ، لم ننازعكم في هذا ، وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضي ثواباً وجودياً .

واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (١٣ / ٤٨٣) .
في التوحيد ، باب : كلام الرب عز وجل يوم القيامة ....
ومسلم (٥ / ٦١٣ - ٦١٤) في التوبة ، باب : سعة رحمة رب العالمين .

في السيئة المحققة وهي التي قد فعلت ، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة قالوا : ولهذا قال – تعالى –: ﴿ **سيئاتهم حسنات** ﴾ [الفرقان : ٧٠] . فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها ، ونكر الحسنات و لم يضفها إليهم لأنها من غير صنعهم وكسبهم ، بل هى مجرد فضل الله وكرمه ، قالوا : وأيضاً فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم . فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ، ولو كان المراد ماذكرتم لأضاف التبديل إليهم فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات ، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها كما قال الله تعالى : (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) [البقرة : ٥٩] .

وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو كما قال الله تعالى : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) [سبأ : ١٦] .

فلما أخبر – سبحانه – أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو – سبحانه – بسيئاتهم ، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم ، وإن كان سببه منهم ، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . قالوا : ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها : رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ فيقول نعم . لايستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا » فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه[١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن

(١) رواه مسلم (١ / ٤٥٣) في الإيمان ، باب : آخر أهل النار خروجاً .
والترمذي (٤ / ٦١٤) في صفة جهنم ، باب : (١٠) .

أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه . قال : فتعرض عليه ، ويخبأ عنه كبارها : فيقال . عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبار . فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . قال : فيقول : إن لي ذنوباً ما أراها » فلقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ضحك حتى بدت نواجذه »[١] .

قالوا : وأيضا فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات » قيل : من هم ؟ قال « الذين بدل سيئاتهم حسنات »[٢] قالوا : وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة ، فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات . قالوا : وأيضاً فالجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقاً .

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر على صحة قولكم وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها في النار حتى كان آخر أهلها خروجاً منها ؟ فهذا قد عوقب على سيئاته فزال أثرها بالعقوبة ، فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير مانحن فيه ، فإن الكلام في التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصراً عليها غير تائب ، فأين

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ١٥٧) .
وانظر الحديث السابق .

(٢) رواه الحاكم (٤ / ٢٥٢) وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي .
وحسنه الألباني في الصحيحة (٥ / ٢٠٩) رقم (٢١٧٧) .
وذكره ابن كثير عن ابن أبي حاتم (٣ /٣٤٣) . وتتمته « قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : « الذين بَدَّلَ الله سيئاتهم حسنات » .

أحدهما من الآخر ؟ وأما حديث الإمام أحمد فهو الحديث بعينه إسناداً ومتناً ، إلا أنه مختصر .

وأما حديث أبي هريرة فلا يثبت مثله ومن أبو العنبس ومن أبوه[1] حتى يقبل منهما تفردهما بمثل هذا الأمر الجليل ؟ وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حرصه على التنفير من السيئات وتقبيح أهلها وذمهم وعيبهم والإخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها ؟ فكيف يصح عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه يقول : « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا منها » ؟ ثم كيف يتمنى المرء إكثاره منها ، مع سوء عاقبتها ، وسوء مغبتها ! وإنما يتمنى الإكثار من الطاعات ؟.

وفي الترمذي مرفوعاً « ليتمنين أقوام يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض ، لما يرون من ثواب أهل البلاء »[2] فهذا فيه تمني البلاء يوم القيامة لأجل مزيد ثواب أهله ، وهو تمنى الحسنات ، وأما تمني الحسنات فهذا لاريب فيه ، وأما تمني السيئات فكيف يتمنى العبد أنه أكثر من السيئات ؟ هذا ما لا يكون أبداً ، وإنما يتمنى المسيء ، أن لو لم يكن أساء ، وأما تمنيه أنه ازداد من إساءته فكلا .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة فحق . وكذلك نقول : إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة التي لولا الحسنة لحلت محلها .

---

(١) أبو العنبس ، هو سعيد بن كثير بن عبيد التيمي ثقة ، انظر تهذيب التهذيب (٤ / ٧٣) ووالده « كثير بن عبيد » وثقه ابن حبان كما في الثقات (٥ / ٣٣٠) .
قال العلامة المناوي في فيض القدير « فيه جواز تمني المحال إذا كان في فعل خير ويحتمل أن التمني ليس على بابه ، بل المراد منه التنبيه على سعة رحمة الله تعالى » (٥ / ٣٥١) .
وانظر تفسير القرطبي (٦ / ٤٧٩٣ - ٤٧٩٥) .

(٢) رواه الترمذي (٤ /٥٢١ -٥٢٢) الزهد ، باب : (٥٨) وقال : غريب .
وحسنه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١ / ٤٩٤) .

قالوا : وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم ، وذلك يقتضي أن تكون هي السيئات الواقعة ، وتنكير الحسنات ، وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب ، ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارناً لكسبهم إياها بفضله ؟ قالوا : وأما قولكم : إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم ، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف لا أنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها فهذا لا دليل لكم فيه ، فإن الله خالق أفعال العباد ، فهو المبدل للسيئات حسنات خلقاً وتكويناً ، وهم المبدلون لها فعلا وكسباً .

قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك في صحف الأعمال ، فهذا حقٌّ ، وبه نقول ، وأنه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة أن تحل في الصحف بحسنات حلت موضعها . فهذا منتهى إقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين .

وإليك أيها المنصف الحكم بينهما ، فقد أدلى كل منهما بحجته ، وأقام بينته ، والحق لايعدوهما ولا يتجاوزهما ، فأرشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين إلى الله القائمين ببيان حججه ودينه ، أو عذر طالباً منفرداً في طريق مطلبه قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق ، فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وأن لا يقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه فقد رضي بالدون ، وحصل على صفقه المغبون . ومن شمر إليه ورام أن لا يعارضه معارض ، ولا يتصدى له ممانع فقد منَّى نفسه المحال . وإن صبر على لأوائها وشدتها فهو والله الفوز المبين والحظ الجزيل ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فالصواب إن شاء الله في هذه المسألة أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة ، والحسنة إنما هي أمر وجودى يقتضي ثواباً ، ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي ، وذلك الكف والحبس أمر وجودي وهو متعلق الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ولم يحدث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه ، ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثاباً على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله . وذلك أضعاف

حسناته بما لا يحصى ، فإن الترك مستصحب معه ، والمتروك لاينحصر ولا ينضبط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ هذا مما لا يتوهم . وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمراً وجودياً فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كل ذنب منها ندماً عليه ، وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم . وهو حسنة قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسُنة مع التوبة . فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنه حلت مكانها ، فهذا معنى التبديل ، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة .

وقال بعض المفسرين في هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة . وعلى هذا فقد زال بحمد الله الإشكال ، واتضح الصواب ، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة .

وأما حديث أبي ذر – وإن كان التبديل فيه في حق المصر الذي عذب على سيئاته – فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته ، فإن الذنوب التي عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لا يقتضي زوال أثرها وتبديلها حسنات ، فإن الندم لم يكن في وقت ينفعه ، فلما عوقب عليها وزال أثرها بدلها الله له حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فإذا أبدلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات فلأن تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولى وأحرى . وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة ، لأن التوبة فعل اختياري أتى به العبد طوعاً ومحبة لله وفرقاً منه . وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره[1] .

(١) طريق الهجرتين (٢٢٨ – ٢٣٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح . وهو حقيقة التوبة قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت ، وفرحه بنزول : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)[١] [الفتح : ١] .

واختلفوا في صفة هذا التبديل ، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة ؟ على قولين :

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها . فبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنا عفة وإحصاناً ، وبالكذب صدقاً ، وبالخيانة أمانة ، فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالاً صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة ، واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه : حدثنا الحسين بن حريث قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا . وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها . فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . فيقول : إن لي ذنوباً ما أراها هاهنا » قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه[٢]

(١) أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦ / ٢٧٩) .
(٢) مضى برقم (١) صـ ٣٠٧ .

فهذا حديث صحيح . ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر . فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار . ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطي مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه . وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات . إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب . والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة . فزادت حسناته . فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟ والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد علمت ما فيه . لكن للسلف غور ودقة فَهْم لايدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عُرفت عُرف لطف الاستدلال به ودقته . وهي أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة وبالحسنات الماحية تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة . وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه . فلابد إذاً من دخول النار لأن الجنة لايكون فيها ذرة من الخبيث . ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيرَ الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار . فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطي مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله . وإزالة النار بدل منها . وهي الأصل . فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول . يوضحه الوجه التاسع : وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة . إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة . والتوبة من كل ذنب حسنة . فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة . فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار . فتأمله فإنه من ألطف الوجوه . وعلى

هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة . وقد تكون دونها . وقد تكون فوقها . وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة . وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها . يوضحه الوجه العاشر : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه . لكن شتان ما بين الندمين . والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه . كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك ، وحصول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ **يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ ولم يقل : مكان كل واحدة واحدة . فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل وأما في الحديث : فإن الذي عُذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها . فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات . فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة . وسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن كبار ذنوبه ، ولما انتهى إليها ضحك ، ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة . ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين :

أحدهما : قوله « أخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع في تبديلها . فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر . وهو به أشد فرحاً واغتباطاً .

والثاني : ضحك النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يقر به على نفسه من

الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها . وإنما عرضت عليه الصغائر فتبارك الله رب العالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع . لا إله إلا هو الرحمن الرحيم[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان : ٧١] .

ونهايتها : الرجوع إليه في المعاد . وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته . فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة : رجع إليه في المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾ [الفرقان : ٧١] .

قال البغوي وغيره : ﴿ **يتوب إلى الله متابا** ﴾ يعود إليه بعد الموت ، متاباً حسناً يفضل عن غيره .

فالتوبة الأولى : وهي قوله : « ومن تاب » : - رجوع عن الشرك .

والثانية : رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة .

والتأويل الثاني : أن الجزاء متضمن معنى الأوامر ، والمعنى : ومن عزم على التوبة وأرادها ، فليجعل توبته إلى الله وحده ، ولوجهه خالصاً ، لا لغيره .

التأويل الثالث : أن المراد لازم هذا المعنى ، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ، ورجع إليه ، والمعنى : فليعلم توبته إلى مَنْ ؟ ورجوعه إلى مَنْ ؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره .

ونظير هذا - على أحد التأويلين - قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [المائدة : ٦٧] . أي اعلم

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٠١ - ٣٠٤) .

ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته[١] .

والتأويل الرابع : أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم على فعلها . ثم إذا قوي العزم وصار جازماً : وُجد به فعل التوبة .

فالتوبة الأولى : بالعزم والقصد لفعلها .

والثانية : بنفس إيقاع التوبة وإيجادها ، والمعنى : فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً فتوبته إلى الله عملا وفعلا وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٢][٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

قال محمد بن الحنفية : « الزور هٰهنا الغناء » وقاله ليث عن مجاهد . قال الكلبي : لا يحضرون مجالس الباطل . واللغو في اللغة : كل ما يلغى ويطرح .

والمعنى : لا يحضرون مجالس الباطل . وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه . أو يميلوا إليه . ويدخل في هذا : أعياد المشركين – كما فسرها به السلف – والغناء ، وأنواع الباطل كلها .

قال الزجاج : « لا يجالسون أهل المعاصي ، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو ، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله » .

---

(١) انظر تفسير الطبري (٦ / ٣٠٧) .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (١ / ١٥) في بدء الوحي ، وهو أول حديث في الصحيح .
ومسلم (٤ / ٥٧١ – ٥٧٢) في الإمارة ، باب : إنما الأعمال بالنيات .
والنسائي (١ / ٥٨ – ٦٠) .
والترمذي برقم (١٦٤٧) في فضائل الجهاد .
وأبو داود (٦ / ٢٨٤) في الطلاق ، باب : في ما عني به من الطلاق والنيات .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٣١٤ – ٣١٥) .

وقد روي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : مر بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أصبح ابن مسعود لكريما »[1] .

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) [القصص : ٥٥] .

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فمعناها عام ، متناول لكل من سمع لغواً فأعرض عنه ، وقال بقلبه أو لسانه لأصحابه : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ **لا يشهدون الزور** ﴾ ولم يقل : بالزور لأن « يشهدون » بمعنى يحضرون ، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور ، فكيف بالتكلم به ، وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور ، والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها . كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال : « هذا الزور » فالزور : القول ، والفعل ، والمحلُّ . وأصل اللفظ من الميل . ومنه الزَّوْر ، بالفتح ومنه : زرت فلاناً ، إذا ملت إليه ، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً[2] .

قوله تعالى ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما ، لم يسمعوه ،

(١) رواه ابن أبي حاتم ، كما في تفسير ابن كثير (٣ / ٣٤٤) عن إبراهيم بن ميسرة ، أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف ، فذكره .
قال الألباني . ضعيف ، إبراهيم بن ميسرة تابعي ثقة ، فهو مرسل ، ومحمد بن مسلم .
وهو الطائفي صدوق يخطىء . الضعيفة برقم (١١٦٧) .
وانظر التهذيب (٩ / ٤٤٤) .
والثقات لابن حبان (٧ / ٣٩٩) .
والدر المنثور (٦ / ٣٨٣) .

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٢٤١ - ٢٤٢) .

وعميانا : لم يبصروه ، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به .

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليه صما وعميانا ، بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبي : يخرون عليها سمعاً وبصراً .

وقال الفراء : وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى ، كأنهم لم يسمعوه ، فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قعد يشتمني ، كقولك : قام يشتمني وأقبل يشتمني .

والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صما وعميانا .

وقال الزجاج : المعنى : إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكيا سامعين مبصرين كما أمروا به .

وقال ابن قتيبة : أي لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها ، وعمي لم يروها[1] قلت : هاهنا أمران : ذكر الخرور ، وتسليط النفي عليه ، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً ، أو بالبدن سجوداً ، أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود ؟

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وإمام بمعنى قدوة ، وهو يصلح للواحد وللجمع كالأمة والأسوة ، وقد قيل : هو جمع آمّ كصاحب وصحاب ، وراجل ورجال وتاجر وتجار ، وقيل : هو مصدر كقتال وضراب أى ، ذوي إمام ، والصواب : الوجه الأول ، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم ، والتقوى واجبة ، والائتمام بهم واجب ، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم ، وإن قيل : نحن نأتم بهم في

---

(١) تفسير غريب القرآن (٣١٥) .

(٢) الفوائد (٨٠) .

الاستدلال وأصول الدين ، فقد تقدم من جواب هذا ما فيه كفاية[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان : ٧٥] .

قال محمد بن علي بن الحسين : الغرفة : الجنة . بما صبروا . قال علي : الفقر في الدنيا .

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة . قالت عائشة : ولم يارسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً ، ياعائشة ! لا تردي المسكين ولو بشق تمرة ، ياعائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة »[٢] قلت : لا حجة له في واحدة من الحجتين ، أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته وصبره عن معصيته ، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه . ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر ، فإن القرآن كما دلَّ على جزاء الصابرين ، دلَّ على جزاء الشاكرين أيضا ، كما قال تعالى : (وسنجزي الشاكرين) [آل عمران : ١٤٥] . (وسيجزي الله الشاكرين) [آل عمران : ١٤٤] بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها ، وإذا جزى الله الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا .

وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين :

أحدها : أنه لا يحتج بإسناده فإنه من رواية محمد بن ثابت الكوفي عن الحارث بن النعمان ، والحارث هذا لم يحتج به أصحاب الصحيح ، بل قال فيه

(١) إعلام الموقعين (٤ / ١٧٠) .

(٢) رواه الترمذي (٤ / ٤٩٩) . في الزهد ، باب : ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة ... والحديث صححه الألباني – حفظه الله تعالى – كما في الصحيحة برقم (٣٠٨) .
وفي إرواء الغليل (٣ / ٣٥٨) .
فانظره مفصلاً .

البخاري : منكر الحديث ، ولذلك لم يصحح الترمذي حديثه هذا ولا حسنه ولا سكت عنه ، بل حكم بغرابته[(١)] .

الجواب الثاني: إن الحديث لو صح لم يدل على مطلوبهم فإن المسكنة التي يحبها الله من عبده ليست مسكنة فقر المال ، بل مسكنة القلب ، وهي انكساره ، وذله وخشوعه وتواضعه لله ، وهذه المسكنة لا تنافي الغنى ولا يشترط لها الفقر ، فإن انكسار القلب لله ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته أفضل وأعلى من مسكنة عدم المال ، كما أن صبر الواجد عن معاصي الله طوعاً واختياراً وخشية من الله ومحبة له أعلى من صبر الفقير العاجز ، وقد آتى الله جماعة من أنبيائه ورسله الغنى والملك ولم يخرجهم ذلك عن المسكنة لله[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

والصحيح من القولين : لولا أنكم تدعونه وتعبدونه ، أي : أيُّ شيءٍ يعبأه بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل[(٣)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾

[الفرقان : ٧٧] .

وأصح الأقوال في الآية : أن معناها ما يصنع بكم ربي لو عبادتكم إياه فهو سبحانه لم يخلقكم إلا لعبادته فكيف يقال بعد هذا : إن تكليفه إياهم عبادته غير حسن في العقل لأنه قادر على الإنعام عليهم بالجزاء من غير توسط العبادة[(٤)] .

(١) راجع الإرواء كما سبق بيانه .
(٢) عدة الصابرين (١٧٥ - ١٧٦) .
(٣) جلاء الأفهام (٨١) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٤١٨) .

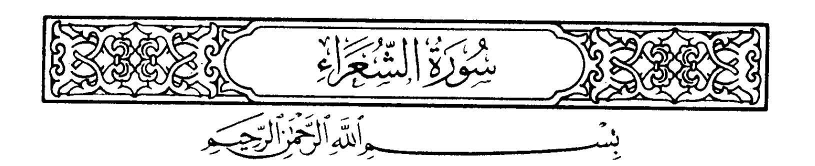
وقال رحمه الله تعالى :

قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول ، وعلى الأول مضافاً إلى الفاعل وهو الأرجح من القولين . وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء وهو في دعاء العبادة أظهر أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه ، وعبادته تستلزم مسئلته فالنوعان داخلان فيه[١] .

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٣) .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ



قول الله تعالى ذكره : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨،٨٩] .

والسليم : هو السالم ، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم : القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له ، كالعليم والقدير ، وأيضاً فإنه ضد المريض ، والسقيم والعليل .

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم .

والأمر الجامع لذلك : أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره . فسلم من عبودية ما سواه ، ، وسلم من تحكيم غير رسوله . فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله ، في خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق . هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة ، وتوكلا ، إنابة ، وإخباتاً ، وخشية ، ورجاء ، وخلص عمله وأمره كله لله ، فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيعقد قلبه معه عقداً محكما على الائتمام والاقتداء به وحده ، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب ، وهي العقائد . وأقوال اللسان ، وهي

الخبر عما في القلب وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله ، إلى ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قوة ولا عمل .

كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله) [سورة الحجرات : ٤٩] .

أي لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر .

قال بعض السلف : ما من فعلة – وإن صغرت – إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أي لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟

فالأول : سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى ، وابتغاء الوسيلة إليه ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟ .

والثاني : سؤالك عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد ، أي هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولي ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟ فالأول : سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله – سبحانه – لا يقبل عملاً إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص ، وهوى يعارض الاتباع . فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة[١] .

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٧-٨) .

وقال رحمه الله تعالى :

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغلّ والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ؛ فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله ؛ فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء :

من شرك يناقض التوحيد .

وبدعة تخالف السنة .

وشهوة تخالف الأمر .

وغفلة تناقض الذكر .

وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن الله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة ، تتضمن أفراداً لا تنحصر[1] .

وأما الشرك ، فهو نوعان : أكبر وأصغر . فالأكبر : لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قالوا لآلهتهم في النار : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) [الشعراء : ٩٧،٩٨] . مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء ، وربه ومليكه ، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ، ولا تحيي ولا تميت . وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم ، بل كلهم ، يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله ، وكثير منهم – بل أكثرهم – يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله . ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده . ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم – من المشايخ – أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب

(١) الجواب الكافي (١٧٩) .

العالمين . وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث . إذا حَرَد . وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها ، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه . ولم تتنكر له قلوبهم . وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جَهرة ، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلٰهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدناً له إن قام وإن قعد . وإن عثر وإن مرض وإن استوحش . فذكر إلٰهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه . وهو لا ينكر ذلك . ويزعم أنه باب حاجته إلى الله ، وشفيعه عنده . ووسيلته إليه[1] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٩٧،٩٨] .

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم أنهم ما سووهم به – سبحانه – في الخلق ، والرزق ، والإماتة والإحياء ، والملك والقدرة ، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى التراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ، الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذي غناه ، وقدرته وملكه ، وجوده ، وإحسانه ، وعلمه ، ورحمته ، وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ؟[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣٣٩) .
(٢) الجواب الكافي (١٩٧) .

مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم ، ومع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله .

فحقيق لمن تصلح نفسه ، وأحب سعادتها ونجاتها : أن يستيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً ، وتكون أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله . فإن الشأن كله فيها والمدار كله عليه ، والسؤال يوم القيامة عنها . قال تعالى : (فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) [الحجر:٩٢،٩٣] .قال غير واحد من السلف : هو عن قول : « لا إله إلا الله » وهذا حق فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها .

فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها، ولوازمها وحقوقها . قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم الرسل ؟ فالسؤال عما إذا كانوا يعبدون : هو السؤال عنها نفسها . والسؤال عما إذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها : هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها ؟ فعاد الأمر كله إليها . وأمر هذا شأنه حقيق بأن تثنى عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ولا يطلب على فضله والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال أهل النار في النار لمعبودهم : ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلل مبين إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] .

و لم تكن تسويتهم لهم بالله في كونهم خلقوا السموات والأرض أو خلقوهم أو خلقوا آباءهم ، وإنما سووهم برب العالمين في الحب لهم كما يحب الله فإن حقيقة العبادة هي الحب والذل وهذا هو الإجلال والإكرام الذي وصف به نفسه في

(١) طريق الهجرتين (٣٨٣) .
(٢) جلاء الأفهام (١٠٢) .

قوله سبحانه وتعالى (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) [الرحمن : ٥٥] .

وقال رحمه الله :

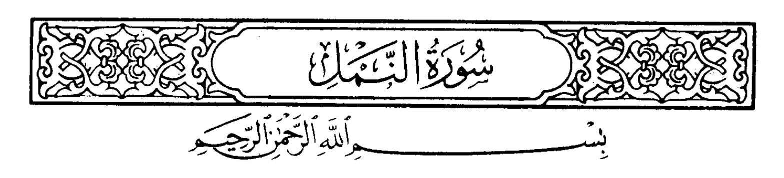
ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة وإلا فلم يقل أحد قط إن الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته . وفي أفعاله وفي خلق السموات والأرض ، وفي خلق عابده أيضا . وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة . وأضل هؤلاء وأسوأ حالا من سوى كل شيء بالله سبحانه في الوجود وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص . فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحب ، مع اعتقاد تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والصفات والأفعال فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك ، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود[1] .

* * *

(١) جلاء الأفهام (٢٦٦) .

سُورَةُ النَّمْلِ





قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : ١٦] .

فهو ميراث العلم والنبوة لا غير ، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثير سوى سليمان فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصاً به . وأيضاً فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال : « مات فلان وورثه ابنه » ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه . وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة . وأيضاً فإن ماقبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال . قال تعالى: **﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود﴾** وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه وما كان لأبيه من أعلى المواهب ، وهو العلم والنبوة ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام : (وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) [مريم : ٥،٦] .

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منزهون عنه ، والحمد لله على توفيقه وهدايته[1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٧٣) .

من عجائب صنع الله في النمل

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته ثم أتت بالاسم المبهم ، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لايشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية ، وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ١٦ -١٧] .

ثم قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ [النمل:١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم ، ثم قالت : ﴿ **لايحطمنكم سليمان وجنوده** ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت : وهم لا يشعرون ، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النملة حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها وإنه لموضع تعجب وتبسم ، وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن

قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد»[١]. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة»[٢].

وذكر هشام بن حسان «أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن ونفعل قال: فذهبن». وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة ابن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»[٣]. ولهذا الأثر عدة طرق ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره. وقال الإمام أحمد حدثنا[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١ / ٣٣٢، ٣٤٧).
أبو داود (١٤ / ١٧٨) في الأدب، باب: في قتل الذر.
وابن ماجه (٢ / ١٠٧٤) في الصيد، باب: ما نهي عن قتله. ورواه غيرهم.
وصححه الألباني كما في الإرواء (٨ / ١٤٢).
و «الصُّرد» هو طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود.
انظر النهاية لابن الأثير (٣ / ٢١).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٦ / ٤٠٩) في بدء الخلق، باب: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه.
ومسلم (٥ / ٨٨) في كتاب: قتل الحيات وغيرها، باب: النهي عن قتل النمل.
وأبو داود (١٤ / ١٧٦) في الأدب، باب: في قتل الذر.
والنسائي (٧ / ٢١٠) في الصيد والذبائح، باب قتل النمل.

(٣) لم أهتد إليه في كتاب الزهد وإنما وقفت على الذي بعده.

(٤) وفي الزهد حدثنا عبد الله حدثنا أبي حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي .. فذكره. الزهد صـ (٨٣).

قال : « خرج سليمان بن داود يستسقي فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقلك ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك ، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا . فقال : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم » . « ولقد حدثني أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها . قال : فرفعت ذلك من الأرض فطافت في مكانه فلم تجده فانصرفوا وتركوها قال فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا قال : فعلت ذلك مرارا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا قال شيخنا وقد حكيت له هذه الحكاية – فقال : هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب » والنمل من أحرص الحيوان ويضرب بحرصه المثل ويُذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ قالت : ثلاث حبات من الحنطة فأمر بإلقائها في قارورة وبسد فم القارورة وجعل معها ثلاث حبات حنطة وتركها سنة بعد ما قالت ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبه فقال : أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات فقالت : نعم ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي . فعجب سليمان من شدة حرصها ، وهذا من أعجب الهداية والعطية ، ومن حرصها ، أنها تكدُّ طول الصيف وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه وهي على ضعفها شديدة القوى فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها ، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع

فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان ، وبقي فيه فتات الخبز من أو غيره فتحمله وتذهب به وإن كان أكبر منها ، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضا حتى يتساعدوا على حمله ونقله وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها ، وإن وجدتها شعيرا فلا ، ولها صدق الشم وبعد الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها ، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات ، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها .

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً ويملأه ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء فتلقى نفسها عليه وجربنا نحن ذلك . وأحمى صانع مرة طوقا بالنار ورماه على الأرض ليبرد واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار فلزم المركز ووسط الطوق وكان ذلك مركزاً له وهو أبعد مكان في المحيط[1] .

عجائب صنع الله في خلق الهدهد

قول الله تعالى :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن

(١) شفاء العليل (٦٩ - ٧٠) .

سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ * وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٠ -٢٤] .

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره ، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة ، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال : ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ ، وفي ضمن هذا أنّي أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم به شأن فلذلك قال : ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ ، والنبأ : هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته ثم وصفه بأنه نبأ يقين لاشك فيه ولا ريب فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفزعت قلب المخبر لتلقي الخبر وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد فقال: ﴿ **إني وجدت امرأة تملكهم** ﴾ ، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك ، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه وأنه عرش عظيم ، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال : ﴿ **وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله** ﴾ وحذف أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ، ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده ، ثم أخبر أن ذلك الصدَّ حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلاّ له ، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السموات والأرض وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت

الأرض ، قال صاحب الكشاف : وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض – جلت قدرته ولطف علمه – ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله(١) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إلى آخر الآيات [النمل : ٥٩-٦٥] .

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده ، فهو الإله لهم وحده . فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه . وإن لم يكن معه رب فعل هذا . فكيف تجعلون معه إلٰها آخر ؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية « أإله مع الله فعل هذا » حتى يتم الدليل . فلابد من الجواب بلا . فإذا لم يكن معه إلٰه فعل كفعله . فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه ؟ فعلم أن إلٰهية ما سواه باطلة ، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم .

ومن قال : المعنى « هل مع الله إله آخر ؟ » من غير أن يكون المعنى « فعل هذا » فقوله ضعيف لوجهين .

أحدهما : أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى . ولا ينكرون ذلك .

الثاني : أنه لا يتم الدليل ، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير . أي فإذا كنتم تقولون : إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلٰهاً آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز ؟ وهذا كقوله : (أم جعلوا لله

(١) شفاء العليل (٧٠ – ٧١) .

شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) [الرعد : ١٦] . وقوله : (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) [لقمان : ٣١] . وقوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) [النحل : ١٧] . وقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) [النحل : ٢٠] . وقوله : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) [الفرقان : ٣] . وهو كثير في القرآن . وبه تتم الحجة كما تبين[١] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ [النمل: ٥٩] .

هل السلام من الله ؟ فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه ؟ ، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعاً ؟

فالجواب عنه : أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح .

فيرجع كونه داخلا في جملة القول لأمور :

منها : اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل . وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعاً على كل واحد منهما . هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع ، ولهذا إذا قلت : الحمد لله ، وسبحان الله . فإن التسبيح هنا داخل في المقول .

ومنها : أنه إذا كان معطوفاً على المقول كان عطف خبر على خبر ، وهو الأصل . ولو كان منقطعاً عنه كان عطفاً على جملة الطلب ، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب .

ومنها : أن قوله : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾. ظاهر في أن المسلم هو القائل : الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ، ولم يقل : سلام على عبادي .

(١) مدارج السالكين (١ / ٤١٣) .

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور :

أحدها : مطابقته لنظائره في القرآن ، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى ، كقوله : (سلام على نوح في العالمين) [الصافات : ٧٩] . وقوله : (سلام على إبراهيم) [الصافات : ١٠٩] . وقوله : (سلام على موسى وهرون) [الصافات : ١٢٠] . وقوله : (سلام على إل ياسين) [الصافات : ١٣٠] .

ومنها : أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم ، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم . أما الأول : فقال تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين) [الصافات : ١٨٠،١٨١] . وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ، ثم سلامه على رسله . وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول ضُلاَّل خلقه فيه ، ثم سلم على المرسلين ، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم ، المخالفون لهم وإذا سلموا من كل ما رماهم أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد .

وأعظم ما جاءوا به : التوحيد ومعرفة الله ، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد : فهو الحق المحض . وما خالفه فهو الباطل والكذب المحال .

وهذا المعنى بعينه في قوله : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾ . فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال ، والأفعال الحميدة ، والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل فقابل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى ، كما هو في آخر الصافات . وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره . فمنه قوله تعالى : (قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان) [الأنبياء : ١١٢] . وقوله : (وقل

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) [المؤمنون : ١١٨] . وقوله : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) [الأعراف : ٨٩] . ونظائره كثيرة جداً .

وفصل الخطاب في ذلك أن يقال : الآية تتضمن الأمرين جميعاً وتنتظمها انتظاماً واحداً . فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه ، وليس له فيه إلا البلاغ ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى ، فهو الذي حمد نفسه ، وسلم على صفوة عباده ، وأمر رسوله بتبليغ ذلك . فإذا قال الرسول : « الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ، ومن المبلغ بلاغاً ، ومن العباد : اقتداء وطاعة .

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى : ﴿ **الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وكلمة « السلام » ههنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول . فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي « الحمد لله » ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معاً وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة . ويكون محلها النصب ، محكية بالقول .

ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة ، معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا . فلا محل لها من الإعراب . وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم ، وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول : يكون أمرنا بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب ، مع تنافر ما بينهما ؟ فلا يحسن أن يقال : « قُمْ وذَهَبَ زيد » ولا « اخرجْ وقَعَدَ عمروٌ » .

(١) بدائع الفوائد (٢ / ١٧٠ - ١٧٢) .

ويجاب عن هذا : بأن جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية ، لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه ، وهذا نظير قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) [يونس : ١٠١] .

فقوله تعالى : (وما تغني الآيات) ليس معطوفا على القول وهو : « انظروا » بل معطوف على الجملة الكبرى ، على أن عطف الخبر على الطلب كثير ، كقوله تعالى : (قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) [الأنبياء: ١١٢]. وقوله تعالى : (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ [المؤمنون: ١١٨]. والمقصود: أنه على هذا القول: يكون الله سبحانه تعالى قد سلم على المصطفين من عباده، والرسل أفضلهم ، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) [ص: ٤٦،٤٧]. ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله اختصهم بوحيه ، وجعلهم أمناءه على رسالته، وواسطته بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم من اتخذه خليلاً ، ومنهم من كلمة تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده طريقا للوصول إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم ، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأرفعهم عنده درجة وأحبهم إليه وأكرمهم عليه وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم ، وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع ، وبهم حصلت محابّه تعالى في الأرض ، وأعلاهم منزلة أولوا العزم منهم المذكورون في قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) [الشورى : ١٣] .

وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم صلى الله عليه وسلم[1] .

(١) طريق الهجرتين (٣٢٦ - ٣٢٧) .

قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩] . **وفي ذكر أمره بالتوكل ، مع إخباره بأنه على الحق : دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين** الأمرين : أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله ، واعتقاده ونيته ، وأن يكون **متوكلا على الله واثقاً به . فالدين كله في هذين المقامين**[1] .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ **فتوكل على الله إنك على الحق المبين** ﴾ [النمل : ٧٩] .

فأمر – سبحانه – بالتوكل عليه ، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إنك على الحق المبين** ﴾ فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله ، والاكتفاء به ، والإيواء إلى ركنه الشديد . فإن الله هو الحق ، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به . فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه ؟ وكيف يخاف وهو على الحق ؟[2] .

قول الله تعالى :

وأما إماتة قلوبهم ففي قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [النمل: ٨٠] **وقوله : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) [الأنعام : ١٢٢] .**

وقوله : (لينذر من كان حيا) [يس : ٧٠] وقوله : (وما أنت بمسمع من في القبور) [فاطر : ٢٢] .

فوصف الكافر بأنه ميت ، وأنه بمنزلة أصحاب القبور ، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره ، فإذا مات القلب لم

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٧) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٣٩) .

يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل ولا إرادة للحق وكراهة للباطل بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما وكذلك وصف – سبحانه – كتابه ووحيه بأنه روح لحصول حياة القلب به فيكون القلب حيا ويزداد حياة بروح الوحي فيحصل له حياة على حياة ونور على نور ، نور الوحي على نور الفطرة قال : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده)[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ ﴾ [النمل : ٩١] .

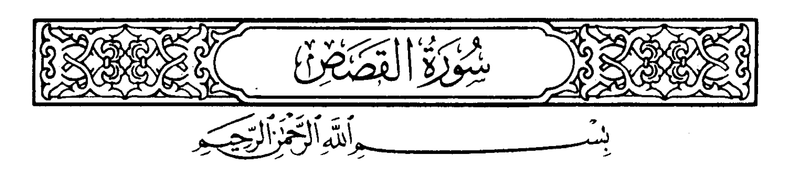
فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله ﴿ **وله كل شيء** ﴾[2] .

* * *

(١) شفاء العليل (١٠٤) .
(٢) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠٥) .

سُورَةُ القَصَصِ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

جمعت هذه الآية أمرين ونهيين وخبرين ووعدين .. ومن هذا النوع في القرآن كثير بل القرآن كله حسن وأحسن وليس هذا موضع استقصاء الأحسن وفي أشعار العرب من هذا كثير وقد تقدم بيانه[١] .

قوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨]

فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدواً وحزناً وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزناً لهم وحسرة عليهم ، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه . فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر[٢] .

---

(١) الفوائد المشوق (١٧٨) .

(٢) شفاء العليل (١٩١) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص : ٤١]

فهذا جعل كوني قدري أي قدرنا ذلك وقضيناه وجعل العبد إماماً يدعو إلى النار أبلغ من جعله يزني ويسرق ويقتل وجعله كذلك أيضاً لفظ مجمل يراد به أنه جبره وأكرهه عليه واضطره إليه وهذا محال في حق الرب تعالى ، وكماله المقدس يأبى ذلك وصفات كماله تمنع منه كما تقدم ويراد به أنه مكنه من ذلك وأقدره عليه من غير أن يضطره إليه ولا أكرهه ولا أجبره فهذا حق[١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص : ٤٤] .

كأنه قال : وما كنت من الشاهدين لما جرى لموسى عليه ولكنا أوحينا إليك . وسبب هذا الوحي أنا أنشأنا قروناً إلى زمانك فتطاول عليهم العمر أي مدة الفترة فنسي ما كان جرى فأوحينا إليك فيكون المحذوف هو السبب والمذكور الدال عليه هو سببه[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص : ٤٧]

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه لئلا يقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ؛ فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعاً الذين يقولون : إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها بل إنما قبحت بالنهي فقط والذين يقولون : إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلاً بدون البعثة فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة في نفسها ولا

(١) شفاء العليل (١٣٦) .
(٢) الفوائد المشوق (٧٣) .

يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها وفرق بين الأمرين[١] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين** ﴾ [القصص : ٤٧] .

فهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم . ولولا قبحه لم يكن سبباً لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها . وهو عدم مجيء الرسول إليهم . فمنذ جاء الرسول انعقد السبب ، ووجد الشرط . فأصابهم سيئات ما عملوا . وعوقبوا بالأول والآخر[٢] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [القصص : ٥٠]

فقسم الناس إلى مستجيبين للرسول ، ومتبع هواه ، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة ،وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه ، وهذا أكثر من أن يذكر ، والمقصود أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء ، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به ، ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه ، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به فإن خفي عليه ، فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به ؛ فيكون سائغ الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الاتباع ، ولاسيما مع ظهور السنة وبالله التوفيق[٣] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٤٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٣٢ - ٢٣٣) .
(٣) الصواعق المرسلة (٤ / ١٥٢٦ - ١٥٢٧) .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [القصص : ٥٠] .

فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما ، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به ، وإما اتباع الهوى ، فكل ما لم يأت به الرسول ، فهو من الهوى[1] .

قال الله عز وجل : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتبع هواه ، وجعل سبحانه وتعالى المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر ، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه ، فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه ، والخشية من حجابه وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى ، فإن متابعته الداء الأكبر ، ومخالفته الشفاء الأعظم[2] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

فإنها و صف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فآمنوا به فعيرهم المشركون وقالوا : قبحتم من وفد بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل فقالوا : ﴿ **لنا أعمالنا**

---

(١) إعلام الموقعين (١ / ٨١) .

(٢) روضة المحبين (٣٦٧) .

ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾[1] وكان رفع السلام متعيناً لأنه حكاية ما قد وقع ونصب السلام في آية الفرقان متعيناً لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل . فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة والله المحمود وحده على ما منّ به وأنعم :

وهي المواهب من رب العباد فما يقال لولا ولا هلا ولا فلما[2]

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : ٦٤] .

فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم وليس المراد اعبدوهم وهو نظير قوله تعالى : (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) [الكهف: ٥٢].

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨].

وليس المراد ها هنا بالاختيار الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك ، ولكن ليس المراد بالاختيار ها هنا هذا المعنى ، وهذا الاختيار داخل في قوله ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره وداخل في قوله تعالى : ﴿ **ما يشاء** ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار ، وإنما المراد بالاختيار ها هنا : الاجتباء والاصطفاء ، فهو اختيار بعد الخلق ، والاختيار العام اختيار قبل الخلق ، فهو أعم وأسبق ، وهذا أخص ، وهو متأخر ، فهو اختيار من الخلق ، والأول اختيار للخلق .

وأصح القولين أن الوقف التام على قوله : ﴿ **ويختار** ﴾ ويكون ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ نفياً ، أي : ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده ، فكما أنه المنفرد بالخلق ، فهو المنفرد بالاختيار منه ، فليس لأحد أن يخلق ، ولا أن يختار سواه ، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ، ومحال رضاه ، وما يصلح

(١) ذكره ابن إسحاق ، كما في سيرة ابن هشام (١ / ٤١٨) .
(٢) بدائع الفوائد (٢ / ١٥٩ - ١٦٠) .

للاختيار مما لا يصلح له ، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ، ولا تحصيل إلى أن « ما » في قوله تعالى : ﴿ **ما كان لهم الخيرة** ﴾ موصولة ، وهي مفعول « ويختار » أي : ويختار الذي لهم الخيرة ، وهذا باطل من وجوه :

أحدها : أن الصلة حينئذ تخلو من العائد ، لأن « الخيرة » مرفوع بأنه اسم « كان » والخبر « لهم » ، فيصير المعنى : ويختار الأمر الذي كان الخيرة لهم ، وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ، ويكون التقدير : ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه ، أي : ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره قيل : هذا يفسد من وجه آخر ، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد ، فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله مع اتحاد المعنى ، نحو قوله تعالى : (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) [المؤمنون : ٣٣] .

ونظائره ، ولا يجوز أن يقال : جاءني الذي مررت ، ورأيت الذي رغبت ، ونحوه .

الثاني : أنه لو أريد هذا المعنى لنصب « الخيرة » وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول ، فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم الخيرة ، أي : الذي كان هو عين الخيرة لهم ، وهذا لم يقرأ به أحد ألبتة ، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير .

الثالث : أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار ، وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم ثم ينفي هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرده هو بالاختيار ، كما قال تعالى : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون)

[الزخرف : ٣١-٣٢] . **فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه ، وأخبر أن ذلك ليس إليهم ، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم ، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح ، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات ، وقسم بينهم معايشهم ، ودرجات التفضيل ، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره ، وهكذا هذه الآية بين فيها انفراده بالخلق والاختيار ، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ، كما قال تعالى : (وإذ جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام : ١٢٤] . أي : الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة دون غيره .

الرابع : أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال : ﴿ **ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون** ﴾ [القصص : ٦٨] . ولم يكن شركهم مقتضياً لإثبات خالق سواه حتى نزه نفسه عنه ، فتأمله ، فإنه في غاية اللطف .

الخامس : أن هذا نظير قوله تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) ثم قال : (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور) [الحج : ٧٣-٧٦] . وهذا نظير قوله : (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) [القصص : ٦٩] . ونظير قوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [الأنعام : ١٢٤] . فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره بما خصصها به ، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها . فتدبر السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى ، زائداً عليه ، والله أعلم .

السادس : أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار)

[القصص : ٦٥-٦٨] . **فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب ، وآمن ، وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له ، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم ، فسبحان الله وتعالى عما يشركون**[1] .

وقال قدس الله روحه :

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : ٦٨، ٦٩] . أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق وهو الاصطفاء والاجتباء ولهذا كان الوقف التام عند قوله « ويختار » ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم وأن ذلك ليس إليهم بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحال الاختيار ومواضعه ، لا من قال : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [الزخرف : ٣١] . فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة كما ليس لهم الخلق ومن زعم أن « ما » مفعول « يختار » فقد غلط إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ولا يصح المعنى ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل فلا يجوز حذفه .

وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال : إن الاختيار ههنا هو الإرادة كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار فإن هذا الاصطلاح حادث منهم لا يحمل عليه كلام الله بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة وهو اختيار الشيء على غيره وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة قال في الصحاح : الخيرة الاسم من قولك خار الله لك في هذا الأمر والخيرة أيضاً يقول : محمد (خيرة) الله من خلقه وخيرة الله أيضاً بالتسكين والاختيار والاصطفاء وكذلك التخيير

(١) زاد المعاد (١ / ٣٩ - ٤٢) .

والاستخارة طلب الخيرة يقول استخر الله يخر لك وخيرته الشيئين فوضت إليه الاختيار انتهى[١] . فهذا هو الاختيار في اللغة وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام ومن هذا قوله : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) أي اختار منهم[٢] .

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : ٧١،٧٢] .

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وعمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء** ﴾ وقوله : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ راجع إلى قوله ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة** ﴾[٣] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] . أي على علم علمه الله عندي أستحق به ذلك وأستوجبه وأستأهله ، قال الفراء : أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقاً له إذ أعطيته . وقال مقاتل : يقول : على خير علمه الله عندي . وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل

(١) مختار الصحاح (١٩٤) مادة « خير » .
(٢) شفاء العليل (٣١ – ٣٢) .
(٣) مفتاح دار السعادة (٢٢٦) .

سليمان بن داود (النبي) فيما أوتي من الملك ، ثم قرأ قوله تعالى : (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) [النمل : ٤٠] ولم يقل هذا من كرامتي ، ثم ذكر قارون وقوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ يعني أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به (فـ) شكره ، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه . وكذلك قوله سبحانه : (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) ، أي أنا أهله وحقيق به فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه[1] .

ولهذا قال في قصة قارون : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص : ٧٨]

فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله سبحانه عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم[2] .

وأما احتجاجكم[3] بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨].

فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما ، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم ، وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام ، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية .

قال البخاري في صحيحه : يقال : كل شيء هالك إلا وجهه : إلا ملكه ، وقال : إلا ما أريد به وجهه[4] .

---

(١) الفوائد (٢٠٠) .

(٢) شفاء العليل (٣٧) .

(٣) في الرد على القائلين إن الجنة ليست مخلوقة الآن .

(٤) رواه البخاري معلقاً (٨ / ٣٦٤) في التفسير ، أول سورة القصص .
والطبري (٢٠ / ١٢٧) .

وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله : فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار ، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب ، لأنه سقف الجنة ، والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد وأما قوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل : (كل من عليها فان) ، [الرحمن : ٢٦] . وقالت الملائكة : هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء ، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال : كل شيء هالك – يعني ميت – إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت ، انتهى كلامه .

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري ذكره أبو الحسين في (كتاب الطبقات) قال : قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : « هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة والمتمسكين بعروتها المعروفين بها المقتدى بهم فيها ، من لدن أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها ، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق وساق أقوالهم إلى أن قال : وقد خلقت الجنة وما فيها ، وخلقت النار وما فيها ، خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما ولا يفنيان ولايفنى ما فيهما أبداً .

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾ وبنحو هذا من متشابه القرآن ؟ قيل له : كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك . وهما من الآخرة لا من الدنيا ، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة ، ولا عند النفخة ولا أبداً . لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ، ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع ، وقد ضل عن سواء السبيل . وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض ، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام ، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة

عام ، والماء فوق السماء العليا السابعة ، وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء وأن الله عز وجل على العرش والكرسي موضع قدميه ، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى ، وما في قعر البحر ومنبت كل شعرة وشجرة ، وكل زرع وكل نبات ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ، ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة ، وما هو أعلم بها ، فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله عز وجل : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [ق : ١٦] . وقوله : (وهو معكم أين ما كنتم) [الحديد : ٤] . وقوله : (إلا هو معهم أين ما كانوا) [المجادلة: ٧]. وقوله: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) [المجادلة: ٧]. ونحو هذا من متشابه القرآن فقل: إنما يعني بذلك العلم، لأن الله عز وجل على العرش فوق السماء السابعة العليا ، يعلم ذلك كله، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان»[1] وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي، قال : الخلال حافظ إمام في زمانه معروف بالتقدم في العلم والمعرفة ، كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ، ويسأله عن الرجال من أهل بلده وقال : أملى علي أحمد بن حنبل فذكر رسالة في السنة ثم قال في أثنائها : وإن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً ورأيت الكوثر ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا »[2] فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب

---

(١) انظر طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (١ / ٢٨ -٢٩) .

(٢) أما قوله صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً .. » حديث صحيح.
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣ / ١٠٧ و١٧٩ و٢٦٣) .
والترمذي (٥ / ٥٧٩) في المناقب ، باب : مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
ورواه أبو يعلى (٦ / ٣٩٠) . ورواه غيرهم .
فانظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣ / ٤٠٩ - ٤١٠) برقم (١٤٢٣) .
- وأما قوله صلى الله عليه وسلم « ورأيت الكوثر ... » فهي ثابتة صحيحة انظرها في تفسير ابن كثير (٤ / ٥٩٠) عند تفسير سورة الكوثر .

برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، كافر بالجنة والنار ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل[1] . وقال في رواية عبدوس بن مالك العطار ، وذكر رسالة السنة قال فيها : «والجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا »[2] . فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار »[3][4] .

* * *

= – وأما قوله صلى الله عليه وسلم « واطلعت في النار فرأيت أكثر ... » سيأتي بعد رقم (٢).

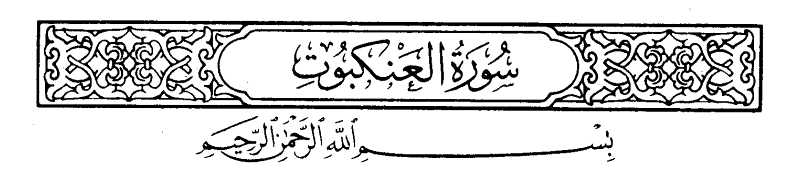
(١) انظر الطبقات لأبي يعلى (١ / ٣١٢) .

(٢) روى البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » (١١ / ٢٧٨) في الرقاق ، باب : فضل الفقر .
ورواه مسلم من حديث أسامة بن زيد (٥ / ٥٨٠) في الرقاق ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ...
والترمذي من حديث عمران بن حصين (٤ / ٦١٧) في صفة جهنم ، باب : ما جاء أكثر أهل النار ... .

(٣) انظر طبقات الحنابلة لأبي يعلى (١ / ٢٤٣) .

(٤) حادي الأرواح (٤٩ – ٥١) .

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ



قول الله تعالى ذكره : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١-٦]

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لابد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل . وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب ، والمؤمن من الكافر ، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم بل بمعلومه إذا وجد وتحقق . والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم . ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة ، فإنَّ بين يديه من الفتنة

والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر عنه فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنت ، وإما أن لا يقول بل يستمر على السيئات فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته بل هو فى قبضته وناصيته بيده ، فله من البلاء أعظم مما ابتلي به من قال : آمنت فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلى من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة ، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها ، والذين يصبرون عنها ينالون بفقدها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها .

فالألم واللذة أمر ضروري لكل انسان لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون ، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات . فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث ، فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والحزن والفرح والغم ، وذلك من جهتين : من جهة تركبه وطبيعته وهيئته ، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه بل لابد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال . فيحصل الألم ومن جهة بنى جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده بل لا يعيش إلا معهم وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء ، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وهم يريدون منه ذلك فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم فيحصل له من الألم والتعذيب

بحسب ذلك فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها ففى موافقتهم أعظم الألم وفي مخالفتهم حصول الألم فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصاً من أشدهما ، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر . فمن كان ظهيراً للمجرمين من الظلمة على ظلمهم ، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلاً وآجلاً أضعاف أضعاف ما فر منه . وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة . وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه وإذا كان لا من[1] الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم ولما كان زمن التألم والعذاب فصبره طويل فأنفاسه ساعات وساعته أيام وأيامه شهور وأعوام بلا سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلاً ثم ينقطع وضرب لأهله أجلاً للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله فقال : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم** ﴾ [العنكبوت : ٥] . فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلي سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادا وأوفر سعيا فقال تعالى : ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾ . وأيضاً فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعتبة عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا

(١) هكذا في المطبوع .

الابتلاء والامتحان مختصة بهم واقتضت حكمته أن نصب ذلك سبباً مفضياً إلى تميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح . قال تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) [آل عمران : ١٧٩] . فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم ، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٨] .

ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفا ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله . وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٠-١٣] .

ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه كما يفر من عذاب الله فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله فهم من المفتونين المعذبين وإن فرَّ من عذاب الناس له على الأيمان .

ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين وأنهم إذا نُصروا لجأ إليهم وقال: كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٤،١٥] .

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق ثم بعده بالخرق ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه وابتلاهم بطاعته ومتابعته ثم ذكر إبتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم ثم ذكر إبتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله . ثم ذكر ما ابتلى به عاداً وثمود وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده ، ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات . ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها .

ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى بن أرض إلى أرض وأخبرهم أن مرجعهم إليه فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه.

ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنهم يبوئهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارا أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم فلا يهتموا بحمل الرزق فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها .

ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتع وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم وما حصلوا عليه من العذاب الأليم وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره ، فأخبر سبحانه أن أجل عطاه وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه وتوكلوا عليه وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه وآثروا النعيم العاجل عليه . فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر فانها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان ووسطه صبر وتوكل وآخره هداية ونصر . والله المستعان[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى ذكره : ﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ * أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ * مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

(١) شفاء العليل (٢٤٥ – ٢٤٧) .

ٱلْعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[العنكبوت : ١-١٠] .

فليتأمل العبد سياق هذه الآيات وما تضمنته من العبر وكنوز الحكم فإن الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا وإما ألا يقول ذلك بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه والفتنة : الابتلاء والاختبار ليتبين الصادق من الكاذب ومن لم يقل : آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فإنه إنما يطوي المراحل في يديه .

وكيف يفر المرء عنه بذنبه إذا كان تطوى في يديه المراحل

فمن آمن بالرسل وأطاعهم ، عاداه أعداؤهم وآذوه فابتلي بما يؤلمه وإن لم يؤمن بهم ولم يطعهم ، عوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه وكان هذا المؤلم له أعظم ألماً وأدوم من ألم اتباعهم فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخره والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير إلى الألم الدائم، وسئل الشافعي رحمه الله، أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يبتلى .

والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول فأعقلهم من باع ألماً مستمراً عظيماً بألم منقطع يسير وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر .

فإن قيل : كيف يختار العاقل هذا ؟ قيل : الحامل له على هذا : النقد والنسيئة . والنفس موكلة بحب العاجل (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) [القيامة : ٢٠] . (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) [الإنسان : ٢٧] .

وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدني بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة ، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم ، أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء ، لو أنكر عليهم وخالفهم وإن سلم منهم فلابد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية : «من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله مؤنة الناس ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً »[1] .

ومن تأمل أحوال العالم ، رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هرباً من عقوبتهم فمن هداه الله ، وألهمه رشده ووقاه شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عدوانهم ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما كانت للرسل وأتباعهم

(١) رواه الترمذي بلفظ « من التمس رضاء الله بسخط الناس ... » (٤ / ٥٢٧) في الزهد ، باب : « ٦٤ » . وصححه وفصل تخريجه العلامة الألباني كما في « الصحيحة » (٥ / ٣٩٢) برقم (٢٣١١) .

كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم .

ولما كان الألم لامحيص منه البتة ، عزّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم** ﴾ [العنكبوت : ٥] .

فضرب لمدة هذا الألم أجلاً ، لابد أن يأتي ، وهو يوم لقائه ، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به ولهذا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه الشوق إلى لقائه فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان : « اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضى بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »[1] . فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه ويقرب عليه الطريق ويطوي له البعيد ويهون عليه الآلام والمشاق وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤ / ٢٦٤) .
وابن حبان (٣ / ٢١٣) .
والنسائي (٣ / ٥٤ - ٥٥) في السهو ، باب : نوع آخر - من الدعاء - .
والحاكم (١ / ٥٢٤ - ٥٢٥) وصححه ووافقه الذهبي .
وكلهم رووه من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه .

الذي تنال به والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال ، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه فتصلح عنده هذه النعمة ويصلح بها كما قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) [الأنعام : ٥٣] . فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه : (أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

ثم عزاهم تعالى بعزاء آخر وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم وأنه غني عن العالمين ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين .

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لابد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم جعل ذلك في فراره منهم وتركه السبب الذي ناله ، كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب ، وهذا لضعف بصيرته ، فر من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه ، بمنزلة ألم عذاب الله وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء بالنار وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال : إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق .

والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح ويمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان ، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذه الدار ، وإلا ففي كير جهنم ، فإذا هذب العبد ونقي أذن له في

دخول الجنة[(١)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

فإنه إنما قال – ألف سنة إلا خمسين عاماً – ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً لفائدة حسنة ، وهي ذكر ما ابتلي به نوح عليه الصلاة والسلام من أمته وما كابده من طول المقام ليكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيهاً له ، فإن ذكر رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع قوة صبره وما لاقاه من قومه[(٢)] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

يقول تعالى : انظروا كيف بدأت الخلق فاعتبروا الإعادة بالابتداء[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء ، وأن الذين اتخذوهم أولياءهم أضعف منهم ، فهم في ضعفهم ، وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً ، وهو أوهن البيوت وأضعفها .

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء ، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء ضعفاً كما قال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً)

(١) زاد المعاد (٣ / ١٣ – ١٨) .
(٢) الفوائد المشوق (١٨٠ – ١٨١) .
(٣) إعلام الموقعين (١ / ١٩٧) .

[مريم : ٨١،٨٢] . وقال تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) [يس : ٧٤،٧٥] . وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) [هود : ١٠١] .

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده .

وفي القرآن أكثر من ذلك ، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه ، وحصوله على ضد مقصوده .

فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف نفى عنهم ذلك بقوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ ؟ .

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت ، وإنما نفى عنهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً ، فلو علموا ذلك لما فعلوه ، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه ، يفيدهم عزا وقدرة فكان الأمر بخلاف ما ظنوه[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

فقيل : المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله ، وهو من ذكره ولذكره الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه . وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم .

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ قال : هو قوله تعالى : (فاذكروني أذكركم) [البقرة : ١٥٢] . فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه وقال ابن زيد وقتادة : معناه : ولذكر الله أكبر

(١) إعلام الموقعين (١ / ٢٠٤ - ٢٠٥) .

من كل شيء . وقيل لسلمان : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداءالمتقدم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق » الحديث[1] .

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى ، ولما فيها من ذكر الله تعالى أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر . وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس : أنه سئل أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر .

وفي السنن عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى »[2] . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح[3] .

وقال رحمه الله تعالى :

فيها أربعة أقوال :

أحدها : أن ذكر الله أكبر من كل شيء . فهو أفضل الطاعات . لأن المقصود بالطاعات كلها : إقامة ذكره . فهو سر الطاعات وروحها .

الثاني : أن المعنى : أنكم إذا ذكرتموه ذكركم فكان ذكره لكم أكبر من

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥ / ١٩٥) .
والترمذي (٣ / ١٣٩) صحيح الترمذي ، في الدعوات ، باب (٥) .
وابن ماجه (٢ / ٣١٦) صحيح ابن ماجه ، في الذكر ، باب : فضل الذكر .
والحاكم (١ / ٤٩٦) وصححه ووافقه الذهبي .
كلهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود (٥ / ٣٤١) في المناسك ، باب : في الرمل .
والترمذي (٣ / ٢٤٦) في الحج ، باب : ما جاء كيف ترمى الجمرات وقال « حسن صحيح » .

(٣) الوبل الصيب (٩٤ – ٩٥) دار البيان .

ذكركم له . فعلى هذا : المصدر مضاف إلى الفاعل . وعلى الأول : مضاف إلى المذكور .

الثالث : أن المعنى : ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر . بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية . هذا ما ذكره المفسرون وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : معنى الآية : أن في الصلاة فائدتين عظيمتين :

إحداهما : نهيها عن الفحشاء والمنكر .

والثانية : اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له . ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر[1] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٢٦) .

فضل أهل العلم

أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات فى صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٧-٤٩] .

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين .

أحدهما : أنه آيات بينات .

الثاني : أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم . والقولان متلازمان ليسا بمختلفين وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله[1] .

وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه ، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض

(١) مفتاح دار السعادة (٥٤) .

العقل لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً . وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقل يبطل كون القرآن آية وبرهاناً على صحة النبوة . والمقصود أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه وما بعثه به فلم يحوج أمته إلى سواه ، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه لم يكن كافياً للأمة ولا كان تاماً في نفسه . في مراسيل أبي داود أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم ، أنزل على نبي غير نبيهم » فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[1][2] [العنكبوت : ٥١] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

والمراد الجنة عند أهل التفسير ، قالوا : وإن الآخرة يعني الجنة لهي دار الحياة التي لا موت فيها فقال الكلبي : هى حياة لا موت فيها .

وقال الزجاج : هى دار الحياة الدائمة . وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى

قال أبو عبيدة وابن قتيبة : « الحياة : الحيوان » ، قال أبو عبيدة الحياة والحيوان الحي – بكسر الحاء – واحد .

(١) لم أهتد إليه بهذا اللفظ ، لكن جاء هذا المعنى في أحاديث أخر بلفظ « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ ... » .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣ / ٣٨٧) .
والدارمي (١ / ٩٥) قريب منه ، في العلم باب : ما يتقي من تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم .
وابن أبي عاصم في السنة (١ / ٢٧) ورواه غيرهم .
والحديث حسنه الألباني كما في السنة (١ / ٢٧) .
والمشكاة (١ / ٦٣) وحسنه .
وفصل تخريجه في الإرواء (٦ / ٣٤) .

(٢) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٢٦ – ٨٢٧) .

قال أبو علي : يعني أنها مصادر ، فالحياة فعله كالجلبة والحيوان كالنزوان والغليان والحي كالعي قال العجاج :

كُنابِها إذا الحياة حي

أي إذا الحياة حياة ، أما أبو زيد فخالفهم . وقال : الحيوان : ما فيه روح ، والموتان : الموات : ما لا روح فيه . والصواب : أن الحيوان يقع على ضربين :

أحدها : مصدر كما حكاه أبو عبيدة .

والثاني : وصف كما حكاه أبو زيد على قول أبي زيد : الحيوان مثل الحى خلاف الميت ، ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان . وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضاً قالوا : رجل ضميان للسريع الخفيف ، وزفيان قال في الصحاح : ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم .

فيحتمل قوله تعالى : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾ معنيين :

أحدهما : أن حياة الآخرة هي الحياة لأنها لاتنغيص فيها ولا نفاد لها أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدراً على هذا .

الثاني : أن يكون المعنى أنها الدار التى لا تفنى ولاتنقطع ولاتبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت[1] .

قول الله تعالى ذكره : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت :٦٩] .

علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا وأفرض الجهاد جهاد النفس ، وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا . فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد قال الجنيد : والذين جاهدوا أهواءهم

(١) حادي الأرواح (٨٧ – ٨٨) .

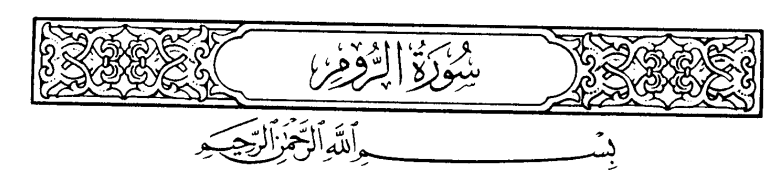
فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً فمن نصر عليها نصر على عدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه[1] .

* * *

(١) الفوائد (٥٨) .

سُورَةُ الرُّومِ





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم : ١٤-١٥]

قال صاحب السماع[(١)] : جاء في التفسير أنه السماع ، ولو كان حراماً لما كان من أفضل نعيم الجنة .

قال صاحب القرآن : لو أمسكتم عن استدلالكم لصحة ما ذهبتم إليه ؛ لكان أستر له وأروج عند من قل نصيبه من البصيرة والعلم ، ولكن يأبى الله إلا أن يكشفه ويهتكه على ألسنتكم .

ولا ريب أنه قال بعض السلف[(٢)]: إن الحبرة ههنا السماع الحسن في الجنة ، وإن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع خلائق بأحسن منها ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له .

وذكر أبو نعيم في صفة الجنة[(٣)] من حديث سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط . إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، نحن أزواج قوم كرام ،

---

(١) مناظرة بين مبيح السماع المحرم وبين صاحب القرآن المقسط .

(٢) وهو أحد القولين اللذين ذكرهما ابن جرير في تفسيره (٢١ / ٢٧ - ٢٨) .

(٣) صفة الجنة (٣ / ٢٧٨) .

ينظرون بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يمتنه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه » تفرد به سعيد بن أبي مريم[١] .

وروي من طريق الوليد بن أبي ثور حدثني سعد الطائي عن عبد الرحمن ابن سابط عن ابن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذكر حديثا فيه « أنه تجتمع الحور العين في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات حسان لم يسمع الخلائق مثلهن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن المقيمات فلا نظعن طوبى لمن كان لنا وكنا له[٢] .

وروي من طريق ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عون بن الخطاب عن ابن لأنس عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحور العين يغنين في الجنة : نحن الحور الحسان خلقنا لأزواج كرام »[٣] .

ومن طريق يزيد بن واقد عن رجل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة شجرة جذوعها من ذهب وفروعها من زبرجد ولؤلؤ فتهب لها ريح فتصفق فما سمع السامعون بصوت شيء قط ألذ منه »[٤] .

---

(١) سعيد بن أبي مريم هو « سعيد بن الحكم » ثقة ثبت فقيه من كبار العاشرة .
التهذيب (٤ / ١٧ - ١٨) .
والحديث رواه الطبراني في الأوسط والصغير (١ / ٢٥٩ - ٢٦٠) .
وقال الهيثمي « رجاله رجال الصحيح » مجمع الزوائد (١٠ / ٤١٩) . وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٥٥٧) .

(٢) صفة الجنة (٣ / ٢١٩ - ٢٢٠) .
والبيهقي في « البعث والنشور » برقم (٢٢٤) من وجه آخر .
والحديث ضعفه العراقي كما في تعليقه على الإحياء (٤ / ٥٢٥) .
والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (برقم ١٩٨٢) .

(٣) صححه الألباني كما في صحيح الجامع برقم (١٥٩٨) وانظر تخريجه مفصلاً في صفة الجنة (٣ / ٢٨٠ - ٢٨١) .

(٤) صفة الجنة (٣ / ٢٨٢) .
وقال محققه : إسناده ضعيف جداً ، فيه مسلمة بن علي هو ابن خلف الخشني ضعفه جداً غير واحد .

ومن طريق خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزامير الشيطان »[1] .

وروى الترمذي : حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو معاوية حدثنا عبد الرحمن ابن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم يسمع الخلائق مثلها قال : يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له »[2] . وقال حديث غريب .

وروى الطبراني من حديث سليمان بن أبي كريمة – وفيه كلام – عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت : قلت يارسول الله : نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة . قلت : يارسول الله وبم ذلك ؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدرر وأمشاطهن الذهب يقلن : نحن الخالدات فلا نموت ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا »[3] الحديث .

---

(١) صفة الجنة (٣ / ٢٨٢ – ٢٨٣) .
والطبراني في الكبير (٨ / ١١٣) برقم (٧٤٧٨) وحسنه الحافظ العراقي كما في الإحياء (٤ / ٥٢٦) في باب : صفة الحور العين والولدان .

(٢) رواه الترمذي (٤ / ٦٠٠) كتاب : صفة الجنة ، باب ما جاء في كلام الحور العين .
وقال « غريب » أي ضعيف .
وراجع رقم (٢) صـ (٣٨٦)

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٣ / ٣٦٧) برقم (٨٧٠) .
وانظر تفسير الطبري (٢٣ / ٥٧) .
وفيه سليمان بن أبي كريمة « ضعيف » .

فيقال لكم : هل يلزم من كون الشيء ينعم الله به عباده في الآخرة أن يكون مباحاً لهم في الدنيا ؟ فإن قلتم : لا يلزم ذلك ؛ بطل استدلالكم . وإن قلتم : يلزم ؛ قيل لكم : فالله سبحانه ينعمهم في الآخرة بلباس الحرير وأساورة الذهب فجوزوا لهم لباس ذلك في الدنيا وخالفوا دينه وأمره ، وأيضاً فإن الله عز وجل ينعمهم في الجنة بالخمر ، فجوزوا لهم شربها في الدنيا على طرد قولكم ، وأيضاً فإنهم في الجنة يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة »[1] ، وطرد قولكم : إنها كما هي للمسلمين في الآخرة تكون مباحة لهم في الدنيا ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[2]. وقال في صحاف الذهب والفضة : « هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة » . فأخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرهما لم يستعملها في الآخرة فإما أن يستعملها أهـل الجنة ويحرمها هو وإن دخلها ، كما روى ابن أبي حاتـم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسن يعني : ابن علي بن حسن البراد عن حميد الخراط عن محمد بن كعب قال : من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة . قال : قلت : فإنه تاب حتى أدخله الله الجنة ، والله تعالى يقول : (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) [فصلت : ٣١] . قال : ينسيهم الله ذكرها أو أن ذلك وعيد له بأنه لا يدخل الجنة ؛ فإن هذه الأمور يستعملها أهل الجنة فمن لم تحصل له في الآخرة لم يكن من أهل الجنة . وهما تأويلان للسلف في هذه الأحاديث ، فلو قيل : إن هذا السماع اللذيذ الموعود

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ٩٧) في الأشربة ، باب : الشرب في آنية الذهب .

(٢) هذان حديثان أولهما « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ... » .
رواه مسلم (٤ / ٦٨٦ – ٦٨٧) في الأشربة ، باب : عقوبة من شرب الخمر ...
والجزء الثاني « من لبس الحرير ... إلخ » .
رواه البخاري (١٠ / ٢٩٦) في اللباس ، باب : لبس الحرير للرجال ، وقدر ما يجوز منه .
ومسلم (٤ / ٧٧٨) في اللباس ، باب : تحريم الذهب والحرير .

به في الجنة إنما هو لمن نزه سمعه في الدنيا عن سماع الغناء والملاهي اعتباراً بنظيره من اللباس وشرب الخمر واستعمال آنية الذهب والفضة لكان هذا أشبه بالصواب وأصح من استدلالكم على إباحته في الدنيا باستعمال أهل الجنة له[١]

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم : ١٩] .

فدل بالنظير على النظير وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ الإخراج أي : يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي[٢] .

قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الروم : ٢٠-٢٥] .

ونوع سبحانه الآيات في هذه السور ، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم ؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته ، وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون . فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكر والبصيرة ، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته ، وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون ، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم ، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم ، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٤٦-٢٥٥) .

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨٦) .

الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه . وجعل إراءهم البرق وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون . فإن هذه أمور مرئية بالإبصار مشاهدة بالحس ، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم ، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها ، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية ، والعقل دل على ما جعلت آية له ، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [الروم : ٢٤] . فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور(١) .

وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها ، بل هي من كماله وقد امتن الله سبحانه بها على عباده فقال : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [الروم : ٢١] . فجعل المرأة سكناً للرجل ، يسكن قلبه إليها وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة(٢) .

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨]

أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه في رزقه ، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري ، ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره(٣) .

(١) مفتاح دار السعادة (٢٠٣ - ٢٠٤) .
(٢) الجواب الكافي (٣٥٧ - ٣٥٨) .
(٣) الجواب الكافي (٢٠٧) .

وقال أيضاً رحمه الله :

يحتج سبحانه عليهم بما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكاً له ، فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ولا يرضى بذلك فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي ؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر ، والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك[1] .

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد ، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلا عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده ، فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ؛ ولكن غيرت الفطر وأفسدت ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلّا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تُنتَج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه)[2] .

ومنيبين نصب على الحال من المفعول أي : فطرهم منيبين إليه ، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده ، والإعراض عما سواه .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا ، إنه قال : كل مال نحلته عبداً فهو له حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، وحرمت

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٤٠) .

(٢) حديث صحيح. مر في سورة الأعراف عند قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم..﴾ الآية رقم (١٧٢).

عليهم ما أحللت لهم »[1] فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره ، وهذا من الحق الذي خلقت له ، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما ، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار ، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره ، فكونه سبحانه أهلاً أن يعبد ويحب ويحمد ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته ، فلا يكون إلا كذلك . كما أنه الغني القادر الحي القيوم السميع البصير فهو سبحانه الإله الحق المبين ، والإله هو الذي يستحق أن يؤله محبة وتعظيما وخشية وخضوعاً وتذللاً وعبادة ، فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه ، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه ؛ فهو المعبود حقاً ، الإله حقاً المحمود حقاً ، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه و لم يحمدوه و لم يألهوه فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم ، وبعد أن خلقهم ، وبعد أن يفنيهم ، لم يستحدث بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاق إلهية وحمد ؛ بل إلهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له يستحيل مفارقتها له لحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد وإن لم يرسل إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً ولو لم يخلق جنة أو ناراً ؛ علموا أنه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته ، ولا أقبح من الإعراض عنه ، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسناً إلى حسنه ، فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا ، وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة ؛ فعبدوه وأحبوه ومجدوه وحمدوه بداعي الفطر وداعي الشرع وداعي العقل ، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة ، ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم ، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريبا وشكاً ، ولأمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه ، فأجابوا دواعي المحبة والطاعة إذ نادت بهم : حي على الفلاح ، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخي السماح ، وحمدوا

---

(١) رواه مسلم (٥ / ٧١٦) في الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها أهل الجنة . والإمام أحمد (٤ / ١٦٢) .

عند الوصول إليه مسراهم وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح ، فدينهم دين الحب وهو الدين الذي لا إكراه فيه ، وسيرهم سير المحبين وهو الذي لا وقفة تعتريه[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وهذا يعم جميع الناس ، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة ، وأيضاً فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم ؛ فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته ، وأيضاً فإنه قال ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ وأيضاً فإن هذا تفسير السلف ، قال ابن جرير : يقول فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك الله يا محمد لطاعته ، وهي الدين ﴿ **حنيفاً** ﴾ يقول : مستقيما لدينه وطاعته ﴿ **فطرة الله** ﴾ يقول : صنعة الله التي خلق الناس عليها ، ونصب فطرة على المصدر من معنى قوله : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ ؛ لأن المعنى : فطر الله الناس على ذلك فطرة .

قال : وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . ثم روي عن ابن زيد قال : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك .

وعن مجاهد : ﴿ **فطرة الله** ﴾ قال : الدين الإسلام ، ثم روي عن يزيد ابن أبي مريم قال عمر لمعاذ بن جبل ، فقال : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن المنجيات : الإخلاص ، وهو الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة فقال عمر : صدقت .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٢١ - ٤٢٣) .

وقوله : ﴿ **لاتبديل لخلق الله** ﴾ يقول : لا تغيير لدين الله ، أي : لا يصلح ذلك ، ولا ينبغي أن يفعل ، قال ابن نجيح : عن مجاهد ﴿ **لاتبديل لخلق الله** ﴾ أي لدين الله ، ثم ذكر أن مجاهداً أرسل إلى عكرمة يسأله عن قوله : ﴿ **لاتبديل لخلق الله** ﴾ قال : هو الخصا ، فقال مجاهد : أخطأ ، لا تبديل لخلق الله ، إنما هو الدين ثم قال لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم وروي عن عكرمة لا تبديل لخلق الله قال : لدين الله ، وهو قول سعيد بن جبير ، والضحاك ، وإبراهيم النخعي ، وابن زيد .

وعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد هو الخصا[1] ولا منافاة بين القولين كما قال تعالى : (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) [النساء : ١١٩] . فتغيير ما فطر الله عباده من الدين تغيير لخلقه ، والخصا وقطع آذان الأنعام تغيير لخلقه أيضاً ، ولهذا شبه النبي صلى الله عليه وسلم أحدهما بالآخر ، فأولئك يغيرون الشريعة وهؤلاء يغيرون الخلقة ، فذلك يغير ما خلقت عليه نفسه وروحه وهذا يغير ما خلق عليه بدنه[2] .

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم : ٤١] .

نـزّل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها ، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً ؛ أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم . ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم ، كما كانت البركة فيها أعظم وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢١ / ٤٠ – ٤٢) وقد حاولت ضبط المنقول منه بقدر استطاعتي .
(٢) شفاء العليل (٢٨٦ – ٢٨٧) .

حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل ، وهذه القصة ذكرها في « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ، حكما قسطاً وقضاء عدلاً . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله في الطاعون : « إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل » وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم[١] سبع ليال وثمانية أيام ، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام ، وفي نظيرها عظة وعبرة ، وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم ، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها ؛ فتارة بقحط وجدب ، وتارة بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتارة بأمراض عامة ، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً ؛ لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يُسَيِّر بصيرته بين أقطار العالم ؛ فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون ، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره . وبالله التوفيق[٢] .

---

(١) قال الله تبارك وتعالى ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ (الحاقة : ٦ - ٧) .

(٢) زاد المعاد (٣٦٣/٤ - ٣٦٤) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

قال مجاهد : إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد ؛ فيحبس الله بذلك القطر ؛ فيهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، ثم قرأ : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ؛ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر . وقال عكرمة : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر** ﴾ ، أما إني لا أقول لكم : بحركم هذا ، ولكن كل قرية على ماء . وقال قتادة : أما البر فأهل العمود ، وأما البحر فأهل القرى والريف .

قلت : وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال : (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) [فاطر : ١٢] . وليس في العالم بحر حلو واقف ، وإنما هي الأنهار الجارية ، والبحر المالح هو الساكن ، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه . وقال ابن زيد : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر** ﴾ قال : الذنوب . قلت : أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها ، فيكون اللام في قوله : ﴿ **ليذيقهم بعض الذي عملوا** ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول فالمراد بالفساد : النقص والشر ، والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد ، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة . والظاهر – والله أعلم – أن الفساد المراد به : الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ليذيقهم بعض الذي عملوا** ﴾ فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا ، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة[١] .

(١) الجواب الكافي (٨٩ – ٩٠) .

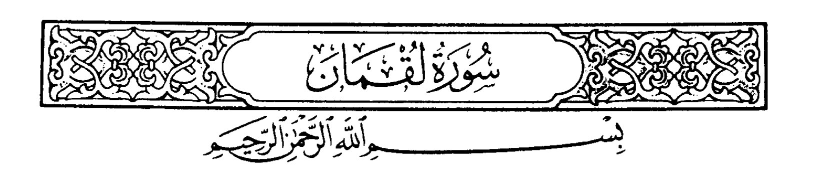
قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على[1] .

* * *

(١) بدائع الفوائد (١٦٢/٢) .

سُورَةُ لُقْمَانَ



قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[لقمان : ٦،٧] .

وقد فسر غير واحد من السلف ﴿ **لهو الحديث** ﴾ بأنه : الغناء . وروي في ذلك حديث مرفوع من حديث عائشة أم المؤمنين : « إن الله حرم القنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » ثم قرأ : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾[1] .

ورواه الترمذي من حديث أبي أمامة ولفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام وفي هذا نزلت هذه الآية ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ »[2] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط كما قال الهيثمي « وفيه اثنان لم أجد من ذكرهما وليث بن أبي سليم مدلس » مجمع الزوائد (٤ /٩١) .
وابن الجوزي في تلبيس إبليس (٣٣٣) .
وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٣٧) .

(٢) رواه الترمذي (٣ / ٨٩) صحيح الترمذي في التفسير ، باب : سورة لقمان .
وابن ماجه (٢ / ١٠) صحيح ابن ماجه . في التجارات ، باب : الحث على المكاسب وحسنه فضيلة الشيخ الألباني في الموضعين .
والطبري (٢١ / ٦٠) .

=

ورواه الإمام أحمد وعبد الله بن الزبير الحميدي في مسنديهما[١] .

وثبت تفسير ذلك بالغناء عن الصحابة ، والتابعين ، وهم أعلم الناس بالقرآن وتفسيره ، فقال : أبو الصهباء : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية فقال : هو الغناء والاستماع إليه »[٢] وهو القائل : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[٣] وقال إبراهيم النخعي والحسن البصري في هذه الآية : إنه الغناء[٤] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الواحدي وغيره : أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ، ومقسم عنه ، وقاله عبد الله ابن مسعود في رواية أبي الصهباء عنه ، وهو قول مجاهد وعكرمة .

= والطبراني في الكبير (٨ / ٢٣٣) .
وانظر مجمع الزوائد (٤ / ٩١) .
وتلبيس إبليس (٣٣٢) .

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده (٥ / ٢٥٧) وأوله « إن الله عز وجل بعثني رحمة وهدى ... » .
والحميدي في مسنده (٢ / ٤٠٥) .
ومعنى القينات في الأحاديث السابقة « المغنيات » .

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢١ / ٦١) .
وانظر تفسير ابن كثير (٣ / ٤٦٠) .
وتلبيس إبليس (٣٣٠) .

(٣) رواه البيهقي في سننه (١٠ / ٢٢٣) .
وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي صـ (٣٨) .
وهو منقطع ، لأن إبراهيم النخعي لم يدرك ابن مسعود رضي الله عنه .
ورواه مرفوعاً ، أبو داود في السنن (١٣ / ٢٦٩) في الأدب ، باب : كراهية الغناء والزمر .
وضعفه الألباني في تعليقه على الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام صـ (٤٦) .
ومشكاة المصابيح (٣ / ١٣٥٥) . ولكنه صحيح موقوفاً كما بين ابن القيم في إغاثة اللهفان (١ / ٢٤٧ - ٢٤٨) .

(٤) الكلام في مسألة السماع (١١١ - ١١٣) .

وروى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال : هو الرجل يشتري الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : « هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وهذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً .

وقال : أكثر ما جاء في التفسير : أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ؛ لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى . قال الواحدي : قال أهل المعاني : ويدخل في كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن ، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال والاختيار وهو كثير في القرآن . قال : ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه الآية : لعله أن لا يكون أنفق مالاً ، قال : وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق .

قال الواحدي : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء . ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء .

قال : وأما غناء القينات : فذلك أشد ما في الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ومن استمع إلى قنية صب في أذنيه الآنك يوم القيامة »[1] الآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ففي مسند الإمام أحمد ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة والسياق للترمذي : أن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن

---

(١) قال الألباني « موضوع » رواه ابن عساكر .
ضعيف الجامع رقم (٥٤١٨) .

وثمنهن حرام » ، في مثل هذا نزلت هذه الآية ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ . وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله ابن زحر عن علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زَحْر ثقة، والقاسم ثقة وعلي ضعيف[1] ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى ، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه : الغناء فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود قال أبو الصهباء : سألت ابن مسعود عن قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) . فقال : والله الذي لا إله غيره ، هو الغناء – يرددها ثلاث مرات .

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً أنه : الغناء . قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك : ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند[2] .

وقال في موضع آخر من كتابه : هو عندنا في حكم المرفوع . وهذا وإن كان فيه نظر فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم ، فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه . فعليهم نُزل وهم أول من خوطب به من الأمة . وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم علماً وعملاً ، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل .

---

(١) مضى برقم (٢) من نفس السورة صـ ٤٠١ فانظره ، أما « عبيد الله بن زَحْر » فقال الحافظ في التقريب صدوق يخطىء » (١ / ٥٣٣) .
وانظر أقوال أهل العلم فيه ، في الميزان للذهبي (٣ / ٦ – ٧) .
وأما « القاسم فهو ابن عبد الرحمن ، أبو عبد الرحمن صاحب أبي أمامة » .
قال ابن حجر في التقريب «صدوق ، يرسل كثيراً» (١١٨/٢). وانظر التهذيب (٣٢٢/٨) .
و «علي بن يزيد الألهاني» ضعيف، كما في التقريب (٤٦/٢). والحديث حسن كما سبق بيانه .

(٢) المستدرك للحاكم (٢٥٨/٢) في التفسير، سورة الفاتحة.

ولا تعارض بين تفسير ﴿ **لهو الحديث** ﴾ بالغناء وتفسيره : بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث[1] يحدث به أهل مكة يشغلهم به عن القرآن . فكلاهما لهو الحديث ، ولهذا قال ابن عباس لهو الحديث : الباطل والغناء .

فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما .

والغناء أشد لهواً وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم ؛ فإنه رقية الزنا ومنبت النفاق ، وشرك الشيطان ، وخمرة العقل ، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل ؛ لشدة ميل النفوس إليه ، ورغبتها فيه .

إذا عرف هذا . فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن ، وإن لم ينالوا جميعه . فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقراً ، وهو : الثِّقل والصمم . وإذا علم منه شيئاً استهزأ به ، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفراً وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه : أنك لا تجد أحداً غنى بالغناء وسماع آلاته إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى ، علماً وعملاً ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن ، وربما حمله الحال على أن يسكت القارىء ، ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته ، وأقل ما في هذا : أن يناله نصيب وافر من هذا الذم إن لم يحظ به جميعه .

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها ؛ فأما من مات قلبه وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة (ومن يرد الله فتنته فلن تملك

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١ / ٣١٩ – ٣٢٠) .

له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ [المائدة : ٤١](١) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [لقمان : ٨]

وهذا أيضاً اسم جامع لجميع الجنات ؛ لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة ، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن(٢) .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١]

فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك ، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه ، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك ؛ كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان : ١٥] .

وكل من الصحابة منيب إلى الله ؛ فيجب اتباع سبيله وأقواله ، واعتقاداته من أكبر سبيله ، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم ، وقد قال (ويهدي إليه من ينيب) [الشورى : ١٣](٤) .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : ١٧] .

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر . والشيخ(٥) دائماً

(١) إغاثة اللهفان (١/٢٣٨ – ٢٤١) .
(٢) حادي الأرواح (٨٩) .
(٣) الصواعق المرسلة (٢/٤٦٥) .
(٤) إعلام الموقعين (٤/١٦٣) .
(٥) يعني الشيخ الجليل قدوة العارفين شيخ الإسلام وسلطان المشايخ ، وسيد الطريقة في وقته ، محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلي ، صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف ، الحنبلي رحمه الله تعالى. =

يحوم حول هذه الأصول الثلاثة ، كقوله : يا بني افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور ، وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لابنه في قوله : ﴿ **يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** ﴾ [لقمان : ١٧] .

فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه ، وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعي فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي[١] .

قال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] .

فأمره أن يغض من صوته وأن يقصد في مشيه كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا؛ بل إطلاق البصر ورفع الأصوات والرقص[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧]

ومعنى هذا : أنه لو فرض البحر مداداً ، وبعده سبعة أبحر تمده كلها مداداً ، وجميع أشجار الأرض أقلاماً . وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة وتستمد بذلك المداد ؛ لفنيت البحار والأقلام ،

= وكلامه هذا في كتابه « فتوح المعارف » .
انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠ / ٤٣٩) .
وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ٢٩٠) .

(١) عدة الصابرين (٢٩) .

(٢) الكلام في مسألة السماع (٣٥٤) .

وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

فأين هذا مِنْ وَصْفِ مَنْ يصفُه بأنه ما تكلم ولا يتكلم، ولا يقوم به كلام أصلاً؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد لا ينقضي ، ولا يتجزأ ولا له بعض ولا كل ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات ؟[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

إن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلاماً والبحار مدادا فكتبت بها كلمات الله لنفدت البحار والأقلام ولم تنفد كلمات الله . فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلاما والبحار مدادا يكتب بها فإذا كانت الملازمة ثابتة على هذا التقدير الذي هو أبلغ تقدير ؛ يكون في نفاد المكتوب ، فثبوتها على غيره من التقادير أولى . ونوضح هذا بضرب مثل يرتقى منه إلى فهم مقصود الآية . إذا قلت لرجل لا يعطي أحداً شيئاً : لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحداً منها شيئاً فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت على أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء فلازمت بين عدم إعطائه وبين أعظم أسباب الإعطاء وهو كثرة ما يملكه ؛ فدل هذا على أن عدم إعطائه ثابت على ما هو دون هذا التقدير وإن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير ، فافهم نظير هذا المعنى في الآية وهو عدم نفاد كلمات الله تعالى على تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها فإذا لم تنفد على هذا التقدير كان عدم نفادها لازما له فكيف بما دونه من التقديرات[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : **﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلٰم والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾** [لقمان : ٢٧] .

فقدر البحر المحيط بالعالم مداداً ، ووراءه سبعة أبحر تحيط به كلها ، مدادا

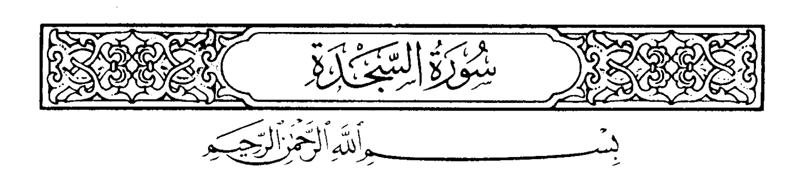
(١) المنار المنيف (٣٧ - ٣٨) .
(٢) بدائع الفوائد (١/٥٧ - ٥٨) .

تكتب به كلمات الله نفدت البحار وفنيت الأقلام التي لو قدرت جميع أشجار الأرض من حيث خلقت إلى آخر الدنيا و لم تنفد كلمات الله »[1] .

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٣١) .

سُورَةُ السَّجْدَةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة : ١-٢]

فجعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق ، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل ؛ لكان فيه أعظم الريب ولا اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور[1] .

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [السجدة : ٤-٦] .

وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين . فقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم ، وأنه لم يزل ، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته ، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلا وأبدا غير مخلوق كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والكتب وشهدت به العقول والفطر ، وقوله تعالى : (ثم

---

(١) الصواعق المرسلة (١١٧) .

استوى على العرش) يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون : ليس على العرش شيء سوى العدم ، وأن الله ليس مستويا على عرشه ، ولا ترفع إليه الأيدي ، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه ، ولا عرج برسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من فوقهم ، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول : « اللهم اشهد »[1] .

قال شيخ الإسلام : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في : أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه[2] .

قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٦-١٧] .

وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم ، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة .

(١) رواه البخاري (٣ /٦٧٠) في الحج ، باب : الخطبة أيام منى .
ومسلم (٤ / ٢٤٩) في القسامة ، باب تغليظ تحريم الدماء ...

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٨) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)[١] .

وفي لفظ آخر فيهما : « يقول الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخراً بَلْه ما أطلعتكم عليه ثم قرأ : (فلا تعلم نفس) الآية[٢] [السجدة : ١٧] .

وفي بعض طرق البخاري : قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)[٣] . وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال : شهدت مع النبي صلى الله عليه وسلم مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال في آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ هذه الآية : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس[٤] ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) »[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] .

---

(١) رواه البخاري (٨ / ٣٧٥) في التفسير ، باب : سورة السجدة .
ومسلم (٥ / ٦٨٧ - ٦٨٨) في الجنة ، أوله .
والترمذي (٥ / ٣٢٣) في التفسير ، باب : ومن سورة السجدة .

(٢،٣) انظر رواياته في جامع الأصول لابن الأثير (١٠ / ٤٩٥ - ٤٩٦) .
قال ابن حجر « ذخراً : بضم الدال المهملة وسكون المعجمة منصوب متعلق بأعددت أي : جعلت ذلك لهم مدخوراً . فتح الباري : (٨ / ٣٧٦) .
والذخر بمعناها ، انظر النهاية لابن الأثير (٢ / ١٥٥) .
و « بَلْهَ » بفتح الموحدة وإسكان اللام معناها: دع ، أي : دع عنك ما أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم؛ شرح النووي على مسلم (٥ / ٦٨٨) .

(٤) رواه مسلم (٥ / ٦٨٩) رقم (٥) من كتاب الجنة .

(٥) حادي الأرواح (٢٢٣) .

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم : عبد الله بن عباس على عذاب القبر ، وفي الاحتجاج بها شيء ؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر ، و لم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن ؛ لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر ؛ فإنه سبحانه أخبر : أن له فيه عذابين أدنى وأكبر ، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا ؛ فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ، ولهذا قال من العذاب الأدنى و لم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمّله[1] .

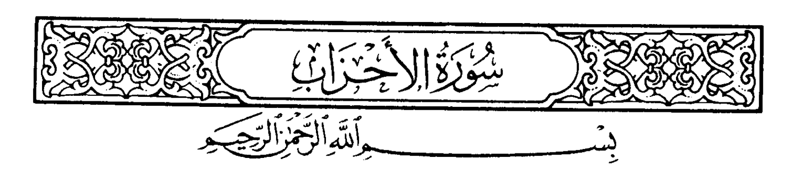
قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة ، واليقين يدفع الشكوك والشبهات[2] .

* * *

(١) الروح (٧٥-٧٦) .
(٢) زاد المعاد (١٠/٣) .

سُورَةُ الأَحْزَابِ



قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب : ١-٣] .

كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه ، محبة له وخشية ورجاء فإن التقوى لا تتم إلا بذلك ، واتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزل خاصة ، وبالتوكل عليه . وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكونه إليه دون غيره ثم أتبع ذلك بقوله : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ [الأحزاب : ٤] .

فأنت تجد تحت هذه اللفظ : أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة ، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها ، وليس للعبد قلبان ، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما ، والآخر لغيره ، بل ليس له إلا قلب واحد . فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه ؛ وإلا انصرف ذلك إلى غيره . ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه ، واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب .

وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقالت طائفة : ليس للقلب إلا وجهة واحدة إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها قالوا : وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حبان . وكان الشيخ إبراهيم الرَّقي رحمه الله يميل إلى هذا .

وقالت طائفة : بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين ، فيتوجه إلى أحدهما ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر قالوا : والقلب حمال ، فما حملته تحمل ، فإذا حملته الأثقال حملها وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه ، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده ، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلبه متوجه في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال من يصلي خلفه ،«وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يشق على أمه»[1] أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأمرين ؟. ولا يظن أن هذا من خصائص النبوة ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة ، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد ، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه . قالوا : وكمال العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته ، فلا يشغله أحد الأمرين عن الآخر . قالوا : وهذا موجود في الشاهد ، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلا بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده ؛ فإن قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه ، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له ، بل هذا شأن كل محب يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته . قالوا : وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم «بكى يوم موت ابنه إبراهيم»[2] فكان بكاؤه رحمة له ، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله ، و لم يشغله أحدهما عن الآخر ، ولكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال : إن الله سبحانه وتعالى قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه .

---

(١) رواه البخاري (٢ / ٢٣٦) في الصلاة ، باب : من أخف الصلاة عند بكاء الصبي .
- ومسلم (٢ / ١٠٨) في الصلاة ، باب : أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام . ورواه غيرهما .

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ٢٠٦) في الجنائز ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «إنا بك لمحزونون» . ومسلم (٥ / ١٧١ - ١٧٢) في الفضائل ، باب : رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان .

ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ تفاوتا لا يعلمه إلا الله ، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذا اتساع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها[1]؛ فلم يشغله ذلك عن ربه ، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه ، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوعت ببذل ما عليها من الحق ، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره ، وكم بين من ترد عليه الواردات فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلى الله ، كما قال القائل :

يذكرنيك الخير والشر والذي أخاف وأرجو والذي أتوقع

ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله ، ويقطعه عن سير قلبه إليه . فالقلب الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه ، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار والجبال والخلوات ، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله ، فإن لم يسر معه سار هو وتركه ، ولا ينكر هذا ، فالمحبة الصحيحة تقتضيه ، وخذ هذا في المغني إذا طرب ، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم ، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى له قوته وحجته .

والتحقيق : أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً ، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما ، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منهما مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه ، وكما يستحيل أن يكون للعلم ربان متكافئان مستقلان ، فليس الذي يحب لذاته إلا الإله الحق الغني بذاته عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير بذاته إليه وأما ما

---

(١) رواه البخاري (٣ / ٥١٠) في العيدين ، باب : الحراب والدرق يوم العيد .
ومسلم (٣ / ٥٤٤) في العيدين ، باب : إباحة اللعب يوم العيد .

يحب لأجله سبحانه فيتعدد . ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا ينسركه معه في الحب . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنهم . وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم ، ومع هذا فحبه كله لله ، وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه[1] .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [الأحزاب:٦]. **وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن** أموراً :

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه ، **لأن الأولوية أصلها الحب** ، ونفس العبد أحب له من غيره ، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها ، وأحب إليه منها ، فبذلك يحصل له اسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم ، وسائر لوازم المحبة ، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول صلى الله عليه وسلم يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها. فيا عجباً كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن منصب التحكيم ، ورضي بحكم غيره واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته ، وإنما يتلقى من دلالة العقول ، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين ، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به ، والحوالة في العلم النافع إلى غيره ، ذلك هو الضلال البعيد . ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه ، وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به ، فإن شهد بالصحة قبله ، وإن شهد له بالبطلان رده . وإن لم تتبين

---

(١) روضة المحبين (٢٧٢ – ٢٧٥) .

شهادته له بصحة ولا ببطلان ، جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به ؟.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة واستقام له علمه وعمله ، وأقبلت وجوه الخلق إليه من كل جهة[١] .

قال تعالى : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٨] .

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين ؟ قال مقاتل : يقول تعالى : أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الله الصادقين – يعني النبيين – عن تبليغ الرسالة . وقال مجاهد : يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني : هل بلغوا عنهم ، كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى . والتحقيق : أن الآية تتناول هذا وهذا ، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم ، فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين ؛ كما قال تعالى : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) [القصص : ٦٥] . قال قتادة : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ، وماذا أجبتم المرسلين ؟ فيسأل عن المعبود ، وعن العبادة[٢] .

ثم قال : ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٧] .

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه ؛ فإنه فر من الموت لما كان يسوءه فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعلمه أحد من الله ، وأنه قد يفر مما يسوءه من القتل في سبيل الله فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن ؛ فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته ، سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى ، بل فيما

(١) الرسالة التبوكية (٣٨ – ٣٩) .
(٢) إغاثة اللهفان (١/٨٣ ، ٨٤) .

يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً ، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهْنَؤه وعلى مخلفه وزره . وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله ؛ أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته ، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب . قال أبو حازم : لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى . واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل ، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذل الأذلين ، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته ، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته ، وكذلك عباد الأصنام أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر وأن يعبدوا إلٰها واحداً سبحانه ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار . وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله في مرضاته أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته لابد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته ؛ عقوبة له كما قال بعض السلف : من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته ، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته[1] .

قوله تعالى لنساء نبيه : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

فنهاهن عن الخضوع بالقول ، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز فرفع هذا التوهم بقوله : (وقلن قولاً معروفاً)[2] .

وقال أيضاً رحمه الله :

فلما أمرهن بالتقوى التي من شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول لئلا يطمع فيهن ذو المرض ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف رفعاً لتوهم الإذن في الكلام المنكر لما نهين عن الخضوع بالقول[3] .

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٩٤ - ١٩٥) .
(٢) إعلام الموقعين (٤/٢٠٤) .
(٣) الصواعق المرسلة (١/٣٩٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

أمرهن أن لايلن في كلامهن كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها ، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشن في القول بحيث يلتحق بالفحش ؛ بل يقلن قولاً معروفاً[(١)] .

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله ، ومن تخير بعد ذلك ؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً[(٢)] .

وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حق قدره ، أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال : « سبحان مقلب القلوب »[(٣)] **وأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد بن حارثة: أمسكها حتى أنزل الله عليه** ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ **[الأحزاب:٣٧]. فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق،**

---

(١) إغاثة اللهفان (١٤/١) .

(٢) إعلام الموقعين (٨٦/١) .

(٣) هذا من أبطل الباطل الذي جنته أيدي الضعفاء والمجروحين ، فهذا مما رواه الواقدي ، محمد بن عمر، وهو وإن كان من أوعية العلم لكنه مع هذا قد انعقد الإجماع على عدم الاحتجاج به كما في سير أعلام النبلاء (٩ / ٤٦٩) .
وروى عنه ذلك ابن سعد في الطبقات (٨ / ١٠١ - ١٠٢) .
والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٥) وغيرهما .
والأنبياء عليهم من الله تعالى أزكى صلاة وأطيب سلام معصومون من الذنوب ، فينبغي عدم الكلام عليهم إلا بما ورد عنهم عن الله تعالى أو صح من حديث دون زيادة أو نقصان، وهذا مما لا ينبغي الخوض فيه لمنزلة هؤلاء الكرام سادة العالمين .
انظر ما قاله ابن العربي رحمه الله في أحكامه (٣ / ١٥٤٢) .
وانظر فتح الباري (٨ / ٣٨٣ - ٣٨٤) .

وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة.وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما برأه الله منه . فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] قد تبناه وكان يدعى زيد بن محمد وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه ، فشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلاقها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ، وأخفى في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد ، وكان يخشى من قالة الناس : أنه تزوج امرأة ابنه لأن زيداً كان يدعى ابنه فهذا هو الذي أخفاه في نفسه ، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدد فيها نعمه عليه لا يعاتبه فيها وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أحل الله له وأن الله أحق أن يخشاه فلا يتحرج ما أحله له لأجل قول الناس ، ثم أخبره أنه سبحانه زوجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها ؛ لتقتدي أمته به في ذلك ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني لا امرأة ابنه لصلبه ، ولهذا قال في آية التحريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) [النساء : ٢٣] . وقال في هذه السورة : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) [الأحزاب : ٤٠] . وقال في أولها . (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم) [الأحزاب : ٤] . فتأمل هذا الذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع طعن الطاعنين عنه وبالله التوفيق . نعم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب نساءه ، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب ؛ بل صح أنه قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً »[2] وفي لفظ : « وإن صاحبكم خليل الرحمن »[3][4]

---

(١) انظر البخاري (٨ / ٣٨٣) في التفسير ، باب : ﴿ وتخفي في نفسك ... ﴾ الآية .

(٢) رواه البخاري (٧ / ٢١) في فضائل الصحابة ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً ... » .

ومسلم (٥ / ٢٤٦) في الفضائل ، باب : من فضائل أبي بكر رضي الله عنه .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٦٦ - ٢٦٧) .

(٤) رواه مسلم ، المصدر السابق .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

فدل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري ، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه ، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً ، فدل على أن ذلك مناف للإيمان .

وقد حكى الشافعي رضى الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، على أن « من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد » ، و لم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي رضي الله تعالى عنه .

فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها ، عياذاً بالله من الخذلان[1] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٢] .

والأصيل : قال الجوهري : هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وجمعه أصل وآصال وأصائل ، كأنه أصيلة قال الشاعر :

لعمري لأنت أكرم أهله   وأقعد في أفيائه بالأصائل

ويجمع أيضاً على أُصْلانٍ ، مثل بعير وبُعْران ثم صغروا الجمع فقالوا : أصيلان ثم أبدلوا النون لاماً فقالوا : أصيلال ، قال الشاعر :

وقفت فيها أصيلالاً أسائلها   أعيت جواباً وما بالربع من أحد[2]

---

(١) الرسالة التبوكية (٤٤ - ٤٥) .

(٢) الوابل الصيب (١٢٧) .

وقال رحمه الله :

إن الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر ، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح ، وفاز كل الفوز قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ [الأحزاب : ٤٢] . فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور ، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور فأي خير لم يحصل لهم وأي شر لم يندفع عنهم ؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله ! وبالله التوفيق(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

قالوا : فهذه الآية ظاهرة في قول المالكية ؛ لأن إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم متأخرة عن هبتها ، فإنها تجري مجرى القبول في هذا العقد ، والإيجاب هو هبتها ، ونظير هذا أن يقول : إن وهب لي شيئاً إن أردت قبوله أخذته ، فإرادة القبول متأخرة عن الهبة ؛ فلا يكن شرطاً فيها . قال الأولون : يجوز أن تكون إرادة رسول الله صلى الله وسلم متقدمة ؛ فلما فهمت المرأة منه ذلك وهبت نفسها له فيكون كالآية الأولى وهذا غير صحيح ، والقصة تأباه ؛ فإن المرأة قامت وقالت يارسول الله إني وهبت لك نفسي فصعد فيها النظر وصوبه ثم لم يتزوجها وزوجها غيره(٢)(٣) .

---

(١) الوابل الصيب (١٠٠) .

(٢) **رواه البخاري (٩ / ١٠٥) في النكاح ، باب : إذا قال الخاطب للولي زوجني .**
ومسلم (٣ / ٥٨٣) في النكاح ، باب : أقل الصداق .

(٣) بدائع الفوائد (٣/٢٤٧) .

وقال رحمه الله تعالى :

يحتمل أن تكون الهبة شرطاً ، ويكون فعل الإرادة جواباً له ويكون التقدير إن وهبت نفسها للنبي ، فإن أراد النبي أن يستنكحها فخالصة له ويحتمل أن تكون الإرادة شرطاً والهبة جواباً له والتقدير إن أراد النبي أن يستنكحها فإن وهبت نفسها، فهي خالصة له يحتمل الأمرين . فهذا ما ظهر لي من التفصيل في هذه المسألة وتحقيقها . والله أعلم[١] .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب : ٥٧-٥٨] .

وليس أذاه سبحانه من جنس الأذى الحاصل للمخلوقين كما أن سخطه وغضبه وكراهته ليست من جنس ما للمخلوقين[٢] .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٦-٦٨] . **تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم** ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٨] .

وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية ، وبالله التوفيق[٣] .

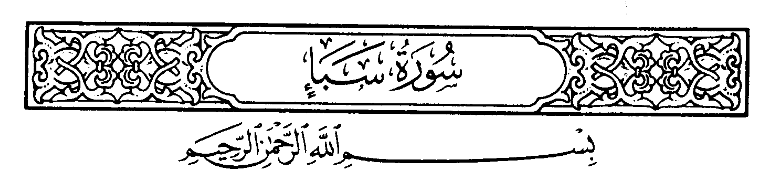
* * *

---

(١) بدائع الفوائد (٦٠/١) .
(٢) الصواعق المرسلة (١٤٥٠/٤ - ١٤٥١) .
(٣) الرسالة التبوكية (٥٥ - ٥٦) .



سُورَةُ سَبَإٍ



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ : ١-٢] .

وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ ففيه معنى غير ما ذكره ، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله وهو الرحيم الغفور ؛ فإنه ابتدأ سبحانه السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم ، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل ما خلقه وشرعه ، ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد فقال : ﴿ **الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً ، فإنه حمد يستحقه لذاته وكمال أوصافه وما يستحقه لذاته دائم بدوامه لا يزول أبداً وقرن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه ؛ فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما ، فله كمال من ملكه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر ، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً ، والحمد بلا ملك يستلزم عجزا ، والحمد مع الملك غاية الكمال . ونظير هذا العزة والرحمة والعفو والقدرة والغنى والكرم . فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفا بحمد قبله وحمد بعده ، ثم عقب هذا الحمد والملك باسم الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة وأنها لا تعلق بمراد إلا لحكمة بالغة

وعلى كمال العلم ، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم ، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة والعلم ظاهر والخبرة باطنة ، فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة ، فالخبرة باطن العلم وكماله والحكمة باطن الإرادة وكمالها . فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه ، ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي فقال : ﴿ **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ﴾ . ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما : الرحمة والمغفرة ، فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته ، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته . فقال : ﴿ **وهو الرحيم الغفور** ﴾ فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته ، وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم فمن الأول قوله : (ربنا **وسعت كل شيء رحمة وعلما**) [غافر:٧] **ومن الثاني: والله عليم حليم فما قرن شيء إلى** شيء أحسن من حلم إلى علم ، ومن رحمة إلى علم ، وحملة العرش أربعة اثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك . فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم ؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة ، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم ، وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم ، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) . ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير . ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع . ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور[١] .

(١) بدائع الفوائد (٧٩/١) .

قال تعالى : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ : ٦] .

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير(١) .

قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] .

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع ، والنفع لايكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريده عابده منه . فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك . فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولاظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً ، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه ، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك . وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه . فكفى بهذه الآية نوراً ، وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ؛ ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له . ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً . وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن(٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وماهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] .

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا

---

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ٨٥٠) .

(٢) مدارج السالكين (٣٤٣/١) .

منها إلى الشرك ، وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه ؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود - لما يرجو من نفعه - وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده أو شريكاً لمالكها أو ظهيراً أو وزيراً ومعاوناً له أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت ؛ انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده ، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض ، فقد يقول المشرك : هي شريكة لمالك الحق ، فنفى شركتها له . فيقول المشرك : قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً ، فقال : (وما له منهم من ظهير) فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ؛ فهو الذي يأذن للشافع فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون في حق المخلوقين فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له ، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها .

وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه ، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه ؟[1].

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

وجه استدلاله بإشارة الآية : أن الله سبحانه إذا تكلم بالوحي صعقت الملائكة ، وأخذهم شبه الغشي من تكلم الرب جل جلاله . فإذا كشف الفزع عن قلوبهم وخلي عنها ، وأفاقوا من ذلك الغشي ، قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فيستخبر كل أهل سماء من يليهم . حتى ينتهي الأمر إلى أهل السماء السابعة ، فيسألون جبريل : ياجبريل ، ماذا قال ربنا ؟ فيقول : قال الحق . وهو العلي الكبير[2] .

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٦١) .

(٢) مدارج السالكين (٣/٣١٤) .

هل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار) وبين قوله في سورة سبأ : (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله) [سبأ : ٢٤] .

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً ، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع ؛ فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به و لم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومدبر أمورهم وغيرها ، ومخرج الحي من الميت والميت من الحي ، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم : إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره ، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه ، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى (فسيقولون الله) . أي : لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية ، إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس و لم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ، و لم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا ، فإنهم لايمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لاسيما والرزق ها هنا إن كان هو المطر، فمجيئه من السماء التي هي السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه . وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء) . والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك ، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء ؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح ، ولابد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية ، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم بحيث لا يمكنهم إنكاره .

وأما الآية التي في سبأ فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها و لم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال : ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله** ﴾ و لم يقل : سيقولون الله . فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب بأن ذلك : هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر[1] .

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ : ٣٧] .

فمن آمن ، ليس داخلاً في الأموال والأولاد ، ولكنه من الكلام المحمول على المعنى ، لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه ، وذلك يتضمن أن أربابها ليسوا هم من المقربين إليه فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً أي : لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحاً ، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له ، والانقطاع فيه أظهر ، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم ، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح ، فتقدير (لكن) ها هنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء ، وإذا تأملت الكلام العربي رأيت كثيراً منه وارداً على المعنى لوضوحه، فلو ورد على قياس اللفظ مع وضوح المعنى لكان عياً.

وبهذه القاعدة تزول عنك إشكالات كثيرة ، ولا تحتاج إلى تكلف التقديرات التي إنما عدل عنها المتكلم لما في ذكرها من التكلف ، فقدر المتكلفون لنطقه ما فر منه وألزموه بما رغب عنه ، وهذا كثير في تقديرات النحاة التي لا تخطر ببال المتكلم أصلاً ، ولا تقع في تراكيب الفصحاء ولو سمعوها لاستهجنوها ، وسنعقد لها إن شاء الله تعالى فصلاً مستقلاً[2] .

---

(١) بدائع الفوائد (١١٧ – ١١٨) .

(٢) بدائع الفوائد (٣/٧١ – ٧٢) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان :-

إحداهما : أن يكون ناظراً مع الله .

والثانية : أن يكون مناظراً لغيره .

أمرهم بخصلة واحدة وهي : أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران، ويتساءلان بينهما ، وواحداً وواحداً ، يقوم كل واحد مع نفسه ، فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ، ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال ، فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف المبين والنصح التام[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأشار بقيامهم اثنين اثنين إلى المناظرة وفرادى إلى النظر والتفكر ، وكل منهما ينقسم إلى محمود ومذموم ، فالنظر المحمود ؛ النظر في الطريق الصحيح ليتوصل به إلى معرفة الحق ، والنظر المذموم نوعان :

أحدهما : النظر في الطريق الباطل وإن قصد به التوصل إلى الحق فإن الطريق الباطل لا يفضي إلى الحق .

والثاني : النظر والتفكر الذي يقصد به رد قول خصمه مطلقاً حقاً كان أو باطلاً فهو ينظر نظراً يرد به قول من يبغضه ويعاديه بأي وجه كان .

فأما المناظرة فتقسم إلى : محمودة ومذمومة والمحمودة نوعان ، والمذمومة نوعان ، وبيان ذلك : أن المناظر إما ان يكون عالماً بالحق ، وإما أن يكون طالباً له ، وإما أن لا يكون عالماً به ولا طالباً له ، وهذا الثالث هو المذموم ، وأما

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٧٢) .

الأولان فمن كان عالماً بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق، أو تقطعه أو تكسره إن كان معانداً غير طالب للحق، ولا متبع له أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق إن كان يظن أنه على الحق وقصده الحق[1] .

قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ : ٥٠] .

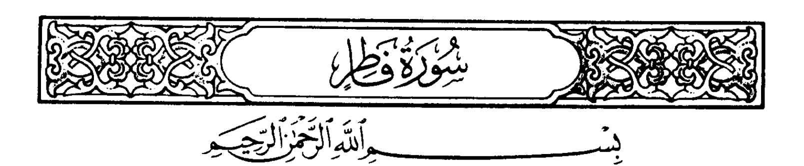
فهذا نص صريح في أن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي . فيا عجباً ! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة ؟ ولكن من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى ، والمصيبة الكبرى . والحمد لله رب العالمين[2] .

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٤/١٢٧٥ - ١٢٧٦) .
(٢) الرسالة التبوكية (٥٤) .

سُورَةُ فَاطِرٍ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] .

والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته ، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس(١) .

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] . أي : فليطلبها بطاعة الله فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك .

وقال الحسن البصري : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال عبد الله بن المبارك :

رأيتُ الذنوب تميتُ القلوبَ ... وقد يورث الذل إدمانُها

وتركُ الذنوب حياةُ القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانُها

وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانها(٢)

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

أي : من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب ، والعمل الصالح .

---

(١) زاد المعاد (٦/٣) .

(٢) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٨١) .

قال الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] .

بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم ، لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه . وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له .

ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ، فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث . والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان وكلاهما دليل الحاجة والافتقار وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر .

والمقصود : أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقة أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً[١] .

(١) طريق الهجرتين (٨) .

وقال أيضاً رحمه الله :

وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد[١] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر : ١٩-٢٢]

فجعل من اهتدى بهداه، واستنار بنوره بصيراً حياً في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيراً بنوره ، والآخر أعمى ميتاً في حر الكفر والشرك والضلال منغمساً في الظلمات[٢] .

قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء ، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه ، فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه ، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية ، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم ، لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية ، حيث يظن أنه يحصل بدونها ، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك ، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه . وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني ، فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس ، فإنها كانت عن علم لا عن جهل وبقوله: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) [فصلت: ١٧] وقال: (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) [الإسراء: ٢٧] وقال عن قوم فرعون: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) [النمل: ٢٧] وقال: (وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) [العنكبوت: ٣٨] وقال موسى

---

(١) الروح (١٥٠) .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٤) .

لفرعون : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) [الإسراء : ١٢٠] . وقال : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [التوبة : ١٠٢] وقال : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) [البقرة: ١٤٦] يعني القرآن أو محمداً صلى الله عليه وسلم وقال: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) [آل عمران : ٧١] . وقال : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) [الأنعام:٣٣] والجحود إنكار الحق بعد معرفته ، وهذا كثير في القرآن قيل : حجج الله لا تتناقض بل كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقرَّ به وبرسالته وبأنه حرم ذلك وتوعد عليه بالعقاب ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء ، فكيف بمن أشرك وكفر بآياته وعادى رسله أليس ذلك أجهل الجاهلين ؟ وقد سمى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم . فقال : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) [الأعراف:١٩٩] فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة ، وعلموا أنه صادق وقال: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [الفرقان : ٦٣] فالجاهلون هنا الكفار الذين علموا أنه رسول الله ، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل ، بل يثبت له العلم وينافى عنه في موضع واحد كما قال تعالى عن السحرة من اليهود : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) [البقرة : ١٠٢] . فأثبت لهم الذي تقوم به عليهم الحجة ، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار وهذا نكتة المسألة .

وسر الجواب فما دخل النار إلا عالم ولا دخلها إلا جاهل ، وهذا العلم لا يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد ، يوضحه أن الهوى والغفلة والإعراض تصد عن كماله واستحضاره ومعرفة موجبه على التفصيل ، وتقيم لصاحبه شبهاً وتأويلات تعارضه فلا يزال المقتضى يضعف ، والعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن ، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه .

فلو علم إبليس أن تركه للسجود لآدم يبلغ به ما بلغ ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة وتيقن ذلك لم يتركه ، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي

أمره ، وينفذ قضاؤه وقدره ، ولو ظن آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشجرة خرجا من الجنة وجرى عليهما ما جرى ، ما قرباها ، ولو علم أعداء الرسل تفاصيل ما يجري عليهم وما يصيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك لما عادوهم .

قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴾ [القمر : ١٣٦] . وقال : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾ [سبأ: ٥٤] وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عياناً : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : ٤٥] . وقال : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ﴾ [الحديد : ١٤] وقال : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة : ١٠] . وهو الشك ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم ، لما كانوا في الدرك الأسفل من النار ، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم ، فالعلم يضعف قطعاً بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإيثار الشهوات .

وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده ، فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل . فالعلم يراد به العلم التام المستلزم لأثره ، ويراد به المقتضى ، وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه ، فالثاني يجامع الجهل دون الأول ، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم ، وإن كان كذلك فعدم العلم ليس أمراً وجودياً ، بل هو لعدم السمع والبصر ، والقدرة والإرادة ، والعدم ليس شيئاً حتى يستدعي فاعلاً مؤثراً فيه ، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده ، وعدم السبب الموجب لضده والعدم المحض لا يضاف إلى الله فإنه شر والشر ليس إليه فإذا انتفى هذا الجازم عن العبد ونفسه بطبعها متحركة مريدة وذلك من لوازم شأنها ، تحركت بمقتضى الطبع والشهوة وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة فوقعتْ في أسباب الشر ولابد[1] .

---

(١) شفاء العليل (١٧٢ - ١٧٣) .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته ، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته لله كما قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر : ٢٨] . فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية »[1][2] .

قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

القسم الثاني[3] قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله ، وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله . وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله ، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره ، وفي نفس السير وسرعته وبطئه .

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار .

والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه ، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة ، ولم يتزود ما يضره ، فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة .

---

(١) مدارج السالكين (١/١٣٦ - ١٣٧) .

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٥٢٩) في الأدب ، باب : من لم يواجه الناس بالعتاب .
ومسلم (٥ / ٢٠٣) في الفضائل ، باب : علمه صلى الله عليه وسلم وشدة خشيته كلاهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً « ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٣) أي من تقسيم الناس من حيث القوّة العلمية والعملية .

والسابق بالخيرات همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات ، لعلمه بمقدار الربح الحاصل ، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به ، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر ، وعنده حاصل ، وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة ، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيىء به تجارة إلى ذلك البلد لفعل . فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله : يرى خسراناً بيناً أن يمر عليه وقت في غير متجر . فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو :

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها ، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة ، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة ، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة . فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب . فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران ، وهو للأغلب منهما . فإذا ورد القيامة مُيِّزَ ربحه من خسرانه ، وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده ، وكان الحكم للراجح منهما ، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله .

وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها ، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم . فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام ، والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها ، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلا بها قائماً بأعيانها مؤدياً واجب الرب فيها ، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه ، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك ، فإذا أكملها انصرف إلى حاله فهو كذلك سائر يومه . فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر ، فيقوم إلى غذائه ووظيفته ، فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه ، وكذلك الزكاة الواجبة والحج

الواجب ، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط ، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم .

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان : أبرار ومقربون .

وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين ، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون ، وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق ، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين ، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه .

وقد اختلف في قوله : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ الآية [فاطر: ٣٣]. **هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه** والمقتصد والسابق بالخيرات ، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم ، على قولين : فذهبت طائفة إلى أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة ، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين .

قال أبو إسحاق السبيعي : أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج[(١)].

قال أبو داود الطائي : أنبأنا الصلت بن دينار حدثنا عقبة بن صبهان الهنائي قال : سألت عائشة عن قول الله : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) [فاطر : ٣٢] . فقالت لي : يا بني ، كل هؤلاء في الجنة ، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به . وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك قال : فجعلت نفسها معنا[(٢)] .

وقال ابن مسعود : هذه الأمة يوم القيامة أثلاث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يجيئون بذنوب

---

(١) تفسير الطبري (٢٢ / ١٣٤) .
(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٠٩) .
والحاكم في المستدرك (٢ / ٤٢٦) .

عظام فيقول الله : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم بهم ، فتقول الملائكة : هم مذنبون ، إلا أنهم لم يشركوا . فيقول الله : أدخلوهم في سعة رحمتي[١] . وقال كعب تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم .

وقال الحسن : السابقون من رجحت حسناتهم ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من خفت موازينه .

واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمى الكل « مصطفين » ، وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد ، ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين ، لأن الاصطفاء هو الاختيار ، وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره ، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق ، وبعضهم خيرٌ من بعض : فسابقهم مصطفى عليهم ، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم ، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك . واحتجت أيضاً بآثار روتها تؤيد ما ذهب إليه :

فمنها : ما رواه سليمان الشاذكوني حدثنا حصين بن نمير عن أبي ليلى عن أخيه عن أبيه عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : كلهم في الجنة[٢] .

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٢ / ١٣٤) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١ / ١٦٧) .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٩٦) « فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ » .

ورواه البيهقي في البعث والنشور صـ ٨٤ .

والخطيب البغدادي في تاريخه (١٢ / ٣٧١) .

ووقع في المطبوعة من طريق الهجرتين « حصين بن بهز » والصواب حصين بن نمير وهو الواسطي أبو محصن » .

قال الحافظ : لا بأس به رمي بالنصب . التقريب (١ / ١٨٤) .

وأما « سليمان الشاذكوني فهو حافظ بارع ولكنه أحد الهلكى » كما في سير أعلام النبلاء (١٠ / ٦٧٩) .

ورواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (٣ / ٩٦) في التفسير ، باب سورة فاطر وصححه الألباني ، كما في صحيح الترمذي .

ورواه أبو داود الطيالسي (٣٩٦) عن أبي سعيد أيضاً .

ومنها : ما رواه الطبراني حدثنا أحمد بن حماد بن رعية حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة عن أحمد بن خازم المعارفي عن صالح مولى التوأمة عن أبي الدرداء قال : قرأ النبي هذه الآية (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فقال : أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم فيجلس في طول المحبس ثم يتجاوز الله عنه[1] .

ومنها : ما رواه زكريا الساجي عن الحسن بن علي الواسطي عن أبي سعيد الخزاعي عن الحسن بن سالم عن سعد بن طريف عن أبي هاشم الطائي قال : قدمت المدينة فدخلت مسجدها فجلست إلى سارية ، فجاء حذيفة فقال : ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقول : « يبعث الله تبارك وتعالى هذه الأمة – أو كما قال – ثلاثة أصناف ، وذلك في قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب ، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ، والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمة الله »[2] .

ومنها : ما رواه الطبراني عن محمد بن إسحاق بن راهويه حدثنا أبي حدثنا جرير عن الأعمش عن رجل سماه عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) الآية قال : « السابق بالخيرات والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب ، والظالم لنفسه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة »[3] .

---

(١) لم أجده في الطبراني المطبوع وسنده ضعيف ووقع في المطبوع « أحمد بن حازم » والصواب ما أثبته .

(٢) وهذا أيضا ضعيف جداً ، وسعد بن طريف لا تحل الرواية عنه كما قال ابن معين . ميزان الاعتدال (٢ / ١٢٢) .
ووقع في المطبوع « سعد بن ظريف » ، والصواب ما أثبته .

(٣) رواه الإمام أحمد (٥ / ١٩٤) و (٦ / ٤٤٤) بلفظ « فمنهم ظالم لنفسه يعني الظالم يؤخذ منه في مقامه ذلك فذلك الهم والحزن ، ومنهم مقتصد قال يحاسب حساباً يسيراً ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله قال : الذين يدخلون الجنة بغير حساب » .

ومنها : ما رواه ابن لهيعة عن أبي جعفر عن يونس بن عبد الرحمن عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا – إلى قوله – سابق بالخيرات) [فاطر : ٣٢] . قال : فأما السابقون فيدخلون الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالمون فيحاسبون فيصيبهم عناء وكرب ثم يدخلون الجنة ثم يقولون : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) [فاطر : ٣٤] .

ومنها : ما رواه الحميدي حدثنا سفيان حدثنا طعمة بن عمرو الجعفري عن رجل قال : قال أبو الدرداء لرجل : ألا أحدثك بحديث أخصك به لم أحدث به أحداً ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ... جنات عدن) قال : « دخلوا الجنة جميعاً »[1] . واحتجت أيضاً بالآيات والأحاديث التي تشهد بنجاة الموحدين من أهل الكبائر ودخولهم الجنة . واحتجت أيضاً بأن ظلم النفس إنما يراد بها ظلمها بالذنوب والمعاصي ، فإن الظلم ثلاثة أنواع : ظلم في حق النفس باتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها ، وظلم في حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم ، وظلم في حق الرب بالشرك به . فظلم النفس إنما هو بالمعاصي ، وقد تواترت النصوص بأن العصاة من الموحدين مآلهم إلى الجنة .

= ورواه الطبري (٢٢ / ١٣٧) .
والحاكم (٢ / ٤٢٦) وقال . « وقد اختلفت الروايات عن الأعمش في إسناد هذا الحديث فروي عن الثوري عن الأعمش عن أبي ثابت عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقيل عن شعبة عن الأعمش عن رجل من ثقيف عن أبي الدرداء ، وقيل عن الثوري أيضاً عن الأعمش قال : ذكروا أبو ثابت عن أبي الدرداء ، وإذا كثرت الروايات في الحديث ظهر أن للحديث أصلاً » .
ورواه أيضا الإمام أحمد من طريق علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه (٥ / ١٩٨) قال الهيثمي « رواه أحمد رجال أحدها رجال الصحيح – وهي هذه – إن كان علي بن عبد الله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي » (٧ / ٩٥) .
وانظر رواة الحديث في الدر المنثور (٧ / ٢٣ – ٢٨) .
ومجمع الزوائد (٧ / ٩٥) .

(١) ضعيف .

وقالت طائفة : بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه ، فإن الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق ، والظالم لنفسه هنا هو الكافر ، والمقتصد المؤمن العاصي ، والسابق المؤمن التقي . وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشاف[1]، ومنذر بن سعيد في تفسيره ، والرماني ، وغيرهم ، قالوا : وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم ، وهي نظير قوله : (وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون) الآية [الواقعة : ٧-١٠] . قالوا : فأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم ، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات . قالوا : ولم يصطف الله من خلقه ظالماً لنفسه ، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم ، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم ، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ، ويتناولهم فعل الاصطفاء ؟

قالوا : وأيضاً صفوة الله هم أحباؤه ، والله لا يحب الظالمين ، فلا يكونون مصطفين . قالوا : ولأن الظالم لنفسه وإن كان ممن أورث الكتاب ، فهو بتركه العمل بما فيه قد ظلم نفسه ، والله سبحانه إنما اصطفى من عباده من أورثه كتابه ليعمل بما فيه ، فأما من نبذه وراء ظهره فليس من المصطفين من عباده .

قالوا : ولأن الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء وهو خلاصته ولبه ، وأصله : اصتفى فأبدلت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه ، والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبهم فلا يكون مصطفى ، قالوا : ولأن الله سلم على المصطفين من عباده فقال : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) [النمل : ٥٩] . وهذا يقتضي سلامتهم من كل شر وكل عذاب ، والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا ، فكيف يكون من المصطفين ؟

---

(١) الكشاف (٣ / ٢٧٥) .

قالوا : وأيضاً فطريقة القرآن أن الوعد المطلق بالثواب إنما يكون للمتقين لا للظالمين كقوله تعالى : (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً) [مريم : ٦٣] . فأين الظالم لنفسه هنا ؟ وقوله تعالى : (أذلك خير أم جنة الخلد التي وُعد المتقون) [الفرقان : ١٥] . وقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) [آل عمران : ١٣٣] . وقوله : (إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً وكأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذباً جزاء من ربك عطاء حسابا) [النبأ : ٣١-٣٦] .

والقرآن مملوء من هذا ، ولم يجيء فيه موضع واحد بإطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلا قالوا : وأيضاً فلم يجيء في القرآن ذكر الظالم لنفسه إلا في معرض الوعيد لا الوعد ، كقوله تعالى : (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) [الزخرف : ٧٤-٧٦] . وقوله : (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) [سبأ : ١٩] . وقوله : (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) [النحل : ١١٨] . قالوا : وأيضاً فالظالم لنفسه هو الذي خفت موازينه ورجحت سيئاته . والقرآن كله يدل على خسارته وأنه غير ناج كقوله تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) [الأعراف : ٨-٩] . وقوله : (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) [القارعة : ٨-٩] . فكيف يذكر وعده بجناته وكرامته للظالمين أنفسهم الخفيفة موازينهم ؟ قالوا : وأيضاً فقوله تعالى : (جنات عدن) مرفوع لأنه بدل من قوله : (ذلك هو الفضل الكبير) وهو بدل نكرة من معرفة كقوله : (لنسفعاً بالناصيه ناصية كاذبة) [العلق : ١٥-١٦] . وحسن وقوعه مجيء النكرة موصوفة لتخصيصها بالوصف وقربها من المعرفة ، ومعلوم أن المبدل منه وهو (الفضل الكبير) مختص بالسابقين بالخيرات ، والمعنى أن سبقهم بالخيرات بإذنه[1] ذلك هو الفضل الكبير وهو جنات عدن يدخلونها ، وجعل السبق بالخيرات نفس الجنات لأنه سببها وموجبها .

(١) أشار مراجع « طريق الهجرتين » الطبعة السلفية أن هنا بياضاً بالأصل ولكني أرى المعنى مستقيماً =

قالوا : وأيضاً فإنه وصف حليتهم فيها بأنها أساور من ذهب ولؤلؤ ، وهذه جنات السابقين لا جنات المقتصدين ، فإن جنات الفردوس أربع كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[1] ومعلوم أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين ، فإذا كانت الجنتان الذهبيتان للظالمين لأنفسهم فمن يسكن الجنتين الفضيتين ؟ فعلم أن هذه الجنات المذكورة لا تتناول الظالمين لأنفسهم .

قالوا : وأيضاً فإن أقرب المذكورات إلى ضمير الداخلين هم السابقون بالخيرات فوجب اختصاصهم بالدخول إلى الجنات المذكورات .

قالوا : وفي اختصاصهم – بعد ذكر الأقسام – بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما هو معلوم من طريقة القرآن ، إذ يصرح بذكر ثواب الأبرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم ، ويذكر عقاب الكفار والفجار والظالمين لأنفسهم ومن خفت موازينهم ، ويسكت عن القسم الذي فيه شائبتان وله مادتان ، هذه طريقة القرآن كقوله : (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) [الانفطار : ١٣-١٤] . وقوله : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) [النازعات : ٣٧-٤١] . وهذا كثير في القرآن .

قالوا : وفي السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف له بأن أمره مرجأ إلى الله وليس عليه ضمان ولا له عنده وعد ، وليحذر كل الحذر ، وليبادر بالتوبة النصوح التي تلحقه بالمضمون لهم النجاة والفلاح .

= والله أعلم .

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٨ / ٤٩١) في التفسير ، سورة الرحمن باب : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ .

ومسلم (١ / ٤٢٥ – ٤٢٦) في الإيمان ، باب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم . ورواه غيرهما .

قالوا : وأيضاً فمن المحال أن يقع على أحد من المصطفين اسم الظلم مطلقاً ، وإنما يقع اسم الظلم مطلقاً على الكافر ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) [البقرة: ٢٥٤] وقال: (**والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير**) [الشورى: ٨]. **مع** قوله : (الله ولي الذين آمنوا) [البقرة : ٢٥٧] . والظالم لا ولي له فلا يكون من المؤمنين .

قالوا : وأيضاً فمن تدبر الآيات وتأمل سياقها وجدها قد استوعبت جميع أقسام الخلق ، ودلت على مراتبهم في الجزاء . فذكر سبحانه أن الناس نوعان : ظالم ومحسن . ثم قسم المحسن إلى قسمين : مقتصد ، وسابق ثم ذكر جزاء المحسن ، فلما فرغ منه ذكر جزاء الظالم فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) [فاطر : ٣٦] . وقال : (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) [الأنبياء : ٢٩] . فذكر أنواع العباد وجزاءهم .

قالوا : وأيضاً فهذه طريقة القرآن في ذكر أصناف الخلق الثلاثة ، كما ذكرهم الله تعالى في سورة الواقعة والمطففين وسورة الإنسان ، فأما سورة الواقعة فذكرهم في أولها وفي آخرها فقال في أولها : (وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم) [الواقعة :٧-١٢] . فأصحاب المشأمة هم الظالمون . وأما أصحاب اليمين فقسمان : أبرار وهم أصحاب الميمنة ، وسابقون وهم المقربون . وفي آخرها : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) [الواقعة : ٨٨-٩٤] . فذكر حالهم في القيامة الكبرى في أول السورة ، ثم ذكر حالهم في القيامة الصغرى في البرزخ في آخر السورة ، ولهذا قدم قبله ذكر الموت ومفارقة الروح فقال : (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا

تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) [الواقعة : ٨٣-٨٧] ثم قال : (فأما إن كان من المقربين) [الواقعة : ٨٨] . إلى آخرها . وأما في أولها فذكر أقسام الخلق عقب قوله : (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثا وكنتم أزواجاً ثلاثة) [الواقعة: ١-٧]. وأما سورة الإنسان فقال : (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً) [الإنسان: ٤] . فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة ، ثم قال : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) [الإنسان : ٥] . فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ثم قال : (عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) [الإنسان : ٦] . فهؤلاء المقربون السابقون ، ولهذا خصهم بالإضافة إليه .

وأخبر أنهم يشربون بتلك العين صرفاً محضاً ، وأنها تمزج للأبرار مزجاً كما قال في سورة المطففين في شراب الأبرار : (ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون) [المطففين : ٢٧-٢٨] . وقال : (يشرب بها المقربون) ولم يقل (منها) إشعاراً بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها وبغيرها، فضمن (يشرب) معنى يروى ، فعدَّى بالباء ، وهذا ألطف مأخذاً وأحسن معنى من أن يجعل الباء بمعنى من ، ويضمن يشرب الفعل معنى فعل آخر فيتعدى تعديته ، وهذه طريقة الحذاق من النحاة، وهي طريقة سيبويه وأئمة أصحابه، وقال في الأبرار (يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) [الإنسان : ٥] . لأن شرب المقربين لما كان أكمل استعير له الباء الدالة على شرب الري بالعين خالصة ، ودلالة القرآن ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر وقال تعالى في سورة المطففين : (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم – إلى قوله – كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تُكذِّبون) [المطففين : ٧-١٧] . **فهؤلاء** الظالمون أصحاب الشمال ثم قال : (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون) [المطففين : ١٨-١٩] . **فهؤلاء** الأبرار المقتصدون ، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم – أي يكتب بحضرتهم ومشهدهم – لا يغيبون عنه ، اعتناء به وإظهارا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه .

ثم ذكر سبحانه نعيم الأبرار ومجالستهم ونظرهم إلى ربهم وظهور نضرة النعيم في وجوههم ، ثم ذكر شرابهم فقال : (يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) [المطففين : ٢٥-٢٦] . ثم قال : (ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقربون) [المطففين : ٢٧-٢٨] . والتسنيم أعلى أشربة الجنة ، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم ، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج ، ولهذا قال : (عيناً يشرب بها المقربون) كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء ، قال ابن عباس وغيره : يشرب بها المقربون صرفاً ، ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً . وهذا لأن الجزاء وفاق العمل ، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم ، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم ، فمن أخلص أخلص شرابه ، ومن مزج مزج شرابه .

يا لاهيا في غمرة الجهل والهوى	صريعا على فرش الردى يتقلب
تأمل - هداك الله - ما ثم وانتبه	فهذا شراب القوم حقا يركب
وتركيبه في هذه الدار إن تفت	فليس له بعد المنية مطلب
فيا عجبا من معرض عن حياته	وعن حظه العالي ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أي بضاعة	أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فإن كان لا يدري فتلك مصيبة	وإن كان يدري فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدري حين ينكشف الغطا	ويصبح مصلوبا ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئا بدون ما	يساوي بلا علم وأمرك أعجب
لأنك قد بعت الحياة وطيبها	بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازما	ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصد وتنأى عن حبيبك دائما	فأين عن الأحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أي تجارة	أضعت إذا تلك الموازين تنصب

قالوا : فهكذا هذه الآيات التي في سورة الملائكة ذكر فيها الأقسام الثلاثة : الظالم لنفسه وهو من أصحاب الشمال ، وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين ، وذكر السابقين وهم المقربون . قالوا : وليس في الآية ما يدل على اختصاص

الكتاب بالقرآن والمصطفين بهذه الأمة ، بل الكتاب اسم جنس للكتب التي أنزلها على رسله ، فإنه أورثها المصطفين من عباده من كل أمة ، والأنبياء هم الذين أورثوه أولا ثم أورثوه المصطفين من أممهم بعدهم ، قال تعالى : (ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب) [غافر : ٥٣-٥٤]. فأخبر أنه إنما يكون هدى وذكرى لمن له لبّ عقل به الكتاب وعمل بما فيه ، والعامل بما فيه هو الذي أورثه الله علمه وتأمل قوله تعالى : (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب) [الشورى : ١٤] . كيف حذف الفاعل هنا وبنى الفعل للمفعول لما كان في معرض الذم لهم ونفي العلم عنهم ، ولما كان في سياق ذكر نعمه وآلائه ومنته عليهم قال : (وأورثنا بني إسرائيل الكتاب) [غافر : ٥٣] . ونظير هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ [فاطر : ٣٢] .ومن ذلك قوله : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) [الأعراف : ١٦٩] . وأنه لما كان الكلام في سياق ذمهم على اتباعهم شهواتهم وإيثارهم العرض الفاني على حظهم من الآخرة وتماديهم في ذلك لم ينسب التوريث إليه بل نسبه إلى المحل ، فقال أورثوا الكتاب ولم يقل أورثناهم الكتاب ، وقد ذكرت نظير هذا في قوله : (آتيناهم الكتاب) أنه للمدح ، وأورثوا الكتاب إما في سياق الذم ، وإما منقسم في الكتاب (التحفة المكية)[1] . والمقصود أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده أولا وآخراً ، قالوا : وقوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) لا يرجع إلى المصطفين . بل إما أن يكون الكلام قد تم عند قوله : (من عبادنا) ثم استأنف جملة أخرى وذكر فيها أقسام العباد وأنهم : منهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق . ويكون الكلام جملتين مستقلتين : بين في إحداهما أنه أورث كتابه من اصطفاه من عباده ، وبين في الأخرى أن من عباده ظالماً ومقتصداً وسابقاً . وإما أن يكون المعنى تقسيم المرسل إليهم بالنسبة إلى قبول الكتاب ، وأن منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من قبله مقتصداً فيه ، ومنهم من قبله سابقاً بالخيرات بإذن الله .

---

(١) مرت الإشارة إليه .

قالوا : والذي يدل على هذا الوجه أنه سبحانه ذكر إرساله في كل أمة نذيراً ممن تقدم هذه الأمة فقال : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) [فاطر : ٢٤] . ثم ذكر أن رسلهم جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، الآيات الدالة على صدقهم وصحة رسالاتهم ، والزبر الكتاب ، وأحدها زبور بمعنى مزبور أي مكتوب ، الكتاب المنير من باب عطف الخاص على العام لتميزه عن المسمى العام بفضله وشرفه امتاز بها واختص بها عن غيره . وهو كعطف جبريل وميكال على الملائكة ، وكعطف أولي العزم على النبيين من قوله : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) [الأحزاب : ٧] . والكتاب المنير ههنا : التوراة والإنجيل . ثم ذكر إهلاك المكذبين لكتابه ورسله فقال : ﴿ **ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير** ﴾ [فاطر : ٢٦] . ثم ذكر التالين لكتابه وهم المتبعون له العاملون بشرائعه فقال : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** ﴾ [فاطر : ٢٩-٣٠] . ثم ذكر الكتاب الذي خص به خاتم أنبيائه ورسله محمدا فقال : ﴿ **والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير** ﴾ [فاطر : ٣١] . ثم ذكر من أورثهم الكتاب بعد أولئك وأنه اصطفاهم لتوريث كتابه إذ رده المكذبون ولم يقبلوا توريثه .

قالوا : وأما قولكم إن الاصطفاء افتعال من الصفوة وهي الخيار ، وهي إنما تكون في السعداء ، فهذا بعينه حجة لنا في أن الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده وقد تقدم تقريره .

قالوا : وأما الآثار التي رويتموها عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فكلها ضعيفة الأسانيد ومنقطعة لا تثبت ، كيف وهي معارضة بآثار مثلها أو أقوى منها :

قال ابن مردويه في تفسيره : حدثنا الحسن بن عبد الله حدثنا صالح بن أحمد حدثنا أحمد بن محمد بن المعلى الأدمي حدثنا حفص بن عمار حدثنا مبارك

ابن فضالة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) قال : الكافر[1] .

قالوا : وأما النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يدخلون الجنة فصحيحة لا ننازعكم فيها ، غير أنها مطلقة ، ولها شروط وموانع ، كما أن النصوص الدالة على عذاب أهل الكبائر صحيحة متواترة ، ولها شروط وموانع يتوقف لحوق الوعيد عليها ، فكذلك نصوص الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها .

قالوا : وأما قولكم إن ظلم النفس إنما يراد به ظلمها بالذنوب والمعاصي دون الكفر فليس بصحيح ، فقد ذكر في القرآن ما يدل على أن ظلم النفس يكون بالكفر والشرك ، ولو لم يكن في هذا إلا قول موسى : (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) [البقرة : ٥٤] . وقوله عز وجل : (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) [سبأ : ٢٠] . ونظائره كثيرة . قالت الطائفة الأولى : لو تدبرتم القرآن حق تدبره ، وأعطيتم الآيات حقها من الفهم ، وراعيتم وجوهه الدالة وسياق الكلام ؛ لعلمتم أن الصواب معنا ، وأن هذا التقسيم الذي دلت عليه أخص من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والإنسان والمطففين ، فإن ذلك تقسيم للناس إلى شقي وسعيد ، وتقسيم السعداء إلى أبرار ومقربين وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه ، وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأمة إلى محسن ومسيء ، فالمسيء هو الظالم لنفسه ، والمحسن نوعان : مقتصد وسابق بالخيرات ، فإن الوجود شامل لهذا القسم ، بل هو أغلب أقسام الأمة ، فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه ؟ ثم لما استوفى أقسام الأمة ذكر الخارجين عنهم وهم الذين كفروا فعمت الآية أقسام الخلق كلهم ، وعلى ما ذهبتم إليه تكون الآية قد أهملت ذكر القسم الأغلب الأكثر ، وكررت ذكر حكم الكافر أولا

(١) لا يصح ، وحفص بن عمار المعلم ، منكر الحديث مع جهالته أيضاً .
انظر ميزان الاعتدال للذهبي (١ / ٥٦٠) .
والضعفاء له (١ / ١٨٠) .

وآخراً ، ولا ريب أن ما ذكرناه أولى لبيان هذا القسم وعموم الفائدة ، وأيضاً فإن قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) صريح في أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده وقوله عز وجل : (فمنهم ظالم لنفسه) إما أن يرجع إلى الذين اصطفاهم وإما أن يرجع إلى العباد ، ورجوعه إلى الذين اصطفاهم لوجهين :

أحدهما : أن قوله تعالى : (ومنهم مقتصد ومنهم سابق) إنما يرجع إلى المصطفين لا إلى العباد فكذلك قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه) ، ولا يقال : بل الضمائر كلها تعود على العباد لأن سياق الآية والإتيان بالفاء والتقسيم المذكور كله يدل على أن المراد بيان أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد ، إذ لو أراد ذلك لأتى بلفظ يزيل الوهم ولا يلتبس به المراد بغيره ، وكأن وجه الكلام على هذا أن يقال : ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا منهم ، وهذا معنى الكلام عندكم ، ولا ريب أن سياق الآية لا يدل عليه ، إنما يدل على أنه أورث الكتاب طائفة من عباده وأن تلك الطائفة ثلاثة أقسام ، هذا وجه الكلام الذي يدل عليه ظاهره .

الثاني : أنك إذا قلت : أعطيت مالي البالغين من أولادي فمنهم تاجر ومنهم خازن ومنهم مبذر ومسرف ، هل يفهم من هذا أحد قط أن هذا التقسيم لجملة أولاده ، بل لا يفهم منه إلا أن أولاده كانوا في أخذهم المال أقساماً ثلاثة ، ولهذا أتى فيها بالفاء الدالة على تفصيل ما أجمله أولا كما إذا قلت : خذ هذا المال فأعط فلاناً كذا وأعط فلاناً كذا ، ونظائره متعددة ، ولا وجه للإتيان بالفاء ها هنا إلا تفصيل المذكور أولا ، لا تفصيل المسكوت عنه ، والآية قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفى منهم من أورثه الكتاب ، فالتفصيل للمذكور ليس إلا ، فتأمله فإنه واضح . قالوا : وأما قولكم إن الله لا يصطفي من عباده ظالماً لنفسه لأن الاصطفاء هو الاختيار من الشيء صفوته وخياره إلى آخر ما ذكرتم ، فجوابه : أن كون العبد مصطفى لله ووليا لله ومحبوباً لله ونحو ذلك من الأسماء الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافي ظلم العبد نفسه

أحياناً بالذنوب والمعاصي ، بل أبلغ من ذلك صديقيته لا تنافي ظلمه لنفسه ، ولهذا قال صديق الأمة وخيارها للنبي صلى الله عليه وسلم : علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولايغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم »[(1)] ، وقد قال تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) [آل عمران : ١٣٣-١٣٥] . وأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك ، وقال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) [الزمر : ٣٣-٣٥] . فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالا سيئة يكفرها ، ولا ريب أنها ظلم للنفس ، وقال موسى : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) [القصص : ١٦] . وقال آدم عليه السلام : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [الأعراف : ٢٣] . وقال يونس عليه السلام : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) [الأنبياء : ٨٧] . وقال تعالى : (إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم) [النمل : ١٠،١١] . وإذا كان ظلم النفس لا ينافي الصديقية والولاية ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين ، بل يجتمع فيه الأمران : يكون ولياً لله صديقاً متقياً وهو مسيء ظالم لنفسه ، علم أن ظلمه لنفسه لا يخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه، إذا هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علماً وعملاً ، ظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض مما أمر به وتعديه بعض ما نهي عنه ، كما يكون الرجل ولياً لله محبوباً له من جهة ومبغوضاً له من جهة أخرى .

---

(١) في الصحيحين ، ومر برقم (١) من سورة آل عمران (١ / ٤٩٣) .

وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة ، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنته وقال : إنه يحب الله ورسوله(١) ونكتة المسألة : أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزي والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الإيمان ، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالماً لنفسه من وجه آخر . وظلم النفس نوعان : نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر . ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي ، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل إشكالها بحمد الله ، قالوا : وأما قولكم إن قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن** ﴾ مرفوع لأنه بدل من قوله : ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ وهو مختص بالسابقين ، وذكر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك . إلخ ، فجوابه من وجهين :

أحدهما : أن هذا بعينه وارد عليكم ، فإن المقتصد من أهل الجنات ، ومعلوم أن جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته ، فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه ، فإن التفاوت حاصل بين جنات الأصناف الثلاثة ، ويختص كل صنف بما يليق بهم ويقتضيه مقامهم وعلمهم .

الجواب الثاني : أنه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات هنا مشوقا لعباده إليه منبهاً لهم على مقداره وشرفه وسكت عن جزاء الظالمين لأنفسهم والمقتصدين ليحذر الظالمون ويجد المقتصدون وذكر في سورة الإنسان جزاء الأبرار منبهاً على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على أن هذا إذا كان جزاء للأبرار المقتصدين فما الظن بجزاء المقربين السابقين فقال : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا – إلى قوله – ويطاف عليهم بآنية

(١) رواه البخاري (١٢ / ٧٧) في الحدود ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر .
و « حمار » لقب له .

من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة – إلى قوله – عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) [الإنسان : ٥-٢١] . فذكر هنا الأساور من الفضة والأكواب من الفضة في جزاء الأبرار ، وذكر في سورة الملائكة الأساور من الذهب في جزاء السابقين بالخيرات ، فعلم جزاء المقتصدين من سورة الإنسان ، وعلم جزاء السابقين من سورة الملائكة ، فانتظمت السورتان جزاء المقربين على أتم الوجوه . والله أعلم بأسرار كلامه وحكمه . قالوا : وهذا هو الجواب عن قولكم إن الضمير يختص به أقرب مذكور إليه . قالوا : وأما قولكم إن الظالم لنفسه إنما هو الكافر فقد تقدم جوابه وذكر ما يبطله . قالوا : وأما قولكم إن هذه الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الإنسان وسورة المطففين في تقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام : أصحاب الشمال ، وأصحاب اليمين ، والمقربون ، فلا ريب أن هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر وهو تقسيم أصحاب اليمين إلى ظالم لنفسه ومقتصد فهي مشتملة على تلك الأقسام وزيادة .

قالوا : وأما قولكم : إن الآثار الدالة على أن الأصناف الثلاثة هم السعداء أهل الجنة ضعيفة لا تقوم بها حجة ، فجوابه : إنها قد بلغت في الكثرة إلى حد يشد بعضها بعضاً ويشهد بعضها لبعض ، ونحن نسوق منها آثاراً غير ما ذكرناه يعلم به كثرتها وتعدد طرقها .

فروى ابن مردويه في تفسيره من حديث سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبي ثابت أن رجلا دخل المسجد فقال : اللهم ارحم غربتي وآنس وحشتي وسق لي جليساً صالحاً ، فقال أبو الدرداء : إن كنت صادقاً لأنا أسعد بذلك منك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) قال : أما السابق بالخيرات فيدخله الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم والحزن ثم يدخل الجنة ، ثم قرأ هذه الآية : (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور

شكور) . وقد ذكرنا فيما تقدم حديث أبي ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن أسامة بن زيد في قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلهم من هذه الأمة »[(١)].

وروى ابن مردويه أيضاً من حديث الفضل بن عميرة العبسي عن ميمون ابن سياه عن أبي عثمان النهدي قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »[(٢)] وقرأ عمر (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) .

وروي أيضاً من حديث أبي داود عن شعبة عن الوليد بن العيزار قال : سمعت رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) قال : « كلهم في الجنة » ، أو قال : « كلهم بمنزلة واحدة » قال شعبة : أحدهما ، ورواه داود بن إبراهيم عن شعبة به وقالوا : دخلوا الجنة كلهم بمنزلة واحدة[(٣)] .

---

(١) مر قريباً .

(٢) ضعفه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف صـ (١٣٩) رقم (٢٦٦) .
والألباني في ضعيف الجامع (٣٢٩٩) .
ووقع في المطبوع « عمرة العيسي » والصواب ما أثبته .
ورواه البيهقي في البعث والنشور صـ (٨٥) .

(٣) ضعيف .
ورواه الإمام أحمد (٣ / ٧٨) .
والطبري في تفسيره (٢٢ / ١٣٧) .
والترمذي (٥ / ٣٣٨) في التفسير ، باب : « ومن سورة الملائكة » .
وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .
قلت : وفيه مجهولان فقد قال محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الوليد بن عيزار أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد الخدري فذكره .
وفي تحفة الأحوذي (٩ / ٩٤) قال الترمذي : غريب حسن .. فتحسين الترمذي له لشواهده » اهـ .

فهذا حديث صحيح إلى شعبة وإذا كان شعبة في حديث لم يطرح ، بل شد يديك به .

ورواه يحيى بن سعيد عن الوليد بن العيزار فذكره بمثله ، وروى محمد بن سعد(١) عن أبيه عن عمه حدثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ الآية . قال : جعل الله أهل الإيمان على ثلاث منازل كقوله : وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون فهم على هذا المثال . قلت : يريد ابن عباس أن الله قسم أصحاب اليمين إلى ثلاث منازل كما قسم الخلق في الواقعة إلى ثلاث منازل ، فإن أصحاب الشمال المذكورين في الواقعة هم الكفار المنكرون للبعث ، فكيف تكون هذه منزلة من منازل أهل الإيمان ؟ ويجوز أن يريد أن الظالمين لأنفسهم المستحقين للعذاب هم من أهل الشمال ، ولكن إيمانهم يجعلهم آخراً من أهل اليمين . وروي من حديث معاوية ابن صالح عن علي بن أبي طلحة(٢) عن ابن عباس في هذه الآية قال : «هم أمة محمد ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً . وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب »(٣) .

وروي من حديث عثمان بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن عبد الرحمن بن أبي ليلى حدثنا عمران بن محمد بن أبي ليلى حدثنا أبي عن الحكم عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن البراء بن عازب – أو عن رجل عن البراء بن عازب – قال :

= وصححه الألباني كما في صحيح الترمذي له رقم (٢٥٧٧) .

(١) رواه ابن جرير (٢٢ / ١٣٥) وهذا سند مسلسل بالضعفاء كما مر من قبل ، وانظر تفسير الطبري المحقق (١ / ٢٦٣) رقم (٣٠٥) .

تنبيه : أشار مصحح « طريق الهجرتين » طبعة المكتبة السلفية صـ (١٨٨) ,أن محمد بن سعد هذا ليس صاحب الطبقات وهذا خطأ ، بل هو صاحب الطبقات ، وسنده هذا مشهور .

(٢) وقع في المطبوعة « طالب » وهو خطأ ، والصحيح المثبت .

(٣) ورواه الطبري (٢٢ / ١٣٣) .

وهذا منقطع ؛ لأن علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما ولم يره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » قال : « كلهم ناج وهي هذه الأمة »[١] .

ورواه الفريابي حدثنا سفيان عن أبي ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية قال « كل ناج »[٢] .

وقال آدم بن أبي إياس حدثنا أبو فضالة عن الأزهري عبد الله الخزاز حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول : ألا إن سابقنا أهل جهادنا ، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا ، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا[٣] .

وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة قالوا : فهذه الآثار يشد بعضها بعضاً ، وأنها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها ، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا تعدل عنها[٤] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكها بحلمه ومغفرته وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره تعالى . فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله .

---

(١) ورواه الفريابي وابن مردويه كما في الدر المنثور (٧ / ٢٥) ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيء الحفظ .

(٢) انظر الحديث السابق .

(٣) ضعيف ، للإبهام وحال محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى كما تقدم .

(٤) طريق الهجرتين (١٧٤ - ١٨٨) .

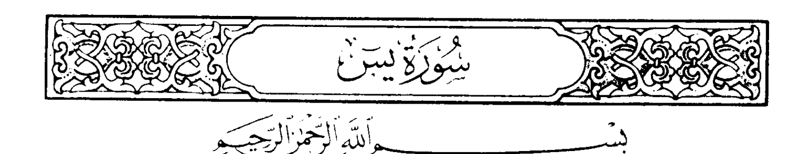
وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً : « ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم »[١] . وهذا مقتضى الطبيعة لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره[٢] .

* * *

(١) في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات .... » .
وهو ضعيف لجهالة الراوي عن أبي صالح ، وأبو صالح مولى عمر بن الخطاب مجهول ، انظر المسند بتحقيق أحمد شاكر (١ / ٢٨٦) .

(٢) عدة الصابرين (٢٧٧ - ٢٧٨) .

سُورَةُ يسٓ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وقال سبحانه : ﴿ يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس : ١-٤] .

والصحيح أن يٓس بمنزلة حم وألم ، ليست اسماً من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه وقوله تعالى : ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ وجوز فيه ثلاثة أن يكون خبراً بعد خبر فأخبر عنه بأنه رسوله وأنه على صراط مستقيم .

وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله أي أرسلتك على صراط . وهذا يحتاج إلى بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره[1] .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٧-٩] .

قال الفراء : حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله .

وقال أبو عبيدة : منعناهم عن الإيمان بموانع ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلب كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان فإن قيل : فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب فكيف ذكر الغل الذي في العنق قيل :

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢٦) .

لما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله والمراد به القلب كقوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه) [الإسراء : ١٣] . ومن هذا قولهم : إثمي في عنقك ، وهذا في عنقك ومن هذا قوله : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) [الإسراء : ٢٩] . شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلى العنق ومن هذا قال الفراء (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) حبسناهم عن الإنفاق . قال أبو إسحاق : وإنما يقال للشيء اللازم هذا في عنق فلان أي لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق .

قال أبو علي : هذا مثل قولهم طوقتك كذا وقلدتك كذا . ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق .

قلت : ومن هذا قولهم قلدت فلانا حكم كذا وكذا ، كأنك جعلته طوقا في عنقه وقد سمى الله التكاليف الشاقة أغلالا في قوله : (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) [الأعراف : ١٥٧]. فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها. قال الحسن : هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول وقتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وتتبع العروق من اللحم . وقال ابن قتيبة : هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وجعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد . وقوله : ﴿ فهي إلى الأذقان ﴾ . قالت طائفة : الضمير يعود إلى الأيدي وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها ، قالوا : لأن الغل يكون في العنق فتجمع إليه اليد ولذلك سمي جامعة وعلى هذا فالمعنى فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلى أذقانهم . هذا قول الفراء والزجاج .

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى الأغلال وهذا هو الظاهر . وقوله : ﴿ فهم مقمحون ﴾ أي واصلة وملزوزة إليها فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتى وصل إلى الذقن وقوله : ﴿فهي إلى الأذقان ﴾، قال الفراء والزجاج : المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه ، ومعنى الإقماح في اللغة : رفع الرأس وغض البصر يقال أقمح البعير رأسه وقمح .

وقال الأصمعي : بعير قامح إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب .

قال الأزهري : لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعد كالإبل الرافعة رؤوسها . انتهى .

فإن قيل : فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان . قيل : أحسن وجه وأبينه فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش فإذا كان عريضا قد ملأ العنق ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركة ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا** ﴾ قال ابن عباس : منعهم من الهدى لما سبق في علمه . والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم هو الذي سد عليهم طريق الهدى فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لايرون شيئا . وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقا له أتم مطابقة وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف . والله المستعان[1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم والكتاب المقارن لأعمالهم فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث ويجازيهم بأعمالهم وبه بكتابته لها على ذلك قال : نكتب ما قدموا من خير أو شر فعلوه في حياتهم وآثارهم ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم ، وقال ابن عباس في رواية عطاء : آثارهم ما أثروا من خير أو شر كقوله : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ [القيامة : ١٣] .

---

(١) شفاء العليل (٩٤ - ٩٥) .

فإن قلت : قد استفيد هذا من قوله : ﴿ **قدموا** ﴾ فما أفاد قوله : ﴿ **آثارهم** ﴾ على قوله .

قلت: أفاد فائدة وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل وكأن مقاتلا أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريبا وتمثيلا لا حصراً وإحاطة .

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة : نزلت هذه الآية في بني سلمة أرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد وكانت منازلهم بعيدة فلما نزلت قالوا بل نمكث مكاننا . واحتج أرباب هذا القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يابني سلمة دياركم تكتب آثاركم » وقد روى مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس[1] وفي هذا القول نظر فإن سورة يس مكية[2] وقصة بني سلمة بالمدينة إلا أن يقال هذه الآية وحدها مدنية

(١) الذي في صحيح البخاري (٢/١٦٣– ١٦٤) في الأذان، باب: احتساب الآثار و(٤/١١٨) في فضائل المدينة ، باب : كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن تعرى المدينة ، عن أنس رضى الله عنه « يابني سلمة ألا تحتسبون آثاركم ؟ فأقاموا وذلك حين أرادوا التحول قرب المسجد ، وليس فيه ذكر للآية .
وكذا عند مسلم (٢ / ٣١٢) في المساجد ، باب : فضل الصلاة المكتوبة في جماعة ، من حديث جابر رضي الله عنه ، دون ذكر للآية .
ولكن عند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري (٥ / ٣٣٩) في التفسير ، باب : من سورة يس وذكر الآية .
وقال : حسن غريب . وصححه الألباني .
صحيح الترغيب (١ / ١٢٣) .
وصحيح الترمذي (٣ / ٩٧) .

(٢) قال القرطبي « وهي مكية بإجماع ، إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى : « ونكتب ما قدموا وآثارهم » مدنية » (٦ / ٥٤٤٥) .

وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها وذكروا بها عندها إما من النبي صلى الله عليه وسلم وإما من جبريل فأطلق على ذلك النزول ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك نزلت مرتين والمقصود أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم . قال عمر بن الخطاب : لو كان الله سبحانه تاركا لابن آدم شيئا لترك ما عفت عليه الرياح من أثر . وقال مسروق : ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة والمقصود أن قوله ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ وهو اللوح المحفوظ وهو أم الكتاب وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه[1] .

ومن هذا ما حكاه الله سبحانه عن محاجة صاحب « يس » لقومه بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس :٢٠-٢١]. **فنبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع رسولاً لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى وأنه على هداية. ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف** وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر .

ثم قال : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [يس : ٢٢] .

أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم ، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها ، قبيح الإخلال بها فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه ونعمه كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقه وقد جبل الله العقول والفطر على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع ثم أقبل عليهم مخوفاً لهم تخويف الناصح فقال : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٢٢] .

---

(١) شفاء العليل (٣٩ – ٤٠) .

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دونه أنها باطلة وأن عبادتها باطلة فقال : ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس : ٢٣] .

فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه وإنما إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذونني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه لأتخلص من ذلك الضر فبأي وجه يستحق العبادة و ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس : ٢٤] . إن عبدت من دون الله مما هذا شأنه[1] .

قوله تعالى : حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجاً عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم: ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون** ﴾ [يس : ٢٢].

فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله وهو أن كونه سبحانه فاطراً لعباده يقتضي عبادتهم له وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه ولا سيما إذا كان مرده إليه فمبدأه منه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره وأنها أقبح شيء في العقل وأنكره فقال : ﴿ **ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني إذاً لفي ضلال مبين** ﴾ [يس : ٢٣-٢٤] . أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة[2] .

---

(١) الصواعق المرسلة (٤٩٤/٢ - ٤٩٧) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٥) .

قول الله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس : ٥٤] .

فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره ، لا على وجه الجزاء فإن انتفاعه بها يُهدى إليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : ٦٩-٧٠] .

أخبر سبحانه أن الناس قسمان : حي قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به ، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به ، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير البتة فيحق عليه القول بالعذاب . وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه . لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان بل لأنه غير قابل ولا فاعل . وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول ، إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال : لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك فأرسل إليه رسوله ، فأمره ونهاه ؛ فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى فعوقب بكونه غير فاعل . فحق عليه القول : أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول ، كما قال تعالى : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) [يونس : ٣٣] . وحق عليه العذاب . كقوله تعالى : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) [غافر : ٦] . فالكلمة التي حقت كلمتان : كلمة الإضلال وكلمة العذاب كما قال تعالى : (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) [الزمر : ٧١] . وكلمته سبحانه ، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم . فحقت عليهم كلمة حجته ، وكلمة عدله بعقوبته . وحاصل هذا كله : أن الله سبحانه أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم ، لا مع مراد أنفسهم . فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم . فاستحقوا كرامته . وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده وعلم سبحانه

(١) الروح (١٢٩) .

منهم : أنهم لا يؤثرون مراده البتة . وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم فأمرهم ونهاهم فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله ؛ فعاقبهم بظلمهم[1] .

قول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٧٨-٨٢] .

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة[2] :

أحدها : قوله : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة** ﴾ فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية ، ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل ، بل لما نسي خلقه ضرب المثل . فتحت قوله : ﴿ **ونسي خلقه** ﴾ ألطف جواب ، وأبين دليل ، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئا: فلان جحدني الإحسان إليه ، ونسي الثياب التي عليه ، والمال الذي معه ، والدار التي هو فيها ، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك . ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ فهذا جواب واستدلال قاطع ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق ، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه ، أو قصور في قدرته ، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم ، ولا قدرة فوق قدرة من خلق

(١) مدارج السالكين (٢١٨/١ - ٢١٩) .

(٢) أي على الدلالة على البعث .

السموات والأرض ، وإذا أراد شيئاً ، قال له : كن فيكون ، وبيده ملكوت كل شيء فكيف تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم ، ولم تعجز عن النشأة الأولى ، ولا عن خلق السموات والأرض .

ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل فقال : ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ ، فإن هذا دليل على تمام قدرته ، وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء ، وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد : الموت بارد يابس ، والحياة طبعها الرطوبة والحرارة ، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما ، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل ، فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ، ليلزم ما قالوا ؟! بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه ، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة .

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل ، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما ، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما ؟ ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم ، ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال : ﴿ **بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء ، ولا يعجزه ما أراده من الخلق ، ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه ، ولا عن شيء أبداً فقال : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه ، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله : ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء** ﴾ فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد ، معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده ، يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه ، ثم ختم السورة بقوله : ﴿ **وإليه**

ترجعون ﴾ كما أنهم ابتدأوا منه هو ، فكذلك مرجعهم إليه ، فمنه المبدأ ، وإليه المعاد ، وهو الأول والآخر ، وأن إلى ربك المنتهى[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال سبحانه في تثبيت أمر البعث : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨،٧٩] .

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك .

فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً فكان في قوله سبحانه : ﴿ **ونسي خلقه** ﴾ ما وفى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدء كونه وذكر خلقه لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكتة له عن هذا السؤال ؛ ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله : ﴿ **ونسي خلقه** ﴾ وصرح به جواباً له عن مسألته فقال : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ [يس : ٧٩] .

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى عن النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز .

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : ﴿ **وهو بكل خلق عليم** ﴾ [يس : ٧٩] .

---

(١) إعلام الموقعين (١/١٨٩ - ١٩١) .

فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله وجزئياته ومواده وصورته وعلله الأربع وكذلك هو عليم بالخلق الثاني وتفاصيله ومواده وكيفية إنشائه فإن كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة لتقبل صورة الحياة ! فتولى سبحانه جواب هذا السؤال بما يدل على أمر البعث ففيه الدليل والجواب معاً فقال : ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ [يٓس : ٨٠] .

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودمغه من إحياء العظام وهي رميم .

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر والأصغر ، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً ، فقال : ﴿ **أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ [يٓس : ٨١] . فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى كما قال في موضع آخر : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [غافر : ٥٧] . وقال : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) [الأحقاف : ٣٣] .

ثم أخذ سبحانه ذلك وبينه بياناً آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبهة كل ملحد وجاحد وهو أنه ليس في فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابد معه من آلة ومشارك ومعين

بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون « كن » فإذا هو كائن كما شاءه وأراده .

فأخبر عن نفاذ مشيئته وإرادته وسرعة تكوينه وانقياد المكون له وعدم استعصائه عليه ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وهو قوله : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ [يس : ٨٣] . فتبارك الذي تكلم بهذا الكلام الذي جمع في نفسه بوجازته وبيانه وفصاحته وصحة برهانه - كل ما تلزم الحاجة إليه من تقرير الدليل وجواب الشبهة ودحض حجة الملحد وإسكات المعاند بألفاظ لا أعذب منها عند السمع ولا أحلى منها ومن معانيها للقلب ولا أنفع من ثمرتها للعبد[١] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢].

ففي هذه الآية عدة أدلة[٢] :

أحدها : قوله : ﴿ **إنما أمره** ﴾ وهذا أمر التكوين الذي لا يتأخر عنه أمر المكون بل يعقبه .

الثاني : قوله : ﴿ **إذا أراد شيئاً** ﴾ وإذا تخلص الفعل للاستقبال .

الثالث : قوله : ﴿ **أن يقول له** ﴾ وإن تخلص المضارع للاستقبال .

الرابع : ﴿ **أن يقول** ﴾ فعل مضارع إما للحال وإما للاستقبال .

الخامس : قوله: ﴿**كن**﴾ وهما حرفان سبق أحدهما الآخر ويتعقبه الثاني.

السادس : قوله : ﴿ **فيكون** ﴾ والفاء للتعقيب يدل على أنه يكون عقيب قوله له ﴿ **كن** ﴾ سواء لا يتأخر عنه .

السابع : أن قوله ﴿ **كن** ﴾ تكوين قائم به سبحانه والكون قد تعقبه ولم ينزح عنه[٣]

(١) الصواعق المرسلة (٤٧٣/٢ - ٤٧٧) .
(٢) على تعدد صفات الواحد .
(٣) الصواعق المرسلة (١٢٢٥/٤ - ١٢٢٦) .

الفهـــرس



□ الفهرس الموضوعي للمجلد الثالث □

سورة النحل

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يسٓ

* * *